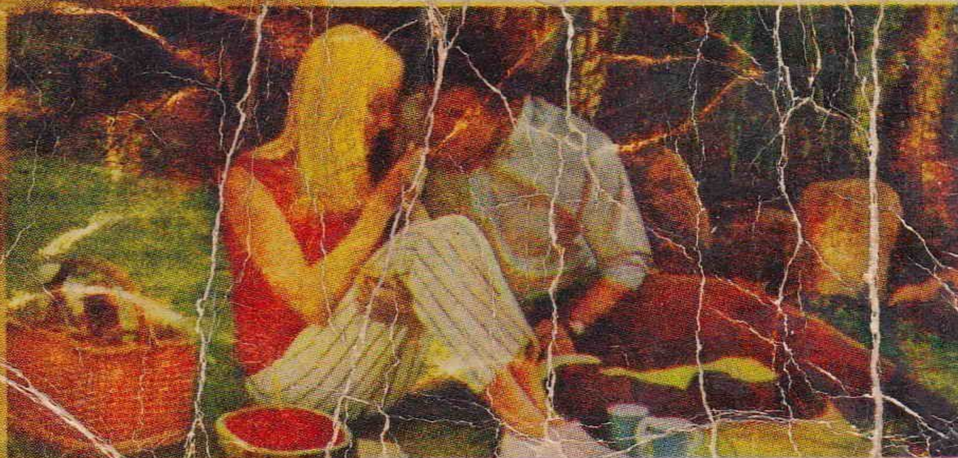


البرتا

تأليف بيير بنوا
ترجمة موسى بدوي





الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة

** شهر سبتمبر 2018 **

www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

ألبرتا

تأليف بيير بنوا

ترجمة موسى بدوي





دار الكتاب الجديد

تمهـــيد

الرسالة التالية ، التى وجدت مع المذكرات التى قدر لها ان تصبح هذه القصـــة ، كانت موجهة الى الاستاذ [ر] المحامى الذى يعمل بمكتب [ك] القانونى وكانت مذيلة بتوقيع البرتا الحقيقى :

« سيدى الاستاذ

لقد طلبت منى ان امدك ببعض المذكرات التى من شأنها ان تعاونك فى اعداد مرافعتك للدفاع عنى .

واذا كنت قد رفضت ذلك فى بداية الامر ، فان ذلك كان لاسباب يسهل فهمها . فبالنظر الى اننى انا التى أبلغت عن نفسى ، فلم يخطر لى بعد ذلك ان ادافع عما فعلت .

ولسوف تقر معى بسهولة وجهة نظرى هذه ، انت الذى وقع اختيار العدالة عليك للقيام بهذه المهمة . واعترف اننى لم اتوقع فى ذلك الوقت ماحدث فيما بعد منذ قيام شريكى فى الجريمة ومحاميه بالعديد من الاعمال والحيل النزقة لتأخير نظر هذه القضية .

لقد وجدت نفسى بعد ذلك فى فراغ حزين ، توالت على خلاله ذكريات كنت اعتقد انها طمست وانمحت ،

فاذا بها تنبعث حية ، واذا بها تثقل على بصورة لم أعد اتحملها ، وأريد الان ان اضعها عن كاهلى ومن روحى .

وفى اختصار فاننى اكتب لك هذا ، وليس مايدفعنى الى ذلك الامـــــل فى ان ازيح عن كاهـــلى عبء ما ارتكبته امام البشر ، او امام عينيك ، او امام نفسى . انما اكتب هذا مدفوعة بنوع من الحمى التى تشعر بها امراة بائسة ، امكنها اخيرا ان تقول الحق ، بعد ان مرت عليها ثمانية اعوام وهى فريسة لابشع الاكاذيب ... »

الفصل الأول

قد يكون لاعمار ابطال هذه القصة من الاهمية ، ما يفوق بكثير اهميتها فى أية مأساة اخرى ، اذ ان هـذه الاعمار المقيتة ، هي التى تحمل من مسئولية الاحداث التي وقعت ، اكثر مما احمل منها أنا أو [فرانز] .

كنت فى الحادية والاربعين عندما اعلنت خطبة كاميل وفرانز ، وكان عمره وقتئذ أربعة وثلاثين عاما ، وكان عمرها اثنين وعشرين .

وانقضت ثمـانية اعوام ، واصبح فرانز اليوم فى الثانية والاربعين ، واصبحت اكبر قليلا من التاسعة والاربعين .. واأسفاه ، لقد تحولت الى امرأة عجوز ..

ولن احرص على اخفاء بعض التفاصيل ، التى لا يمكن ادراكهامن الناحية المظهرية ، حتى فى مثل الحياة الرتيبه التى عشتها ، والتى امتلات فجأة بالسحب الكثيفة غير المتوقعة ، طوال اربعين عاما .

ان هـذه التفاصيل لم تكن تثير الأهتمـام فى ذلك الوقت ، غير انها عندما كانت تظهر فجأة بعد ذلك فى

ضوء الكارثة التى وقعت ، كانت تثير فى نفسى اكتئابا مروعا فأشعر كأنما كانت قدرا لا مفر منه ، واننى لم أكن مسئولة عنها .

فهل كنت حقا غير مسئولة عنها ؟

كلا .. اننى امتلىء احساسا بجريرتى ، وهى جريرة لم يكن هناك اى شىء ولا أى انسان يحملنى على ان ابوح بها أو أكشف عنها .

وهناك على المائدة التى اكتب عليها ، توجد امامى صورة لكاميل وهى لا تزال طفلة صغيرة ، بجبينهـا الدقيق الذى يدل على عنادها المبكر ، وقد تدلت عليه خصـلات شـعرها الاشقر ، وبعينيها الواسـعتين الشاحبتين ، واللتين زاد شحوبهما لون الورق الذى طبعت عليه هذه الصورة اذ اخذ يبهت ويبلى من كثرة قبلاتى .

اننى اقضى ايامى التى لا نهاية لها فى اعادة هـذه الصورة الى حقيبتى ، وفى اخراجها منها . ويخيل الى فى كل مرة افعل ذلك ، انها المرة الاولى التى أرى فيها كاميل .

فما الذى يمكن ان أتوقعه من هذه المواجهة ؟ أهو شعور بتخفيف ما يراودنى من ندم أم بمضاعفته ؟

ان ما أتوقعه هو هذا وذاك ، حتى تنتهى هذه الايام التعسة التى كتب على ان احياها . فلماذا قدر لهاتين المخلوقتين الا يعرفا طعم السعادة ؟

السعادة !

لاشك فى ان هناك آخرين بين جدران هذا السجن قد نطقوا باسمها ، وانهم كانوا اهلا لها اكثر منى ..

ولكى ماذا عنها ، عن كاميل ، ابنتى ؟

اننى اذكر انه حدث ذات يوم ، وكانت هى لا تزال فى الثانية من عمرهـــا ، ان رأيت الطبيب يخـــرج من غرفتها ، ثم يتحدث الى فى صوت منخفض . كان مابها هو مرض الخناق ، وطوال الليالى الاربع التى اعقبت ذلك ، ظللت ساهرة الى جوار فراش ابنتى الصغيرة وأنا اخاف فى كل لحظة من ان ينتزعها الموت منى .

وليس هناك من شك فى اننى لو استطعت فى تلك اللحظة ان اتنبأ بما وقع لى أو لها بعد ذلك ، لفضلت لها ان تموت .. ولكن الى اين ترانى اذهب ؟

اننى لازلت فى بداية محاولتى ، ومع ذلك فقد بدأت أضل طريقى . ومع ذلك فان هذا الاعتراف ليس له ما يبرره ، الا اذا كان خلوا من ذلك ، وجـــاء منظما ومصورا الاحداث كما وقعت ، كأنه تقرير دقيق عنها .



لقد عين والدى الذى كان جابيا بوزارة المالية فى مركز الاقليم الذى تزوجت فيه فيما بعد . فلما انقضى عامان على تعيينه ، تزوج والدتى ، التى كان من بين البائنة التى قدمتها اليه ذلك البيت الريفى الذى ذهبت لاعيش فيه ، عندما اصبحت أرملة .

وكان والداى دائما موضع احترام كل من يتعـــرف عليهما ، ولم تكن لى يد فى التقليل من هذا الاحترام ، الا اذا افترضت ان طفولتى كان يمكن ان تكون اسعد مما حدث بالفعل .

والى جانب ذلك فاننى لم اكن امضى الا جانبا صغيرا

من حياتى فى ذلك البيت ، فقد ماتت والدتى عندما كنت فى السادسة من عمرى ، وما كدت ابلغ الثامنة حتى التحقت بالقسم الداخلى فى مدرسة البنات بالمدينة .

كان والدى لا يوافق على تربيتى تربية علمية ، غير انه كان موظفا ، وفضـلا عن ذلك فانه كان يشعر بالسرور كلما راح يكرر ان مصـادرنا المالية كانت متوسطة ، وانه لا يريد ان يسمع من يلومه فى احـد الايام على انه لم يهىء لابنته الفرصـة لكى تكسب عيشها بنفسها .

وكان معنى ان اكسب عيشى بنفسى ، هو ان احصل على شهادة التعليم العادى ، ثم اذا استطعت الوصول اليها ان احصل كذلك على شهادة التعليم الثانوى .

كان رجلا لا بأس به ، ولكنه عندما يغضب فانه كان يبعث فى الخوف . وكان شعوره بالزهو وحده ، هو الذى كان يستطيع ان يتغلب على عنفه .

ولقد ادركت ذلك فى صدر شبابى ، بل عندما كنت لا ازال طفلة صغيرة ، ولم يكن من الاشياء الجميلة ان تسنح الفرصة مبكرا للطفل لكى يتعلم كيف يصدر حكما على والديه .

فقد تقرر أن يقوم رئيس الجمهورية بزيارة مدينتنا فى أحد الايام ، وبالرغم من أنه لم يمكث فيها سـوى بضع ساعات ، فان وضـع تفاصـيل الاحتفـال الذى أقيم لاستقباله قد استغرق فترة طويلة . ومن أهم هـذه التفاصيل ان يزين أكبر ميادين المدينة بالاعلام ، وأن تقف فى استقبال الرئيس ثلاث فتيات صغار من المدرسـة الثانوية ، ترتدى الاولى ثوبا أزرق ، والثانية ثوبا أبيض ، والثالثة ثوبا أحمر .

وأما تلك التى ترتدى الثوب الابيض ، فقد كان عليها أن تلقى عبارة ترحيب ، بينما تتقدم زميلتاها بالزهور الى الرئيس . ولما كنت الاولى فى القاء الشعر على فصلى ، فقد وقع على الاختيار لالقاء تلك التحية ، فكان شعورى بالفخر أقل من شعورى بالخوف ، اذ كنت أعرف ان والدى لن يرضى عن اشتراكى فى مثل هذه الاحتفالات .

كان موعد وصول الرئيس قد تحدد له يوم الاثنين ، فقضيت يوم الاحد السـابق له فى بيتنـا ، وكان ذلك بالنسـبة لى عذابا طويلا . ولم أجرؤ أن أقول لوالدى الحقيقة الا فى المساء ، عندما أزفت ساعة عودتى الى المدرسة .

وقد فاق غضبه حدود كل ما تصـورته ، فعدت الى المدرسـة والدموع فى عينى ، وأنا أتوجس خيفة مما سوف يحدث .

وفى اليوم التالى ، عنـدما كنت أعيد للمرة الاخيرة قراءة تلك التحية بينما كنت أرتدى ثيابى ، لم أكن قـد تمالكت أعصابى بعد ، وكان أول من وقعت عليه عيناى فى مكان الاحتفال هو أبى ، وقد ظهر بين الجمهور .

كان جالسا فى الصف الثانى الذى خصص للموظفين ، الذين سـوف يقدمون الى رئيس الجمهـورية . وقد أحسست بأنه ينظر الى ، ولكننى تجنبت نظراته التى لم يكن لدى أى شك فى أنها حافلة بالسخط والغضب .

عند ذلك التصق لسانى بسقف حلقى ، ولكن عاودنى شىء من الشجاعة بعد ذلك عندما سمعت رنين الاجراس والموسيقى وهى تعلن اقتراب الموكب . واستـعدت هدوئى .

وبقدر ما تذكرت هذه الاحداث جيـدا طيلة حياتى ،

فاننى أتساءل كيف استطعت أن أرى فى تلك اللحظة كل هذه التفاصيل، وذلك الريش الابيض الذى كان يعلو قبعات كبار الضـــباط ، والرداء الموشى بالفضة الذى ارتداه محـــافظ المدينـــة ، والاحزمة المثلثة الالوان التى تمنطق بها أصحاب المراكز الكبيرة وأعضاء البرلمان ، وأخيرا الرئيس بلحيته الســـوداء المهيبة ، ووشـــاحه الاحمر الجميل الذى يتدلى على صدره .

وأشير الى لكى أبدأ ، وفجأة دوى صوتى وسط ذلك الميدان الذى ساده الصمت . كان صـــوتى قد تغير ، وأصبح له رنين لم يكن متوقعا أدهشنى وأذهلنى ، وبغتة دوى التصفيق ...

وفى هـــذه الاثناء كان الرئيس يتقبل الزهور التى حملتهـــا اليه الفتاتان اللتـــان ارتديتـــا الثوبين الازرق والاحمر ، فتطلع الى وهو يبتسم ، ثم قال :

ــ انها رقيقة للغاية هذه السمراء الصغيرة .. ما هو اسمك يا صغيرتى ؟

لم أجد الوقت الكافى لانطق باسمى وأنا أتلعثم ، فقد تقدم رجل وقور امتلأ سرورا ليقف بينى وبين الرئيس ، عرفت فيما بعد أنه عمدة المدينة . قال :

ــ اذا سمحت لى يا ســـيدى .. فانها ابنة رئيس الشئون المالية فى مدينتنا ...

وفى ذات الوقت كان يأتى باشـــارات يوجهها نحو أبى ، الذى جاء مسرعا لكى يكون له شرف مصـــافحة الرئيس ، قبل كافة كبار الموظفين . وقد خيل الى أنه كان شاحب الوجه بعض الشىء ، اذ تطلعت اليه بملء عينى ، بعد أن زال عنى الخوف من النظر اليه .

قال له رئيس الجمهورية :

ــ تهانئى اليك يا عزيزي .. ان ابنتك رقيقة حقا .. ولها صوت جميل ...

ولما كان تلاميذ المدارس قد منحوا أجازة فى هــذا اليوم ، فقد أمضيته فى البيت . وعندما كنا نتناول طعام الغداء ، لم يحاول أبى اخفاء سروره ، وقال :

ــ لقد كانت جميلة تلك التحية التى ألقيتها ، وقــد صيغت فى أحسن العبارات التى كنت أرجوها ، بل اننى أعتقد أنه كان ينبغى أن يزيد كاتبها من معانى الاشـادة بذلك الرجل العظيم ...

ونهض أبى ، وراح يســير فى قاعة الطعام ، فلما اقترب منى وضع يده على جبينى ، ثم سمعته يهمس فى أذنى بصورة لطيفة لم أعهدها فيه من قبل :

ــ ثم انه كان على حق فيما قال ، فــكم هى جميلة صغيرتى ألبرتا !

جميلة !

لقد كنت جميلة .. وقد اضطررت الى الانتظار ثلاثين عاما لكى أسمع هذه الكلمة مرة أخرى تقال لى ، ولكن كم كان باهظا ذلك الثمن الذى اقتضانى ذلك أن أدفعه !



وكما كان مقررا من قبل ، فان ألبرتا قــد اجتــازت بنجاح امتحان شهادة التعليم العادى ، وحصلت بعد ذلك على شهادتها العليا .

ولكن اذا كنت قد اجتزت تلك الامتحانات بكل ثبات ، فقد بدا أننى لا أســتطيع أن أزعم قط أننى قادرة على أن أصبح واحدة من اللواتى يفخر بهن التعليم الثانوى للبنات .

ثم ان أبى كان قد اتخذ قراره ، وأصبح متقدما فى السن ، كما أنه كان يعانى من المرض الذى قدر له الا يشفى منه . ولو أننى كنت قد أبديت فى ذلك الوقت رغبتى فى المضى فى المشروعات التى كان قد وضعها لى ، لما رأى فى ذلك الا دليلا على جحودى .

وقد قررنا معا باتفاق غير معلن أن أبقى فى البيت ، كما اتفقنا أيضا ، ولكن تحت ظروف خاصة ، على أن أتزوج .

كانت الخادمة العجوز التى عملت لدي أسرتى منذ ربع قرن ، قد انسحبت الى قريتها لتقضى فيها بقية أيامها ، فلم نستأجر خادمة أخرى ، وتوليت بسعادة بالغة أعمالها ، ولم ألبث أن اكتشفت أننى ربة بيت لا تبارى . وعند ذلك خيل الى أن هذه هى المهمة الحقيقية التى خلقت لها .

لقد كانت المدرسة الثانوية للبنات بالنسبة لى حادثا طارئا فى حياتى ، فلم تترك فى نفسى روح الاستقلال ، ولا تلك العزيمة التى قدر فيما بعد أن تكون الطابع الذى تتميز به كاميل .

وليس هناك من شك فى أننى قرأت خلال دراستى بعض القصص ، ولكنها لم تكن سوى القصص التى كانت مقررة فى المناهج . ولست أريد بذلك أن أبدو أكثر حكمة مما كنت ، بل لا أكون صادقة اذا قلت اننى لم أتأثر بالتجارب التى مرت بها بطلات القصص التى قرأتها ، غير انه لم تطرأ لى قط فكرة عقد مقارنة بين مصيرى ، وبين مصير أولئك البطلات .

فقد ظلت أجمل تلك الخيالات حبيسة صفحات كتابى الذى سرعان ما أغلقته ، فلم تعد تطاردنى لا فى نزهاتى

اليومية التى كنت اقوم بهـــا فى صحبة ابى ، ولا فى غرفتى ولا فى فراشى ذى الاغطية النظيفة الخشنة ، حيث كان يستريح جسدى ، بنفس طهارة العجائز أو الاطفال .

***

كنا فى شهر نوفمبر ، وقد مر عام وثلاثة اشهر وأنا أعيش مع أبى ، عندما سألنى ذات صباح فجأة :

ــ اعتقد يا البرتا انه لا يضايقك ان تتزوجى جيروم ؟

كان جيروم مساعده فى العمل منذ خمسة أعوام ، وكان مقررا أن يخرج ابى على المعاش فى أول شهر يناير التالى . وفى ذلك الوقت كان قد تم الاتفاق مع الجهات الادارية على ان يعين جيروم فى منصب أبى .

وكان جيروم رجلا دقيق الجسم ، ضعيف النظر ، اشقر الشــعر ، يرتدى بصفة دائمة سترة ذات ذيل طويل .. ولم يكن يحب ان يقبل اى دعوة فى المدينة ، لانه اعتاد فى المنزل الذى كان يقيم فيه على ان يقرأ صحيفته وهو يأكل .

ومع ذلك فانه نزل تدريجيا على الحاح رئيسه فى العمل ، وبدأ يأتى الى بيتنا ليتناول معنا وجبة العشاء كان ذلك يكلفنى جهدا أكبر ، ولكننى لم أكن اشكو ، لان هذه الصحبة كانت تبعث السرور فى قلب أبى .

كان الرجــلان يتحدثان فى شئون العمل ، وبعــد العشاء يلعبان دورا بالنرد ، وهى لعبتهما الوحيدة التى يتسليان بها (*)

قال :

ــ هل يسوؤك أن تتزوجيه ؟
ــ ولكن الا ينبغى ان أحبه يا أبى ؟
ــ تحبينه ؟ ولم يكن ينقص غير ذلك . وهل تعتقدين ان هذا سيكون شيئا ملائما ؟ وهل تتصورين أننى كنت أحب أمك يوم تزوجنا ؟ أعتقد أنك تهزلين .

والواقع أننى كنت أهزل ، اذ ما هو السبب الذى يحملنى على الضيق من زواج جيروم ؟

لقد تعلمت كيف أفرق بين الناحية الواقعية والناحية الرومانسية ، فقد كنت أقرأ احدى قصص الحب كما لو كانت قصة احدى الرحلات الى مناطق الارض البعيدة ، بحيث كانت تبدو لى كأنها ضرب من الخيال . وكنت انظر الى الوجود كما لو كان شيئا مسطحا فاترا وأقر بأن هذه السطحية وهذا الفتور أمران طبيعيان ، ليس هناك مايدعو الى التأثر منهما أو تمجيدهما .

وفى التاريخ المقرر لخروج ابى الى المعاش ، وهو الذى سبق بقليل تاريخ وفاته ، تزوجت جيروم . كان فى حوالى التاسعة والثلاثين ، غير ان هذا الرقم أو غيره لم يكن ذا أهمية ، اذ انه كان ممن يقضون حياتهم وهم يبدون دائما فى سن واحدة .

الفصل الثانى

لقد رسمت صورة جسدية سريعة لزوجى ، ولن أعود الى ذلك ، اذ ان ذلك لا أهمية له .

أما صورته المعنوية فقد تتطلب ان أوضحها بعض الشيء ، وذلك لكثرة ما كان فيه من نواح غريبة . ولكن هل كان الامر يبعث على الكثير من الاهتمام ؟

لا أعتقد ذلك ، طالما أننى لم أمرها الا اهتماما ضئيلا رغم ما عانيته منها . ثم ماذا كان يمكن ان يكون زوج مثله ، من حيث العقد الذى يربطنا معا ، الا نوعا من الوصـــاية لها احترامها ، والا رجـــلا يقدم الى العون والحماية ، فى مقابل طاعتى له ؟

وقد يقول البعض :

ــ أوهذا كل شيء ؟ هل انحصرت حياتك العاطفية فى هذا فقط ؟ يالهذه المدينة العجيبة ! الم يكن فيها من النساء من كانت لهن بعض المغامرات ؟

وليس هناك من شك فى وجود مثل هؤلاء النساء ، ولكن ماهى الطريقة التى قد يتسنى بها الحديث عنهن ؟

انه كان يدور همسا ، مما كان يحمل على الظن بأنهن قد أتين بشر يبعث على الخجل .

والحقيقة هى ان جميع احاسيسى قد استنامت بعد مولد كاميل ، واليوم وقد تعلمت اخيرا معنى الحـديث عن هذه الاحاسيس ، استطيع ان أقرر أنها لم تكن قد استيقظت فى الى تلك اللحظة قط .

لقد مات أبى بعد زواجى بقليل ، وعقب ذلك ألفيت نفسى حاملا ، اى أننى عدت من جديد الى وحدتى . على ان الانصاف يقتضينى ان أقول انه ما ان علم زوجى بذلك ، حتى اصـــبح رقيقـــا معى ، وبدأ يراعى ما يقضى به الدين والاخلاق .

لم نعد نلتقى معا الا وقت تناول الطعام ، كما أنه لم يلبث ان عاد الى ما كان عليه من قراءة صحيفته على المائدة ، فكان أغلب الوقت الذى نقضيه فى هذه الوجبات يمر علينا فى صمت .

وفى بعض الاحيان ، عندما كان يقرأ مقالا يثيره ، فانه كان يعمد الى التعليق عليه عندما نشرع فى تناول الحلوى . أما أنا فلم أكن قد اهتممت بالسياسة قط ، ولم أعد أذكر الان ماذا كانت آراء زوجى فى هـــذا الصدد . كل ما هناك أننى أذكر النبرة التى كان يتخذها صوته عندما كان يشرح لى تلك الاراء ، فتركت فى أذنى مثل وقع سقوط المطـــر الرتيب ، الذى لا يتغير ولا يتبدل .

ـ لقد كان البيت أيام أبى يتردد فيه صوت ضحكاته العالية ، أو غضبه العنيف . أما بعد ذلك فلم يتردد فيه أى صوت ، حتى ولا صراخ المولودة الجديدة ،

اذ ان كاميل لم تبك وهى طفلة قط ، وفيما بعد ، عندما أصبحت شبه حيوان صغير عصبى متوحش ، تستطيع ان تبعث الثورة في هذا البيت ، فانها غادرته لحصولها على منحة دراسية جعلتها تقيم فى المدرسة الداخلية .

وهكذا لم يعد هناك شعاع يبدد وحدتى الا أسبوع الاجازة الذى كانت تقضيه معى فى عيد الفصح من كل عام ، والاجازة التى كان يحصل عليها زوجى . وكنا نقضى هاتين الاجــازتين بانتظام فى [ماجلون] ، وهو البيت الريفى الذى قدمته والدتى في بائنتها . ولسوف اعاود الحديث عن هذا البيت فى مناسبات كثيرة بعد ذلك ، ولن اتأخر فى ذلك كثيرا .

وفى المدينة كنا نتناول طعام العشاء فى الســاعة السابعة شتاء ، وفى السادسة صيفا ، وذلك لكى تتاح لزوجى فى هذا الفصل فرصة فى ضوء النهار يلعب خلالها جولة فى النرد .

كانت هذه الجولة يلعبها بدوره مع مســاعده فى العمل ، الذىاختاره على شاكلته . وكان لقاعةالطعام نافذتان ، فما ان ينتهى العشاء حتى أذهب لاجلس أمام النــافذة الاولى ، ويبدآن هما فى اللعب أمــام الاخرى .

وكان كل منهما يضع قدح القهوة الذى يحتسيه على مقعد بجواره ، بينما أروح ارقبهما .

كان الاثنــان متماثلين بصورة فــريدة فى نوعها ، سواء فى الصوت أو فى انحناء الظهر أو فى ضعف البصر ، وكذلك فىالطابع الخاص الذى يتميز به اولئك الرجال الذين يعملون فى الجهاز الحسابى للدولة .

أما أنا فكنت أفكر قائلة :
ـــ ياله من لغز .. ان يجىء هؤلاء الرجال على شاكلة واحدة !

وأما هما فيجلسان بغير ان يبدو عليهما أى تعبير ، ويمضيان فى قذف النرد كل وراء الاخر ، بينما ينقضى النهار ببطء .

ومن مقعدى أرى رقعة صغيرة من السماء الزرقاء تمرح فيها السحب ، التى يتغير لونها من الابيض الى الاسود . وفوق ركبتى الجريدة التى كنت قد بدأت فى قراءتها ، ترقد مطوية ، وبين الوقت والاخر القى نظرة عليها .

وعندما اجد صعوبة فى تمييز حروفها المطبوعة ، أدرك على الفور ماسوف يحدث بعد ذلك ، فان زوجى يتنحنح قليلا ، وهذا معناه أنهما لا يريان النرد . وعند هذا انهض من مكانى بغير أن انطق بكلمة واحـــدة ، فأشعل المصباح حتى ينتهيا من جولتهما .

وبينما كنت أقوم بذلك ، كانا يظلان بغير حراك ، وقد أمسك كل منهما بالقدح الذى يرمى به النرد ، ولا يتبادلان حرفا واحدا .

وتكرر هذا المشهد بغير أى تبديل ، حتى وفاة زوجى وكما حل هو محل أبى ، فان مســـــاعده قد خلفه فى منصـــبه ، واعتقد انه لا يزال يشـــغله حتى الان .. ولكننى على الاقل لم اتزوجه .

وفى خلال الاعوام الاربعة الاولى من زواجنا ، كنت أشترك مع زوجى فى غرفة نوم واحدة . فلما مرضت كاميل مرضها الذى اشرت اليه ، وكان لابد من عزلها

فى غرفة خاصة ، ظللت الى جانبها طوال فترة نقاهتها ثم بقيت فيها بعد شفائها . ولم يتحدث زوجى معى فى هذا الشأن قط ، وبذلت من ناحيتى كل جهد ، حتى لا أثير هذا الحديث .

وفى الايام التى تلت ذلك طوال الاعوام الاربعة عشر التى هى عمر زواجنا ، كانت الحياة متشابهة تماما ، مما يجعل من المستحيل على الان ان اميز بين يوم وآخر منها ، ولا حتى بين عام وآخر . فلم نتناول خلال كل تلك الاعوام طعام العشاء لدى احد اكثر من عشر مرات كما اننى لم احضر الا حفلة راقصة واحـــدة ، وكنت يومها فى الثامنة والعشرين من عمرى .

فقد عين فى شتاء ذلك العام وكيل جديد لمحافظة المدينة ، فأقامت زوجته حفلتين ساهرتين فور وصولهما ولقد دعينا الى الحفلتين ، ولـكننا اعتذرنا بطبيعـــة الحال .

وفى تلك الفترة مرت بالمدينة احدى كتائب الفرسان كانت ذاهبة لتحل محل كتيبة اخرى فى الحامية القريبة فانتهزت زوجة وكيل المحـــافظ الجديد هـــذه الفرصة وأقامت حفلة ثالثة . وقد كان علينا حضـــور هـــذه الحفلة ، اذ التقى زوجى بالوكيل الجديد الذى أفهمه ان امتناعنا عن الحضور للمرة الثالثة سوف ينظر اليه نظرة سيئة .

كان لدى زوجى حلة مناسبة ، ولو ان طرازها قد تقادم عليه العهد ، أما أنا فلم يكن لدى أى ثوب للسهرة .

وعلى الفور قررت ان اصنع لنفسى ثوبا ، وقد اسعدنى الحظ بأن عثرت فى احد محلات المدينة على

قطعة من الحرير الاحمر الزاهى ، من النوع الجميل ، فكسوتها جميعا بالدانتيل الاسبانى الاسود الذى كان جدى قد احضره من رحلة قام بها فى اسبانيا .

وبذلت كل جهدى لصنع الثوب على أكمل وجه ، لا يحدونى فى ذلك الا خوفى من ان أبدو فيه موضعا للسخرية . وخيل الى فى آخـــر لحظة ، أننى نتيجـــة لضيق الوقت ولخطأ فى حساب القياس ، جعلت فتحة الصدر أوسع قليلا مما يجب .

ولكن الوقت كان قد فات ، فلم يزايلنى هذا الخوف حتى عندما دخلت يتبعنى زوجى قاعة الاستقبال الكبرى فى قصر وكيل المحافظ . فقد كنت اكثر من كشفت عن صـــــدرها من بين كافة اللاتى حضرن ذلك الحفل ، وبصفة خاصة زوجة وكيل المحـــافظ ، التى لم تترك وسيلة لكى تحوز فى هذا المجال الرقم القياسى .

كنت شديدة الخوف ، وقد فاجأت البعض يبتسم بما معناه ان المرة الوحيدة التى أظهر فيها فى حفل عام ، لا أجىء خالية الوفاض . وعند ذلك أخذت أرتعـــد ، واستولى على الاضطراب ، فانزويت فى احد الاركان البعيدة ، بالقرب من احد الأبواب المؤدية الى الحديقة

وصدحت موسيقى الجيش التى جلس افرادها فى صدر القاعة بنشيد المارسايبز ، فوجدت نفسى انهض بطـــريقة آلية كما فعل الجميع . وعنـــد ذلك دخل الجنرال .

دار دورة فى القاعة وقد تعلقت بذراعه زوجة وكيل المحافظ ، التى راحت تقدم اليه المدعوين ، وقد حلقت من فرط سعادتها مع الملائكة . ولما كنت فى مـــكانى

بعيدة عنه كثيرا ، فقد تطلعت اليه ما وسعنى ذلك .
كان يسير وراءه ياوره الخاص ، وهو ضابط طويل القامة برتبة الملازم ، نحيل الجسد اسمر الوجه ، سمعت من وقفن الى جوارى يرددن اسمه ، وهو أسم أشهر الاسر فى فرنسا .

وفى ذلك الحين كانت الرقصات الامريكية قد بدأت تغزو فرنسا ، فى حين لم أكن اعـرف غير رقصـة الفالس . وأخذت الان أرى الراقصين يسيرون امامى أزواجا ، وفجأة ابصرت ذلك الضابط الاسمر ينحنى لى ويدعونى لمراقصته .

نهضت معه ، فتراجعت المقاعـد من طـريقنا ، وأخذنى هو بين ذراعيه ، فخيل الى عندئذ فجأة انه لم يبق شىء فى مكانه فى القاعة .

ولم أجسر الا على ان استند اليه من بعيد ، غير أنه ضمني اليه فى رقة وتصميم ، فاستسلمت له .
وضوعفت الأضواء الكهربائية فى القاعة ، وسلطت علي المرايا التي تملأها . وعند مرورنا أمام احداها عدة مرات ، لحظت بين جمهور الراقصين أمرأة شابة ترتدى ثوبا أحمر مختلطا بالسواد تتمايل بين ذراعى ضابط اسمر طويل القامة ، وقد تهدل شعرها الجميل فخيل الى اننى أرى هـذه المرأة للمرة الاولى ، وانها غاية فى الفتنة والجمال .

وكنت أنا هذه المرأة .

لم تصلنى بعد ذلك أنباء عن الفارس الذى رقص معى ، وكان من محض الصدفة ان علمت فيما بعد ، أنه قتل فى الحرب .

وقالت مضيفتنا لزوجى بعد ساعة من ذلك :

ــ ان من يسعده الحظ بامرأة تحدث مثل هذا الاثر لا يمكن ان يغفر له الا يجيء بها الى مثل هــــذه الاحتفالات !

وكان هو يشكو من أنه أحس فى البداية بمزيد من الحـــرارة ، ثم بمزيد من البرد . فلما عدنا الى البيت اضطررت ان أغلى له بعض الماء لتدفئته . وعندما لم أعد اسمع صوتا فى غرفته أسرعت الى غــرفتى ، ودلفت اليها على أطراف قدمى حتى لا أوقظ كاميل .

ولما كنت قد تجردت من ثيابى كلها ، فاننى اذكر أننى تطلعت فى تلك الليلة طويلا الى جسدى .

اننى أبحث فى ذاكرتى عن أى ذكرى تستحق التنويه فى أعوام زواجى ، ولكننى لا أجد شيئا . وبينما يخط قلمى هـــذه العبارة ، لا أستطيع ان أمنع نفسى من التفكير فيما قد تقوله النساء اللائى قد يقرأن قصتى ، وأتوقع من السعيدات منهن ان يهتفن :

ــ ياللابتذال الرخيص ! ان مثل هذه المرأة لا تستحق أى تقدير ...

الا ان البائسات من أمثالى ، ومن قدر لهن مثل حظى التعس ، وأولئك اللاتى تعذبن لان لهن أجسادا جميلة تبعث على الرغبة ، فانهن جميعا لن يرميننى بحجـــر ، ولن يمتلكن الا ان يخفضن رؤوسهن بينمـــا تنطلق من صدورهن أحر التنهدات .



وخلال الشتاء التالى أصيب زوجى بنزلة شعبية مضاعفة ، أودت به فى أيام قلائل ، وكنت فى ذلك الوقت قد تجاوزت بعض الشيء الثانية والثلاثين ..

ان من اليسير على الآن ان أتناول هذا الحدث فى عدم اهتمام ، غير أننى اسيء الى سمعتى بدون جدوى اذا جعلت البعض يفهم ان موت والد طفلتى لم يكن له تأثيره على .

والواقع انه كان بعد ذلك ، بعد ذلك بكثير ، ان أدركت أننى لم أكن قد احببته على الاطلاق ...

الفصل الثالث

لم يعد هناك ما يضطرنى للبقاء فى المدينة ، وفى أقل من اسبوعين ، قررت ان أؤجر البيت الذى اقمت فيه حتى ذلك الوقت من الباطن ، وسافرت للاقامة فى [ماجلون] الذى استقر عزمى على الا اغادره قط .

كانت ضيعتنا فى [ماجلون] تقع على بعد حوالى أربعين كيلومترا من المدينة التى عمل فيها كل من أبى وزوجى ، غير ان هذه المسافة التى تقطعها السيارة اليوم في أقل من ساعة ، كانت فى ذلك الوقت تعتبر فى عزلة تكاد تكون كاملة عن المدينة .

وحتى المدينة الصغيرة المجاورة التى لا تبعد سوى فرسخ واحد ، فانها بعيدة بدورها ما يقرب من العشرين كيلومترا من محطة السكة الحديدية القريبة .

وهذا الخط الحديدى واحد من الخطوط التى تعبر جبال وسط فرنسا ، وهو يتفرع بعد ذلك ويتصل بالخط الجنوبى الكبير من عند مدينة [بسيت] حتى مدينة [بوردو] . ومنذ اعتدنا على الذهاب الى [ماجلون] لقضاء اجازاتنا فيها ، فقد كان علينا ان

نقضى يوما بأكمله بين القطـــار والعـــربة حتى نصل اليها .

اننى لن أترك ذاكرتى تمرح كيفما اتفق ، وسوف اجتهد لكى لا أذكر سوى الحقائق والوقائع الضرورية لفهم الاحداث التى سوف تأتى بعد ذلك . واذا كنت أحاول رسم اطار لهذه المنطقة ، فاننى أرجو الا أضيف الى ذلك تفصيلا زائدا واحدا ، ولسوف تتولى الاحداث اثبات ان كل تفصيل منها كان امرا لا غنى عنه .

ومتى حان وقت حدوث كل واقعة من هذه الوقائع وهى لن تتأخر بعد ذلك ، فانها سوف تتوالى فى طريقها مسرعة ، وفصول المأساة العاطفية ماثلة فى الاماكن المحيطة بالمنطقة .

ان التحليل الدقيق لقلب بشرى ، وايراد وصف لاحد التلال الصخرية أو لاحد المنحنيات الحادة ، لها قيمتها فى عملية الكشف والايضاح والبيان . وها أنا الآن أمهد الطريق للشهاب الذى سوف ينقض بعد قليل .



تمتد المدينة الصغيرة التى سأقيم الى جوارها فيما يشبه المنحنى ، ويسير الى جانبها نهر تنحدر روافده عن طريق وديان ضيقة من مرتفعات الهضبة الوسطى وتتخلل غابات كثيفة من أشجار الكستناء ، وتصنع مساقطها أكاليل من النور تخيم على تلك البقاع وترسم فوقها أقواس قزح .

وفى الصيف تصبح هذه الاماكن جنات من الظلال والنسيم العليل ، ولا تمل الاذن من سماع الهمسات

التي تتردد فيها صادرة من منابع المياه التى تتدحرج فوق الصخور . وأما فى الشتاء ، عندما تهب ريح الشمال الباردة عليها فتهز اشجارها السوداء فى عنف ، وتجردها من أوراقها الاخيرة ، فان هذه الينابيع تتناثر وتتبدد .

ويقوم بيتنا فى [ماجلون] فوق صخور الجبل المنخفضة ، وله شرفة تطل على الناحية الجنوبية ، ومن تحتها تتضارب غدران الماء فى طريقها الى الوادى والى الجنوب منها تصبح الارض جرداء ، وتكثر فيها الصخور ، مما يجعلها غير مأهولة .

والى جانب المياه تنطلق قطعيان الاغنام ، ويبدو الافق من بعض جوانبه مزدانا بحزام من التلال التى تمتد قممها نحو السماء .

فهل أصبح فى الامكان الان تكوين فكرة واضحة للبلدة التى توشك ان تصبح مسرحا لحياتى ووجودى ؟

ان هذه البلدة قد اقيمت عند حدود منطقتين متناقضتين ، وفى جوين متعارضين . فمن ناحية نجد القسوة المعروفة عن مناطق الشمال المرتفعة ، ومن الاخرى نرى كل الحرارة والدفء ، والمرح المعروف فى حياة سهول الجنوب .

ومن ناحية نرى السماء قاتمة ، ومن الاخرى نجدها زرقاء صافية . وفى بقعة لا تتعدى مساحتها بضع هكتارات تحيط ببيتنا فى [ماجلون] ، كان يمكن مشاهدة هذا الصراع اليومى بين كل هذه المتناقضات .

أما دار [ماجلون] فلا يمكن الا ان أقول عنها بضع كلمات ، اذ ان بعض اجزائها يعود بناؤه الى القرن

السابع عشر ، ثم اعيد ترميمها بعناية فائقة بعد ذلك . وهى ان لم تكن قصرا ، الا انها دار جميلة ذات بهاء خاص ، لها واجهة رائعة تحبب السكنى فيها .

ولقد الحقت بالدار قطعتـــان من الارض يزرعهـــا الفلاحون مشاركة مع أصحاب الدار ، وبفضلهما كان يمكن لمن يقيم فيها ان يعيش على منتجاتهما فقط . وكانت أسرتى لامى قد امتلكت دائما هذه الارض ، ولم يبتعد عنها من هذه الاسرة الا القليلون .

وكانت والدتى من أولئك القلائل ، اذ كان جدى قد تمسك بان تتزوج ابنته من أحد الموظفين ، حتى يمكن لها ان تفخر بذلك فى المدينة . وعلى العكس من هذا فان أبى كان يتحرق شوقا الى العيش فى [ماجلون] ولكن الموت عاجله فلم يترك له الفرصة لتحقيق هذا الامل .

وبعودتى الان لاعيش فيها ، فاننى بذلك أكون قد حققت له رغبته . ولكن هل كان فى وسعى ان أفعل غير هذا ؟

وفى أثنـــاء حياته واتاه الالهـــام بان يخصص كل مانوفره من مال لصيانة هذه الدار وتجميلها ، فأصلح أسقفها ، كما عمل على تدعيم جدرانها ، وأقام عليها شرفة رائعة تطل على الوادى .

ومن بعيد تبدو ابراجها الصغيرة وسط الخضرة التى تحيط بهـــا ، ونوافذهـــا الواسعة ، فتبعث على البهجة والسرور . أما من الداخل فكانت تلفت انظار كل من يزورها ، فقد كان لها سلم يصعد الى الطابق الاعلى له درابزون صنع من الحديد المطروق ، يصعد

بدوره متلويا فى جلال حتى يصل الى أعلى الدار .

وكان الدور الارضى يتكون من غرفتين فسيحتين ، جعلت الاولى قاعة للاستقبال اذ كانت تطل على الشرفة التى يسطع فيها الضوء ، وتظلل جوانبها النباتات المتسلقة ذات الازهار العطرة .

وعلى العكس من ذلك كانت غرفة الطعام لا تستخدم الا فى الصيف لقلة الضوء فيها ولرطوبتها ، بسبب نافذتيها الكبيرتين اللتين كانتا تطلان على الحديقة الواسعة التى تكاد تكون غابة صغيرة .

وأما اثاثها فكان يتكون من قطع جمعت بعناية شديدة خلال ثلاثة قرون ، فكان الزمن عامل تنسيق فيما بينها .



كنت قد بعثت برسالة الى زوجة احد المزارعين الذين يعملون فى أرضنا ، وكانت هذه تكن لاسرتنا ودا خاصا ، أخطرها فيها بقرب مجيئى للاقامة فى [ماجلون] ، وأرجوها ان تعد الدار وان تفتح نوافذها للهواء ، اذ كانت مغلقة منذ الاجازة الاخيرة .

وقد وصلت فى أحد ايام شهر فبراير ، حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر ، وكانت تلك المرأة الطيبة واقفة فى انتظارى امام السور . وبغير أن تفوه احدانا بكلمة واحدة ، تعانقنا ، ثم تبعتنى فى صمت خلال جولتى بالدار ، ثم ذهبت لاستند بمرفقى على سياج الشرفة . وعلم الفلاحون بمقدمى ، فأخذ الذين كانوا يمرون منهم فى الطريق أمامى ، يحيون فى هذه المرأة

التى ارتدت ثياب الحداد .



وظللت مكانى طويلا ، حتى بدأ نهار الشتاء يميل الى الغروب . وكان الجو رائعا ، بينما تصاعدت صيحات الديكة فى القرية النائمة .

وبرد الجو فجأة ، فاعترتنى رعدة شديدة . ذلك أن الشمس قد غربت على حين غرة وراء الجبال ، فعم الظلام الوادى بأكملة .

عدت الى الداخل ، وكانت هناك نيران فى المدفأة فجلست على مقعد منخفض ورأسى بين يدى ، ثم انخرطت فى البكاء . ومن ورائى وقفت القروية تربت على ، وتواسينى بكلمات رقيقة .

ان تلك المرأة الطيبة لم يدر فى خلدها قط ان هناك شيئا آخر غير موت زوجى ، هو السبب فى بكائى .

لقد عرفت جدتى لامى واحببتها كثيرا ، فانها لم تكن تجاوزت السادسة والثلاثين عندما ولدت . وقد اصبحت بعد عام واحد من مولدى أرملة ، فرأيتها ترتدى السواد على الدوام ، كما لو كانت قد بلغت الستين .

كانت قد اختارت ثياب الحداد عقب وفاة جدى ، ولم تخلعها طوال حياتها قط .

وسألتها ذات يوم وأنا طفلة صغيرة ، أمام نفس هذه المدفأة ، بينما كانت تهدهدنى على ركبتيها :

ـــ الا ترتدين ثيابا غير هذه قط ؟

فهزت رأسها وهى تبتسم ثم قالت :

ـ لقد كانت والدتى فى العشرين من عمرها عندما غادرنا أبى .

وعلى هذا فانها كانت فى نصف عمرى اليوم .. فهل تفهمين هـــذا ياصغيرتى ؟ ومنذ ذلك اليوم فانها ارتدت الثياب السوداء ، ولم تخلعها قط ..

ان هذا الحديث يعود تاريخه الى عشرين عاما ، وكنت أعرف ان العادات فى هذا الركن من العالم ، لم تتغير فى هذا الشأن . وعندما جئت الى هنا لكى أقيم بصفة نهائية ، كنت أعلم اذن مقدما مدى الالتزام الذى سأمهره بتوقيعى . غير أننى كنت لا ازال فى الثانية والثلاثين ، ففعلت ذلك ورعدة قوية تسرى فى كيانى .

حقا اننى عندما ثرت بهذه الصورة فى ذلك المساء ، لم أكن أعترف بالقوى المسيطرة فى تلك البلدة الرقيقة التى تحيط بى ، وكذلك بحياتى الرتيبة فيها ، غير ان هذه بالذات هى التى أخذت على عاتقها مهمة اخضاع ثورتى العابرة .

وفى العـــام الاول الذى انقطعت فيه عن العـــالم أحسست بعذاب ممض ، ولكنه كان مع ذلك أقل مما توقعت ، ثم اعتدت مع الايام على ذلك .

وهكذا انقضت ثمانية اعوام من حياتى ، بغير ان تترك فى ذاكرتى آثارا متغيرة ، فلم يكن هنـــاك يوم لا يشبه اليوم الاخر . وكنت أقضى الساعات الطويلة فوق الشرفة ، وعينى على أول منحنى فى الطريق ،

كما لو كنت انتظر أحدا .

ولكن من الذى كان يمكن ان أنتظره ؟

لقد كنت اعلم جيدا ان احـــــدا لن يدق ناقوس البوابة ، فيدق معه قلبى ...

ها أنذا امرأة تخـرج على العـالم وهى فى سن السادسة والثلاثين ، فى عنفوان الشباب ـ ولكنه مع ذلك عالم حـافل بالوحشة والعزلة والوحـدة المضنية الاليمة .

الفصل الرابع

لقد حان الوقت الان لاتحدث عن كاميل . انهـــا أتمت دراستها فى المدرسة التى كنت طالبة فيها ، فقد دخلتها فى سن مبكرة بناء على الحاحها المتكرر ، اذ كنت سعيدة بابقائها الى جانبى أطول مدة ممكنة ، ولم يضع والدها أية عراقيل فى سبيل ذلك .

بيد انه كان يظهر عليها منذ ذلك الوقت ، الطابع المتميز الذى قدر له ان يتحول بعد هذا الى نوع من التوعك والسقم .

اننى لم أكن قط طالبة سيئة ، أما هى فكانت طالبة نادرة ففى البداية كانت فى القسم الخارجى ، وذات مساء بينما كانت فى السنة الثـــالثة من دراستها ، كانت قد ظلت خلال تناول طعام العشاء كما هى عادتها صامتة ، ولكنها ألقت فجأة سؤالا لم يكن متوقعا :

ـــ اننى أود ان أعرف مقدار الثروة التى لدينا .

ولم تكن العادة قد جرت على اعطاء طفلة مثلهـــا لا تتجاوز سن العاشرة مثل هذه المعلومات ، ولكن

اللهجة الحاسمة التى كانت فى صوتها حملت زوجى الذى نظر الى نظرة سريعة فيها شىء من الدهشة ، على ان يشبع فضولها . وكانت هى تصغى اليه باهتمام .

وقالت اخيرا :

— لم أكن اتوقع كل هذا ، ومع ذلك فأعتقد أننى لم اخطىء فيما صنعت .

— وماذا صنعت ؟

— لقد طلبت قيد اسمى فى مســـــابقة المنح الدراسية .

— وهل تعتقدين انهم سوف يقبلونك ؟

فهزت كتفيها وقالت :

— لسوف نرى .

وفى اليوم التالى ، ذهبت الى المدرسة بغير ان أقول لها شيئا ، اذ كانت تشعر بالهلع من كل ما يخيل اليها انه رقابة فرضت عليها . وكانت مديرة المدرسة فى هذا الوقت احدى مدرساتى القدامى ، كما انها كانت قد بذلت كل جهدها لكى تقنعنى بالانخراط فى مهنة التعليم .

ولم تترك لى الوقت الكافى لكى اوجه لها اى سؤال ولكنها ابتدرتنى قائلة :

— اننى أعرف سبب مجيئك ، ولقد كنت أنا التى نصحت كاميل بالفكرة التى حدثتك عنها . ان هــذه الطفلة معجزة صـــغيرة ، وفى خـــلال عشرين عاما قضيتها فى التدريس ، لم أصادف اثنتين من هـــذا الطراز . انها هى التى سوف تعوضنى عن خيبة أملى

التى اصبتنى بها ، عندما لم تتبعى نصائحى لك .

ــ ان كاميل لا تزال صغيرة يا آنسة ...

ــ انها متقدمة ثلاثة أو أربعة اعوام عن الاطفال فى مثل سنها ، وهذه هى الحقيقة ، وتشهد على ذلك واجباتها ، التى تدل على نضـــــوج مبكر . حقا لقد استنتجت انك تساعدينها فى ذلك فى بعض الاحيان ..

ــ ان كاميل لا تسألنى عن شىء مطلقا فى دروسها

ــ هكذا ؟ اذن فانها تكون طفلة مذهلة ، بل انه ينبغى التلطيف بعض الشىء من حماسها للعمل . وعلى كل فقد احسنت صنعا بالمجىء ، اذ كنت سأكتب اليك ان كاميل سوف تنجح فى امتحان منحتها الدراسية ، وسوف تتركينها لنا هنا كطالبة داخلية ، وقد اتفقنا على ذلك معها ، وسيكون هذا مريحا للجميع ، وخاصة لانه سيتيح لها ان تدرس مقرر مدارس البنين ، وقد تحدثت فى ذلك مع مديرنا ..

ــ اتقولين مدارس البنين ؟

ــ بطبيعة الحال ، اذ لا يدور فى ذهنك أننى سوف اتركها تسير فى التعليم النســـوى المحــدود ، الذى لا يشبع طموح طفلة مثل ابنتك . كلا .. كلا .. انها سوف تحصل على شهادة البكالوريا أولا ثم الليسانس ولا تحملىهما لذلك .. واتركى لى كل شىء .

ولقـــد وافقت على ما رأته ، وكانت تلك اللحظـــة بالنسبة لى ، هى اللحظة التى ضاعت فيها كاميل منى فان الدراسة الداخلية قد بدأت بضرورة انتزاعها من أحضانى .

وقلت بعد ذلك تدريجيا الفترات التى كنت ارى فيها

ابنتى ، أما هى فقــد انتهى بهــا الامر الى ان تدبر شئونها بالتفاهم مع مديرة المدرســـة ، وان تتقدم الى المسابقة وتفوز فيها ، وان تحصل على عدد من المنح بعد ذلك للسفر والتجول .

وعندما اندلعت الحرب فى سنة ١٩١٤ ، كانت قد أتمت تقريبا جولة فى جميع ارجاء أوروبا .

ولم ألح اكثر مما ينبغى للاحتفاظ بها الى جانبى فقد رأيت أنا التى لم تحترم حريتى قط ، ان من واجبى الا أضيق على حرية ابنتى . والى جانب ذلك فاننى عندما أصبحت أرملة غادرت المدينة الى الريف ، فهل كان لى ان افكر فى جعل طفلة فى مثل نشــــاطها تقاسمنى هذه العزلة ؟

وهذه النتيجة ان كاميل لم تقض خلال ثمانية أعوام اكثر من شهرين فى [ماجلون] ، وفى كل مرة كانت تأتى اليها ، فان ذلك لم يكن الا لكى تعمل فى غرفتها ، التى لم تكن تخرج منها الا لكى تتمشى ساعة أو ساعتين .

ولست اتصور ان هناك أما وابنتها يقل بينهما أوجه الشبه ، كما قل بينى وبين كاميل . ولن اتحدث عن أبيها ، الذى لم يكن هناك شىء مشترك بينه وبينها ، فيما عدا قدرة كل منهما على البقاء اياما كاملة بغير ان ينطق بكلمة واحدة .

وبينما كان هذا الصمت فى زوجى عائدا بصــفة خاصة الى الفتور والشيخوخـــة المبكرة ، اذا به فى ابنتى شىء يعود الى الارادة . ولا أعرف الا فى النادر القليل اننى كنت على مثل عنادها عندما كانت تشعر بأنها تعرضت لاى ظلم يقع عليها .

وفي بعض الاحيان كانت تنقلب فجـأة من هـذه الازمات ، لكي تطوح بذراعيها حول عنقي ، وتروح توجه الاتهامات الى نفسها وهى تبكى بأنها فتاة غير طبيعية .

فترى هل فهمتها قط ؟ اننى اجهل ذلك ، كل ما اعرفه هو ان مديرة المدرسـة التى تصـورت ان لها عليها نفوذا كبيرا ، قد اخطأت التقدير معها اكثر من ذلك . فقد داعبتها الاحلام فى ان تراها تصل الى أعلى مراتب الشرف فى الجامعة ، ولكن ذلك كان منها سوء تقدير لذلك الخليط من الحماس الذى تخيلته فيها ، ومن التفكير العملى الرصين .

فقبل ان تجتاز كاميل امتحان البكالوريا ، اذا بها تتخلى عن كل فكرة للحصـول على مكان فى مهنة التدريس . وعندما تصـادف ان كانت مقيمة لفترة وجيزة فى [ماجلون] ، اسرت الى قائلة :

ـ انهم يحملوننى على الضحك بحديثهم عن مهنة التدريس ، فانك لاتدرين ياأماه مدى سخف اضاعة الوقت فى التعليق على الاحداث امام الصغار الذين لا يفقهون شيئا ، بينما نستطيع فى هذه الايام التى نعيشها ان نلعب دورا فى صنع هذه الاحداث . لقد عدلت عن خطتى القديمة ، لقد ارادوا الدراسة الادبية ، ولكننى سـأسير فى الدراسـة العلمية ، وفى نفس الوقت سأقيد اسمى فى كلية الحقوق ..

قلت لها :

ـ دعينى أوجه اليك سؤالا واحدا ياكاميل ، اين تعدين لكل هذه الشهادات ؟ .

ــ فى باريس بطبيعة الحال ، واين تعتقدين ان يكون ذلك ؟ انك سوف تقدمين الى النقود التى تلزم لذلك ، وقد قدرت ان تكون هذه ستة آلاف فرنك فى العام . فاذا كنت لا تستطيعين اعطائى هذا المبلغ ، فسوف أذهب بالرغم من ذلك الى باريس . غير اننى اعرف انك تستطيعين ياأماه .

وفى خلال أول عامين قضتهما فى باريس ، لم أحاول ان احصل على أية انباء عنها الا منها . وعندما حاولت للمرة الاولى ان أعرف عنها شيئا من الاخرين ، اذا بى أعلم انها تعد للحصول على درجات علمية على حساب صحتها ، كما أنهـــا ترتاد مقاهى مونمارتر ، وتختلط بمجتمع غريب من رجال الفن والاجانب ، وتذهب الى قاعات التحرير ومجلس النواب والقصر الجمهورى .

كانت هذه الانباء تصلنى فى [ماجلون] مضخمة أو معها تعليقات تبعث على الضحك ، الى درجة جعلتنى أقرر عدم اثارتها أو السعى الى سماعها . فقد كان الافضل ان الجأ فى ذلك الى كاميل نفسها ، وكان ذلك عين الحكمة ، اذ انها لم تكذب على قط .

وفى عامين آخرين حصلت على درجتها العلمية ، واجتازت امتحانا فى الحقوق . وكنا فى خلال ذلك فى أواخر شهر [illegible] ، وكانت البلاد فى حالة حرب منذ ثلاثة اشهر ، عندما كنت جالسة يوما على الشرفة اقرأ كتابا ، فاذا بى ارى ابنتى تهبط أمام البيت فجأة من احدى السيارات الضخمة التى يقودها احد الجنود .

هتفت قائلة :

ــ أهذه أنت ياكاميل ؟

ـــ أجل يا أماه .. وفى صحة جيدة .. لقد حدثت أشياء كثيرة منذ تقابلنا فى المرة الاخيرة !

قلت :

ـــ انك سوف تمكثين بضعة أيام معى .. اليس كذلك ؟

ـــ بضعة أيام ؟ لقد كان جميلا أننى تمكنت من المجىء الى هنا لرؤيتك . لقد كنت فى المركز من أجل الاحصائيات الخاصة بالمنطقة وحاجتها الى المواد المختلفة ، فقد كلفنى الوزير بذلك .

سألتها فى دهشة :

ـــ أتقولين الوزير ؟

ـــ أجل .. انك لست على مجرى الامور . لقد أصبح النائب الذى كنت سكرتيرة له وزيرا للاشغال العامة .. فألحقنى بوزارته .

ـــ ومن يكون هذا الوزير ؟

ـــ ان اسمه لايدل على شىء .. كل ماهنالك أنه اشتراكى . وأنت يا أماه .. هل أنت بخير ؟ أتعرفين أنك فى غاية الروعة .. ولكن ماالذى يجعلك ترتدين دائما هذه الثياب السوداء ؟

ـــ انك تعرفين جيدا التقاليد هنا ..

ـــ أجل .. أجل .. أعرفها .

والتفتت بعد ذلك ناحية الجندى وهى تقول :

ـــ سيمون .. أدر المحرك .. هل تشعر بالظمأ ؟ هلا امرت يا اماه بشىء من الشراب لسائقى هذا . أما أنا فأريد أن أكتب برقيتين لكى أسلمهما الى أول

مكتب فى الطريق . اننى أرى أنك كنت تقرأين ساعة وصولى .. فما الذى تقرأينه ؟

واستولت على الكتاب الذى كنت أهم بفتح صفحاته ، وألقت عليه نظرة ، ثم أعادته الى وهى تبتسم ابتسامة فيها شىء من السخرية وقالت :

ـ هل تستمتعين بهذا النوع من كتب الادب يا أماه ؟



اننى لم أشر حتى الان الا الى الاختلاف المعنوى بينى وبين ابنتى ، أما الاختــلاف الجسدى ، فقد كان أكثر ظهورا من ذلك . واذا كنت لم أتحدث عن هذا قبــل الآن ، فذلك لأننى تصورت أن فى استطاعتى الاستغناء عنـــه .

فمن المضحك ، بل من المؤلم تقريبا ، أن يهتمَ المرء بنفسه من هذه الزاوية ، وأن يرسم لنفسه صـــورة ولو بطريقة غير مباشرة . ومع ذلك فان هذه أمور لابد منها لجلاء الأحداث التى أنا بصدد روايتها ، واذا استشعرت الخوف وانا فى سبيلى الى ذلك ، فانه يجدر بى الا ابدأ على الاطلاق . أما الآن ، فليس امامى الا أن أمضى فى طريقى الى النهاية .

لقد ظللت فترات طويلة من الزمن بغير ان ارى كاميل ، وفى كل مرة كنا نلتقى فيها ، كانت تتضح لى تدريجيا تلك الفوارق التى بدأت تتزايد بينى وبينها .

لقد كانت لى جدة مولدة ، ومن المحتمل أننى قد ورثت عنها هـــذا الشعر الفاحم الذى يكاد أن يضرب الى الزرقة وهذه الدقة فى التقاطيع ، وهذا الاتساع فى

العينين ، وكذلك هذا الاسترخاء الذى أميل دائما اليه .

أما كاميل فعلى العكس من ذلك ، اذ كانت عيناها زرقاوين ، وشفتاها دقيقتين ، وفمها كبيرا بعض الشيء ، فى حين أن بشرتها كانت مثل بشرة الفتيـات الانجلو ساكسونيات ، وتتمتع بحيوية متدفقة سواء فى جسدها أو حركاتها .

وأما شعرها فكان أشقر فاقعا عندما كانت طفلة ، فلما بلغت العشرين صبغته بلون أحمر نحاسى ، وهــو نفس اللون الذى اخترته فيما بعد ، عندما قررت أن أصبغ شعرى .

وكنا متشابهتين الى درجة كبيرة فى القوام ، ولو أن رأسها التى كانت ترفعها دائما ، كانت تجعلها تبـدو أطول منى قليلا . أما جسدها فكان يبدو كجسد فتى ضئيل رقيق ، وذلك للطريقة التى كانت ترتدى بها ثيابها .

ومنذ اللحظة التى استطاعت فيها أن تدبر شئونها ، أصبحت ترتدى دائما الثياب القاتمة والقمصان البيضاء ، وكانت تفصلها على الطراز الذى يرتديه الرجال .

ولم تكن تلقى بالا الى مسائل التجميل ، وبالرغم من هذا فكانت تبدو دائما فى اناقة طبيعية .

أما أنا فعلى العكس منها ، كنت شـديدة الشعور بالخطأ الذى كان سببا فى الحياة البسيطة التى أحياها . فقد ورثت عن جدتى الملونة حبها للاقمشة الجميـلة والالوان الزاهية ، ولما كنت أدرك أن أحدا لن يقرنى قط على تحقيق أحلامى فى هذا الشأن ، فقد تقبلت ثياب الحداد التى ارتديها ، كشىء يذكرنى بالاسى والندم .

وهكذا كان كل شىء مختلفا بينى وبين كاميل ، ولم

يكن بيننا غير نقطة مشتركة واحدة ، هى أن كلامنا كانت بطريقتها الخاصة ملتهبة العاطفة . غير أنه كان لابد لى من أن تسيل دموع غزيرة ، لكى احقق ذلك .

وكما قلت من قبل ، فاننى كنت أوشك أن أتم الثانية والاربعين منعمرى ، وكانت كاميلفى الثالثةوالعشرين، عندما تلقيت منها رسالة تخبرنى فيها بقدومها القريب.

وقد يرى البعض أننى لابد أن أكون سعيدة بهــذه المفاجأة ، ومع ذلك فانهذه السعادة قداختلطت بشعور مختلف تماما ، اذ أن كاميل هذه المرة لم تكن قادمة الى (ماجلون) وحدها .

الفصل الخامس

لم يسعنى الا أن اقرأ رسالتها مرة اخرى ، وكانت تقول فيهـــا :

أمى العزيزة ...

لسوف تتولاك الدهشة ، اذ أننى سأتزوج . أجل ، أن هذا صحيح ، وهو يدل على أن كل شىء جائز فى هذه الحياة .

ان خطيبى فى غاية الروعة ، وغاية الطيبة ، وغاية الذكاء ، وغاية فى كل ماتريدين . ولو أنه لم يكن هكذا ، فما كان يمكن أن يصبح خطيبا لى .

لقد تعرفت به فى احدى اللجان المتحالفة الخاصـــة بالسيارات التى قلت لك من قبل اننى أعمل سكرتيرة لها ، ويعمل (فرانز) فيها بصفة استشارية ، اذ أنه ليس فرنسيا .

لاتقفزى من مكانك ، فهو ألمانى كذلك ، أقصـــد أن أقول أنه بولندى . أجل ، ان ذلك قد يبدو معقدا من الناحية المظهرية ، ولكنك سوف تدركين حقيقة الأمر .

انه ينتمى الى احدى الأسر البولندية العريقة ، وكان

مهندسا فى أكبر شركة المانية لصناعة السيارات . غير أنه رأى أن من غير المجدى أن يلحق فى شهر أغسطس بالقوات الالمانية التى كان لابد له أن ينضم اليها ، وبعد عدد من المخاطرات التى لن أعددها هنا ، ومنها جرح أصيب به فى القتال ، استطـاع أن يعين فى لجنـة السيارات .

وهو يؤدى لهذه اللجنة خدمات طائلة ، اذ أنه يعرف مالا يعرفه أحد عن مصادر الامبراطوريات الوسطى فى هذا المجال ، وفيها أيضا التقينا معا .. وأنت تعرفين الباقى .

ولقد كان فى استطاعتنا أن نتزوج على الفور ، ولكنه من ناحية ينتظر بعض الأوراق التى تعدها له البعثـة البولندية فى باريس ، ومن ناحية أخرى أعرف أنك كنت سترتعدين اذا أنا أقدمت على ذلك .

وفضلا عن ذلك فان فرانز يتحرق شوقا للتعرف على والدة خطيبته ، وأعتقد من جانبى أن هواء (ماجلون) العليل سوف يفيده ، لأنه مرهق من العمل .

وفى ايجاز فاننا سوف نغادرمعا باريس فى الأسبوع القادم ، وعلى وجه التحديد فى يوم الاحد ، لكى نصل فى صباح اليوم التالى حوالىالساعة التاسعة .ولست فى حاجة الى أن اقول لك شيئا بشأن اعداد مايلزم ، بل على العكس الح عليك الا تقلبى البيت رأسا على عقب لأنى أعرفه جيدا ، وهو رجل يسهل ارضاؤه ..

لم يمر هذا النبأ غير المتوقع دون أن يسبب لى دهشة ، فيها نوع من القلق . فقد كانت كاميل قد أبدت لى عن رغبتها فى أن تظل وحيدة مستقلة ، والى جانب ذلك فان مثل هذا الاختيار فى الظروف التى نجتازها ،

لم يكن يدخل على قلبى أية ثقة .

وكنت أعرف أنه اذا كانت هذه هى الاسباب الظاهرة التى تدفعنى الى الامتعاض ، فانها لم تكن تكفى لتفسير ذلك الخليط من الفضول والضيق الذى كان ينمو فى داخلى .

وقد رأيت أننى فى حاجة خلال هـذا الاسبوع من الانتظار ، الى الاستعانة بكل مالدى من هدوء وطول بال ، للتغلب على نوع من القلق لم أتوصل الى معرفة مبعثه . وفضلا عن ذلك ، فانه كما هى العادة فى جميع الاحوال تقريبا ، كانتكافة الموضوعات التى كنت أريد التفاهمبشأنها ، لها منالاسباب المقابلة لها ، ممايجعلنى أشعر بالرضى .

والواقع أننى كنت قد سمعت كاميل تشيد بمزايا الحياة الحرة ، الامر الذى أدخل على الخوف من أن تضع هذه النظرية يوما موضع التنفيذ .

ولم يكن الامر يقتضى كمما قالت كاميل ، احـداث انقلاب فى (ماجلون) ، غير أن هذه الدار لم يكن قد سكنها قط أحد غيرى ، فيما عدا فترات قصيرة هى تلك التى كانت تأتى فيها ابنتى للاقامة معى .

وقد ادركت الآن أننى تركت هذه الدار بالتدريج ، لكى يخيم عليها جو من النعاس ، فكان لابد لى أن أفتح نوافذها جميعا ، حتى يدخلها الضوء والحياة .

وهكذا انهمكت مع خادمتى الصغيرة فى ترتيب كل شىء ، وفتحنا الدواليب القديمة لنخرج منها الأدوات المحفوظة ، ونزعنا أغطية المقاعد فى غرفة الاستقبال والغرف الاخرى ، وعلقنا الساعاتالكبيرة على الجدران

لايضـــاح الوقت فى كافة عواصم العـــالم ، وملأنا الاحواض بالزهور .

وزار الدار فى هذه الأيام عدد من أغرب الزوار ، أحدهم جندى من المطافىء لضبط مواسير المياه ، والثانى عامل لتركيب الزجاج الذى كان ينقص بعض النوافذ ، وعدد من عمال التنجيد ، وأحد الموسيقيين لشد أوتار البيانو .

واليوم ، فاننى أحاول أن أستعيـــد المشاعر التى تولتنى ، عندما كنت أصدر تعليماتى بعمـــل هـــذه الاصلاحات . لقد كان اضطرابى أمرا لاشك فيه ، فماذا كان الدافع ؟ أكان قلقا غامضا من المستقبل ؟ أم كان تأثر الأم التى توشك أن تلتقى بالرجل المجهـــول الذى انيطت به مهمة اسعاد ابنتها ؟ أم كان خوف ربة البيت من أن تقع فى خطأ ؟

لست أدرى .. لست أدرى . كل ما أذكره أن هذا القلق كان يشتد بى فى بعض الأوقات ، الى درجـــة جعلتنى أكاد أتمنى وصول رسالة من كاميل ، تقول لى فيها أنها لسبب ما قد عدلت عن رأيها ، وأنها لن تأتى الى (ماجلون) .



واصبح كل شىء معدا بعد ظهر يوم الأحد ، بغير أن أتلقى أية تعليمات مخالفة .

انهما قادمان اذن .

ومع ذلك فقد كان هناك شىء من التفاصيل يسبب لى شيئا من الحيرة ، ذلك أن كاميل أشارت فى خطابها الى أنهما سيصلان حوالى الساعة التاسعة صباحا ،

الامر الذى يجعلهما يستقلان القطار الذى يغادر باريس فى المساء السابق ، وكانت هذه هى المرة الاولى التى أراها فيها تستخدم قطار الليل وهى قادمة لرؤيتى .

كانت دائما تسافر من باريس فى الصباح ، لكى تصل مع غروب الشمس . ولما لم يكن لدى دليل لمواعيد القطارات ، فقد قررت الذهاب الى المدينة للاطلاع على الدليل فيها ، وهو أمر لم يحدث لى من وقت طويل .

وكانت هذه المدينة عبارة عن تجمع مايقرب من ثلاثة آلاف مسكن ، ولا يمر عليها أى خط حديدى ، وكانت أقرب محطة اليها تبعد حوالى عشرين كيلو مترا .

أما المسافرون الذين يهبطون فى هذه المحطة ، فكانوا يتعرضون لعدم وجود أية وسيلة للانتقال ، اذا لم يكن أحد من أقاربهم أو أصدقائهم فى انتظارهم عند نزولهم من القطار ، سواء بعربة أو سيارة .

وأكد لى الدليل الذى اطلعت عليه ماكنت أعتقد أننى اتذكره ، من أنه لاوجود الا لقطار واحد يأتى من باريس فى الصباح ، وأن هذا القطار يدخل المحطة فى الساعة الثامنة وسبع واربعين دقيقة .

كانت رسالة كاميل تحدد الساعة التاسعة ، ومعنى ذلك أنه نفس الموعد ، وليس هناك مجال للخطأ . وعلى هذا انطلقت بغير تردد الى صاحب الجراج ، ورجوته أن يمر ليأخذنى صباح الغد ، بين الساعة السابعة والنصف والثامنة الا الربع . وقد أوصيته كذلك أن يختار سيارة قوية ، حتى نضع فيها فى العودة أكبر قدر من المنقولات .

ولما كان يتعين على أن أنهض مبكرة ، فقد عملت على أن آوى الى فراشي في ساعة مبكرة عما اعتدت عليه .

غير أننى لم أتمكن من ذلك ، اذ أن النعاس هرب منى ، فجلست بالقرب من نافذة غرفتى .

لم تكن هذه الليلة من شهر يوليو حارة بشكل خاص ، ومع ذلك خيل الى أننى أكاد أختنق ، فهبطت الى قاعة الطعام التى سطع فيها ضــوء القمر ، ثم خرجت الى الشرفة .

كانت بدورها تسبح فى ضوء القمر ، وكان الليل مضيئا لدرجة أمكننى فيها أن أميز جميع منازل الوادى . ولم يكن هناك أى صوت ، فأرهفت أذنى ، كما لو اننى كنت أصغى الى صوت القطار السريع الذى سيحمـــل الى ابنتى ومعها ذلك الرجل المجهول . لسوف يكون كلاهما جالسا فى هذا المكان غدا فى مثل هذه الساعة ، فكيف تراه ؟

انها لم تذكر شيئا عن عمره ، وهى .. كيف ستبدو معه ؟ هل زال التكلف بينهما ؟ اننى لم يسبق لى قط أن أزلت التكلف مع زوجى ، ولعل ذلك يعود الى أننى لم أختره بنفسى .

وبينما كنت أجمع أطراف الوشاح الذى ألقيته على ثوب نومى الطويل حول كتفى ، خيل الى أننى أشعر بالبرد . وكانت يداى اللتان وضعتهما حول عنقى تلمسان ذراعى العاريتين ، فهل كانتا باردتين أم ملتهبتين ؟

لم أكن قادرة على معرفة ذلك . فما هو اذن هذا الوهن الذى أحسست به ؟

وفكرت فى جدتى المولدة ، ولم أكن قد فكرت فيها قط ، كما أفعل فى هذه الايام . لابد أنها كانت تشبه المرأة التى تحولت أنا اليها هذا المساء ...

هيا أيتها المرأة المهجورة ، عودى الى مخدعك الوحيد !

ـــ سيدتى .. سيدتى . لقد وصلت السيارة .
ـــ يا آلهى .. وكم الساعة اذن ؟
ـــ تقترب من الثامنة ياسيدتى .
ـــ ولماذا لم توقظينى مبكرا ؟
ـــ ان سيدتى لم تقل لى شيئا .. ولم أكن أعرف .

نهضت واقفة أترنح ، وراحت الخادمة تساعدنى فى ارتداء ثيابى في سرعة وفى أقل من ربع ساعـــة كنت متأهبة .

قلت لها :

ـــ هل تذكرين كل ماأوصيتك به بخصوص الغداء ياماريا ؟

ـــ أجل ياسيدتى .. أجل .
ـــ والشمام ؟ والأسماك ؟
ـــ لقد وصلت منذ قليل ياسيدتى .

ـــ لاتشغلى نفسك بالنبيذ .. فسأذهب بنفسى الى القبو . اليك مفتاح الدولاب الكبير من أجـــل مفارش المائدة .. وعليك أن تضعى الغطاء فور عودتنا .

وفى السيارة التى حملتنى فى ذلك الصباح الرطيب، استولى على دوار خفيف ، وأصغيت فى شبه غيبوبة الى السائق صاحب الجراج وهو يوجه الى بغير أن يلتفت الى الخلف أسئلة مهذبة . قال :

ـــ هل ستقيم الآنسة كاميل هذه المرة أطول قليلا بيننا ياسيدتى ؟

قلت :

ـــ لا أعرف شيئا عن ذلك يا هنرى .

وانتهى الأمر باجاباتى أن أصبحت تتكون من كلمـــة واحدة ، فغير الرجل الطيب موضوع الحديث ، وعمـــد

الى اعطائى معلومات عن الاحوال الزراعية فى المنطقة.
قال :
ـــ ان الاذرة أوشكت أن تجنى .. وأما الكروم فلا بأس بها هذا العام .. وفى شهر يوليو سوف تسمد للمرة الثالثة .. وربما اضطروا الى تسميدها للمرة الرابعة ...
وبدا كأن السيارة تبطىء فى السير ، فقلت له :
ـــ أسرع ياهنرى .. لقد كان خطأى أننا تأخرنا .
ـــ لقد كنا متأخرين ، أما الآن فقد عوضنا هذا التأخير ، وفضلا عن ذلك فهذه هى المحطة ، والساعة لم تبلغ بعد التاسعة الا ربعا . ولسوف ترين أنه سيتعين علينا أن ننتظر .

وكان فى ذلك على حق ، فان القطار كان متخلفا عن موعده أربعين دقيقة . وبدأت بالجلوس على مقعد قدمته إلى عاملة المطعم الصغير ، غير أننى لم أستطع البقاء مكانى .

وبلغت الساعة التاسعة وسبعا وعشرين دقيقة ، فخيل الى أنا التى كانت الأعوام من أسبوع واحد مضى لا وجود لها عندى أكثر مما للشهور والايام ، أننى لن أستطيع أن أصبر الى أن تنتهى تلك الدقائق .



نهضت من مكانى واخذت اسير على الرصيف ذاهبة آتية ، وأنا ألقى على الساعة المعلقة نظرات كلها القلق، كلما مررت من أمامها .

ومن بعيد ظهر القطار قادما فى سرعة ، فرقص قلبى طربا . ثم سمعت من يقول لى :

ــ سوف تقف عربة الدرجة الأولى فى هذه الناحية.
وقال صوت آخر :
ــ انتبهى ياسيدتى .. عودى قليلا الى الوراء .
وفى جانب القطار انفتح بابان ، وبدأ يخرج منهما أناس يبدو عليهم التعجل . وقبل ذلك بقليل ، خيل الى أن هذا القطار قد دخل المحطة بسرعة هائلة ، جعلتنى أظل فترة فى ذهـــول بينما كنت أتساءل عما اذا كان سوف يتمكن من التوقف .

الفصل السادس

خرج المسافرون القلائل القادمون واحدا واحدا من المحطة ، ولم يبق فيها سوى فلاحة عجوز اخذت تشكو من أنها لاتعثر على تذكرتها التى ضاعت منها .

أما القطار فقد استأنف مسيره المدوى ، ولم يلبث أن اختفى بعيدا .

وأخيرا أصبحت وحدي على الرصيف ، وبلغ منى القلق مبلغه ، ولم أعد أعرف ماذا أفعل . فقال السائق الذى جاء ليعرف ماالذى حدث :

ــ لابد أن الآنسة لم تتمكن من اللحاق بالقطار .

ــ ان ذلك يدهشنى ياهنرى .. فقد كان عليها أن تبرق لى .

ــ ربما تكون قد فعلت ياسيدتى ، ولكن الوقت كان متأخرا جدا بالأمس ، وفى الصباح فان مكتب البريد لايفتح الا فى الثامنة . لقد مررنا أمامه ونحن فى طريقنا الى هنا ، ومما يؤسف له أن الفكرة لم تخطر لى لكى أتوقف هناك .

قلت :

ـــ هذا ماسنفعله فى عودتنا . . .

ولم نجد شيئا فى مكتب البريد ، فقلت للسائق :

ـــ سوف توصلنى الآن الى (ماجلون) ، وفى عودتك تمر من جديد على مكتب البريد . فاذا وجـــدت برقية احضرها الى بنفسك على الفور .

ـــ اتفقنا ياسيدتى .

وفى عشر دقائق وصلنا الى البيت . ومن بعيد رأيت ماريا واقفة فى الطريق أمام البوابة المفتوحـــة ، ثم صاحت :

ـــ سيدتى .. سيدتى !

ـــ ماذا هناك ؟

ـــ لقد وصلا .

ـــ من ؟

ـــ الآنسة والسيد .

فقال هنرى :

ـــ لقد جاءا بالسيارة .. فقد لاحظت منذ الدوران عند طريق (مندى) آثار عجلات لا أعرفها ولم تكن هناك قبـــل ذلك بقليل .. وكان لابد لى أن أفطن الى الأمر وأطمئن سيدتى .

دخلت البيت مسرعة ، والخادمة الصغيرة تعدو الى جانبى فى الممر المؤدى اليه ، وهى تقول :

ـــ لقد وصلا حوالى الساعة الثامنة والنصف .. بعد ذهاب سيدتى مباشرة . آه ياسيدتى لو تعرفين كم هما سعيدان .. ! انه يضحك ضحكات عالية ، والآنسة تغنى ، حتى يخيل للمرء انهما طفلان .

وأخرجت من جيبها ورقة من فئة العشرين فرنكا وقالت :

ـــ لقد أعطانى السيد هذه .
ـــ وأين هما الآن ياماريا ؟ أين هما اذن ؟
ـــ لو أنهما ظلا هنا ياسيدتى لسمعتهما بالتأكيد . لقد قلت لك قبل ذلك انهما لم يتوقفا عن الغناء . وكانت البوابة مفتوحة ، وكانت الآنسة هى التى تتولى القيادة ، ثم سمعت صوتا مرعبا ، وأدركت على الفور أنهما هما ، لأن البلدة كلها ليس فيها سيارة تحدث مثل هذا الدوى. وما كدت أطل من الشرفـــة ، حتى كانا قد قفزا من السيارة ، وكانت الآنسة تهتف طالبة أن تراك ، وكان السيد مفتونا بكل شىء . انه ياسيدتى فتى جميل .. وفى شرخ الشباب ...

ـــ مرة أخرى .. أين هما ؟

واتت ماريا بحركة ، اشارت بها الى الغابة المجاورة ؛ ثم قالت :

ـــ هناك .. انهما الآن فى الجبل .لقد كنت أسمعهما من عشر دقائق يناديان بعضهما ، وقد بدآ بعمل جولة فى الحديقة والبيت وهما يركضان ، واختطفت الآنسة بعض الطعام وتناولاه على حافة المائدة فى المطبخ ، ثم أخذت الآنسة السيد لكى تريه المكان ، بينما كانت تقول له انك ياسيدتى ذهبت للبحث عنهما ، وأن ذلك خطؤها، وانك لن تعودى الا بعد ثلاثة أرباع الساعة ، واننى سوف أناديهما عندما تعودين . وها أنا ذاهبة لأناديهما ياسيدتى .

قلت :

ـــ دعيهما .. دعيهما .. فلن يتأخرا عن العودة .

والواقع أننى لم كن غاضبة ، ولم يكن يسوؤنى أن أحصل على هذه اللحظات القليلة التى أتاحتها لى الصدفة،

لأسترد فيها أنفاسي . وقد انتهزت هذه الفرصة فصعدت الى غرفتي ونزعت قبعتي . كنت أشعر بحرارة شديدة، فبللت وجهي بالماء البارد ، ولو كان لدى بعض البودرة لتلطيف هذه النيران التى تنبعث من وجنتي ، لفعلت ذلك .

وهبطت الدرجات القليلة المتصلة بالشرفة ، والتى الموائد ، زوجين من القفازات ألفيا كيفما اتفق ، وقبعة كاميل ووشاحها الحريرى ، وقبعة سفر مما يرتديه الرجال .

وسمعت صـــوت كاميل يهتف من مكان قريب فى الغابة ، وكله سعادة وهناء :

ـــ فرانز .. فرانز . !

فقالت ماريا :

ـــ هل سمعت ياسيدتى ؟ هـــل تريد سيدتى ان اناديهما ؟ ..

ـــ دعيهما ياماريا .. ســــوف يأتيان .. وعليــك بالغداء .. فان الساعة قد بلغت الحادية عشرة .

وهبطت الدرجات القليلة المتصلة بالشرفة ، والتى كانت سيارتهما واقفة تحتها ، وقد تركاها فى تعجلهما هناك ، بغير أن يهتما بادخالها فى الحظيرة التى فتحتها ماريا على مصراعيها .

كانت الخادمة الصغيرة على حق ، فان البلدة كلها ليس فيها مثل هذه السيارة . ولم تكن مقاساتها هى التى تميزها عن غيرهـــا ، اذ كانت صغـــيرة الحجم منخفضة كثيرا .

وفى ذلك الوقت لم أكن أعرف السبب الذى يجعلها مختلفة عن السيارات الاخرى ، فلم يكن فى مقـــدورى

ادراك الفارق حتى من الخارج . وكان لونها مثل لون راسب النبيذ ، وكانت مانعات الطين كبيرة مستديرة ، أما من الداخل فكان بها ثلاثة مقاعد اثنان فى الامام ، والثالث في الخلف . وكان من يجلس فيها ، لاترتفـع رأسه عن الأرض بأكثر من متر واحد .

أسندت جبهتى على عجلة القيادة ، والقيت عليهـا من الداخل نظرة خاطفة ، كما لو كنت أخشى أن يفاجئنى أحد وأنا أرتكب خطأ . كانت لوحة القيادة كأنها صـدر عملاق رصع بالرسوم والزخرفة ، وامتلأ بمجموعـة كبيرة من الازرار والاجهزة الغريبة ، التى لم أر لها مثيلا من قبـل .

وكان كل شئ فيها يبدو لامعا براقا ، وصنع فى دقة وجمال . وكلما تأملت فى تلك الاجهزة التى صنعت من المعدن والزجاج ، زاد شعورى بأحساس غير عادى يستولى على . كنت أود ان اراها وهى تعمل وتدور ، وأن أشاهد هـذه العقارب تتحرك ، وأن أعرف كل أسرارها .

لقد كنت على ثقة فى تلك اللحظة أن تلك الآلة تضم سراً معينا ، ولكن ماذا يكون هذا السر ؟

ترى هل كنت على وشك أن أصاب بالجنون ؟ وهل ترانى على وشك أن أهوى السيارات الآن ، أنا التى كنت حتى الأمس أعمل ألف حساب لاضطرارى الى ركوب احداها ، لكى أقطع بسرعة بضع كيلو مترات ؟

درت حول سقفها المتحرك الكبير الذى كان يغطى السيارة كلها ، والذى كان يلمع كأنه الشمس . وعلى جانبها الأيسر من الخارج كان يوجد مقبض صغـير ،

همممت بأن ألمسه ، عندما سمعت هتافا صارخا أوقفنى مكانى :

ــ أماه .. هذه أنا .. هانحن !

لم أكن قد فطنت الى مقدمهما ، والآن كانت يدا كاميل على عينى ، فقاومت فى دعة لأتخلص منهما ، بينــما كانت تقول :

ــ فرانز .. انها لم ترنا .. قبلها .. أريدك أن تقبلها قبــل أن تراك .. فهذا شىء له غرابته .

وفى نفس الوقت الذى انفرجت فيه أصابع كاميل ، شعرت بذراعين قويتين تحتويانى ، وبقبلتين ترنان على وجنتى .

وقالت كاميل :

ــ والآن .. ضعها على الأرض .. اننى آذن لكما بأن تنظرا الى بعضكما .

كان فرانز أمامى ، فابتسم كل منا للآخر . وكان فى هيئته نوع من الفوضى المحببة ، التى مدتنى بالقوة .

وكان الدور على كاميل فى ان تقبلنى ، اذ لم تكن قد فعلت ذلك بعد . وهكذا فانه كان لابد لها إن تتحبب الى، حتى ترينى عواطفهــا . وللحظة خاطفــة احسست بالكراهية لهذا الغريب ، ثم أدركت أننى فى الحقيقــة مدينة له ، فابتسمت له مرة أخرى .

وقالت كاميل :

ــ أماه .. أماه .. كم أنا سعيدة ! اننى سعيــدة لكل شىء ، لأننى هنا ، ولاننى معك ، ولاننى مع فرانز . لقد جعلناك تذهبين الى المحطة ياأماه ، فمعذرة . اننى لا أدرى ماذا أفعل ، فاننى فى غاية السرور حقا . دعينى اقبلك مرة اخرى ، وهويرى كل شىء هنا مما يبعث على

الاعجاب ، البلدة ، والبيت، وكل شيء . وهو .. كيف يبدو لك ؟ أليس رائعا ؟

ـ فلنر ياكاميل .

كنت مستندة الى غطاء السيارة ، وبينما كنت أحاول استعادة توازني ، ضغطت يدى على البوق ، فدوى صوت مرعب ، جعلنى أرتعد ، وانفجرت كاميل ضاحكة وقالت :

ـ ماذا كنت اقول لك يافرانز ؟ لقد قلت لى ان هذا الجهاز لايحدث ضجيجا اكثر من غيره ، فانظر الى والدتى التى لايمكن أن تقول انها عصبية كما تزعم أن هذه حالتى . ان هذه السيارة ياأماه من اختراعه ، وسوف ترين غيرها . لقد أصبنا الناس بالرعب هذا الصباح ، وكذلك قطعان الماشية ونحن قادمون ، وكنت أنا التى أتولى قيادتها ، فقد علمنى هو ذلك . ان جميع السيارات الاخرى تبدو ألاعيب الى جانب هذه السيارة ، فهل تريدين الدليل على ذلك ؟ ان الساعة الآن الحادية عشرة والنصف ، والغداء فى الثانية عشرة ، أليس كذلك ؟ ان لدينا الوقت للذهاب الى (كاريناك) .

ـ الى (كاريناك) ياصغيرتى ؟ انها تبعد عنا خمسة عشر كيلو مترا !

ـ اننى لم أقل اننا سنتوقف هناك كثيرا ، وسوف نسير على سرعة ستين كيلو مترا فقط ، فلا تخشى على الدجاجة التى رأيتها الآن على النار ، اذ سنعود قبل أن تنضج . وفى استطاعتنا أن ننطلق بضعف هذه السرعة ، ولكن الأمر هذا الصباح ليس أمر سرعة ، كل ما اريده هو ان أريك كيف اعالج هذه الآلة . فرانز .. اصعد الى المقعد الخلفى ، وانت ياأماه الى جانبى .

وانطلقت السيارة في صوت كأنه الرعد ، وأخذت تجرى بقوة ، وكأنها تتنفس كما يتنفس البشر .

واصبحنا على الطريق الذى قطعته فى ذلك الصباح مرتين ، مما جعلنى استطيـــع ان المس الفارق بين السرعتين . لقد قطعنا بضعة كيـــلو مترات فى قفزة واحدة ، وفجأة هدأت السرعة ، وفى نفس اللحظـــة سمعت من خلفى صوت فرانز يقول :

ـــ انتبهى !

ورفعت كاميل كتفيها وهى تضغط على عجلة القيادة، فى حركة دائرية سريعة ، ثم قالت :

ـــ ها قد تم ذلك ، بهذه السيارة يتعين على المرء ان تكون لديه الارادة حتى يتغلب على أي منحنى . حقـــا ان هذا واحد من المنحنيات الخطيرة ، ولكننى لاحظته فورا ، انك لاتتصورين يا أماه الى أى حد تتسع الذاكرة للاماكن عندما نتولى القيادة .

وأصبح الطريق مستويا ، وبدأت الريحتشتد تدريجيا، وراحت كاميل تقود السيارة وذراعاها ممدودتان الى الامام ، ورأسها مائل الى الوراء . ومالفرانز عليها ، وراح يهمس لها بكلمات لم أتبينها ولم أفهم معناها .

وقامت بدورة أمام كنيسة (كارينال) ، ثم تهيـــأت للعودة ، وانطلقت في سرعة جنونية على الطريق الى (ماجلون) .

وقفزت كاميل الى الارض وهى تقول :

ـــ مارأيك يا أماه ؟

لم أستطع أن أرد عليها على الفور ، فقد كنت منذهلة من كل هذا الجو ، وأخذت أتلعثم الى درجة أن فرانز حاول معاونتى فى الهبوط من السيارة . واخيرا قلت:

ـــ ان ما اقوله لك يا كاميل ، هو أننى لن أعــرف الطمأنينة وأنت تقودين هذا الوحش الصغير ، بغير ان يكون خطيبك الى جانبك .

وابتسم فرانز ، وقال :

ـــ اننى لم أسمح لها بذلك بعد يا سيدتى .

وقالت هى :

ـــ تسمح لى ؟ ان السيد يتحدث كما لو كان قــد أصبح زوجى . ثم ماهذا اللفظ الذى خاطبت به أمى ؟ انك قلت لها ياسيدتى على مااعتقد ، الم تجد كلمة أرق من هذه ؟ ولكن كيف عساك أن تناديها ؟ وأنت ياأماه .. مارأيك فى ذلك ؟

ـــ لم أفكر بعد ياابنتى .. ولست ادرى .

ـــ اذن فان على أن أبحث عن أفكار جديدة لنا نحن الثلاثة . أليس هذا لطيفا ؟ فلنحاول .. مارأيكما في كلمة أماه كما يفعل الجميع عادة ؟ ولكن هــذا سيكون مضحكا ، سيكون مستحيلا . انظر اليها يافرانز جيدا ، انها تبدو كأنها شقيقتى ، ويجوز لها أن تناديك بيا أبي ولن يبدو ذلك غريبا . اذن كيف تناديها ؟ لسوف نرى فيما بعد ، فان هناك مسائل تسوى على أحسن وجه في نهاية غداء طيب ، وها نحن نكاد نموت من الجوع . فالى المائدة ياماريا .. الى المائدة .

الفصل السابع

في مقـــدور أية ربة بيت أن ترضى كل من يشاركها الطعام ، ويكون فى الحالة المعنوية التى عليها فرانز وكاميل ، فان هؤلاء لن ينتبهوا الى شىء .

والواقع أنه لايمكن تصور دعوة لتناول الغداء ، فى مثل تلك الفوضى التى سادت غداءنا فى ذلك اليوم فى (ماجلون) . وكنت خلاله أتبادل النظرات أنا وماريا ، وكانت نظراتى حافلة باللوم ، ونظراتها ممتلئة بالهلع للاضطراب الذى وقع فى تقديم ألوان الطعام .

وفى النهاية أدركت أن كلا من فرانز وكاميل لم يشعرا بشىء ، ولم يفطنا الى سوء الطهو . غير أن الذى أنقذ الموقف حقيقة ، كان النبيـــذ الطيب الذى أخرجته من القبو ، وكان يبدو فى لون الذهب .

وقد احتست كاميل وفرانز منه الكثير ، وكلما فرغ كأس أحدهما سارعت ماريا بملئه ، فلم أجد بدورى بدا من متابعتهما . وسرعان مازالت المخاوف التى لازمتنى أسبوعا كاملا ، كما تتبدد فقاعات الصابون فى حرارة الشمس .

لم أعد أنظر الى فرانز بأى شعور من الكراهية ، كما بدأت أتطلع الى ابنتى بالكثير من الاعجاب .



كان بينى وبين كاميل امر مشترك ، هـــو نوع من التحفظ الفطرى أو الغريزى. غير انه بينما كان تحفظى يعود الى التراخى والايمان بالقدر ، كان تحفظ كاميل يبدو عدوانيا ، ويكاد يكون وحشيا .

لقد راقبتها وهى طفلة ، بينما كانت تجلس على المائدة بينى وبين أبيها وهى تصغى الى حديثنا وعلى فمهـــا ابتسامة ازدراء خاطفة ، تثير فى الفزع .

والآن ها هو ذلك الصمت الذى كان ينطـــوى على الازدراء ، قد تحول الى مرح وصخب . وهناك ظاهرة غير معقولة أخرى ، هى أننى أحسست أنا نفسى ، بأن هذه الموجة قد تغلبت على .

لقد كنت مثل الدار التى أغلقت منذ زمن طويل ، ثم فتحت نوافذها فجأة من جميع الجهات ، لتطـــل على نواحى غير متوقعة . كنت أضحك ، أجل كنت أضحك لاية ثرثرة لا غاية لها ، تخرج من فم كاميل .

قالت :

ــ لقد كنت أبدو لك ظاهرة غريبة ياأمى الصغيرة ، وليس هذا كل شىء ، اذ ينبغى أن تعرفى ماذا تستطيع ابنتك أن تفعل . ان فرانز كما قلت لك بولندى ، أو أنه سوف يكون كذلك يوم أن تقوم هذه الدولة .. وهو الآن بروسى فظيع ، وكان قد فر من تلك البلاد لكى يأتى الينا عبر سويسرا ، ولم تكن الاوراق التى حصل بهـــا على تصريح الدخول من الحدود هى أوراقه الحقيقية ، اذ أن

الحراس الالمان كانوا قد تلقوا تعليمات بالتشـــديد فى الرقابة . وفى خلال ثلاثة أعوام لم يشعر بحاجة الى هذه الإوراق ، غير أنه منذ أن وضع فى رأسه فكرة التزوج منى ، بدأ يهتم بها . لقد نشأت أمامنا عقبـات جسيمة بسبب هــذه الاوراق اللعينة ، ولو أن الامر يستوى عندى ، فأنت تعلمين يا أماه آرائى فى هــذا الشأن . فمنذ اللحظة التى أعجبنى فرانز فيها ، كنت أعرف عنه كل شىء . انه مثلك يفضل فى هذه المسائل أن يكون كل شىء فى مكانه ، وفى اختصار فانه يريد تلك الأوراق ، وهــذا مرهون بأولئك الســادة الذين يجلسون فى دار البعثة العسكرية البولندية ويعــدون باعدادها ، ولكنهم لايفون بذلك .

وتريثت كاميل برهة ثم قالت :

ـــ ولما أعيانى الأمر ، قررت أن أكتب رأسا الى البابا .

ـــ الى البابا ؟

ـــ أجل اليه ، فماذا تعتقدين فيه ؟ هل تتصورينه كما فعل اميل زولا . . رجلا عجوزا ابيض اللحية؟ كلا . . ان البابا عدد من المكاتب والادارات ، وأنا أعــلم ماهى المكاتب والادارات . وهكذا كتبت اليــه ، وبينت له الضرورة الملحة الى تلك الأوراق ، وقلت فى النهــاية ان نتيجة التأخير ستكون بلا شك حياة غير شرعية . وقد أدى ذلك الى نتيجة لا بأس بها .

ـــ هل حصلت على ماتريدين ؟

ـــ ليس بهذه السرعة ، ان الفكرة لم تطرأ لى الا من عشرة أيام ، فلا بد من أن نترك لهم بعض الوقت . غير أننى فى أقل من أسبوع تلقيت منه ردا يحمــل اسم سكرتاريته الخاصة ، وكتب فى لهجة رائعة ، ويعدنا

بسرعة انجاز المطلوب . هل تشعرين بالضيق من أجل ذلك ياأماه ؟

ـــ كلا يابنتى .. كلا . بالعكس فانك قد احسنت صـــنعا .

ـــ لقد رأيت أنا وفرانز أن من غير المجدى الانتظار فى باريس حتى تتضح نتيجة مساعى البابا ، وخاصة في ذلك الجو الحار . لقد حصلت على اجازة من العمل، ولن اعود قبل العاشر من شهر سبتمبر . والى ذلك الوقت سأكون حرة طليقة ، أو مايكاد يقرب من هذا ، اذ يتعين على أن أنجز هنا بعض الأعمال البسيطة . أما فرانز فانه في نفس الموقف ، بالاضافة الى أنه فى حاجة الى الراحة ، وقد اجبره الاطباء على قبول اجازة مدتها ثلاثة أشهر ، وهى الوقت الذى يكفيه لكى ينتهى من اعداد هذه السيارة . وها نحن أمامك ياأماه . اننى أرى ماريا تشير الينا بأن القهوة أعدت فوق الشرفة ..

وجلست أنا وكاميل فى ظلال الاشجار ، فوق المقاعد المريحة التى صنعت من فروع الخيرزان ، بينما وقف فرانز يتطلع الى المنظر الذى يترامى امامه . اخذ يسأل عن اسماء القصور التى يراها واحدا واحـــدا ، وهى تنتشر بفروعها كما لو كانت طيورا هائلة .

وقالت كاميل :

ـــ ان اقربها الينا ، ذلك الذى يبدو بين الاشجار ، هو قصر (مونتال) ، وهناك أبراج (سان لوران) . انك لاتستطيع أن ترى قصر (كاستلناو) من هنا ، اذ توجد قطعة مرتفعة من الأرض تحجبه عنا . على كل حال لاتخش شيئا ، فحتى العاشر من سبتمبر سيكون لدينا الوقت لاريك كل هذا تفصيلا ، ثم اننا سوف نقضى

شهر العسل فى هذه الاماكن ، اذ سنتزوج هنا . هل توافقين على ذلك ياأماه ؟ انك سوف تقولين لى ما الذى يجب عمله مع القس والعمدة وغيرهما ، فأنت تعرفين كل هذه الامور . وكلما كان ذلك أسرع ، كان أفضل .

ــ ومتى تنوين ذلك ؟

ــ بمجرد أن يحصل فرانز على تلك الاوراق ، أى فى خلال خمسة عشر يوما أو ثلاثة أسابيع على الاكثر .

ــ انك تنسين ياكاميل ان هناك اجراءات اخرى لابد أن تقومى بها من جانبك .

ــ وكيف تكون من جانبى ياأماه ؟

ــ أو من جانبى اذا فضلت ذلك . اننا لم نهتم بذلك منذ وفاة أبيك ، ثم لما بلغت سن الرشد ، كان على أن أقدم لك حسابا عن مدة وصايتى عليك . لقد تركنا كل شيء على ماهو عليه ، ولو أننى كتبت لك عدة مرات فى هذا الأمر ، ولكنك لم تعبأى بالرد على . والآن وأنت موشكة على الزواج ، فان الوقت قد حان ...

قالت :

ــ استمع اليها يافرانز ، ما الذى تريدين الوصـــول اليه ياأماه ؟ اذا كنت تنوين الزواج مرة أخرى ، لجاز ذلك . اننى أرى أننا على مايرام هكذا . وأنت يافرانز ؟ انه من رأيى ، وهل يدور فى ذهنك انه يتزوجنى من أجل هذه الفرنكات القليلة ؟ اننى الآن أكسب عيشى ، أما هو فعلى وشك أن يصبح مليونيرا ، فهذه السيارة الصغيرة تمثل رأس مال ضخم ، فقد ضمنها تجـديدات سوف تحدث ثورة فى هذه الصناعة . ان الوقت لم يحن بعد لاستغلالها على نطاق واسع ، ولكن ذلك سيأتى مـــع السلم . لقد عرضت عليه كل من بريطانيا وامريكا مايريد

فى مقابل اختراعه ، ولكنه لن يتعامل الامع فرنسا . ان فرانزكنز لنا ياماه.وانت ايضا ، لو انك اتبعت نصائحى فيما ترتدين ؟ على أى حال فعندما نتزوج ، سوف تتخلين قليلا عن هذه الثياب السوداء .

ـــ انك يابنتى لا تستطيعين القـــول بأن ما أرتديه اليوم هو ثياب حداد .

والواقع أننى عندما فكرت فيما قالته كاميل ، أخذت طوال الأسبوع أعمل وقت الفراغ فى ادخال تعـــديلات على ثوب وقبعة كانا لى منذ ان كنت متزوجة ، فأضفت الى القبعة زهرة ، والى الثوب الذى كان مفتوحا من العنق ياقة واكماما من التل الاسود .

وعندما ارتديته لم يلق هذا التل رضاء كاميل ، التى كانت جالسة على ذراع مقعدى ، وكاد يتولاها الغضب فقالت :

ـــ لا اريد حدادا ، فما الذى ينقصه الآن ؟ فرانز .. كن شاهدا على ذلك ، تعال هنا واجلس من الناحيـــة الأخرى من المقعد .

وأصبحت الآن وسط الاثنين ، وقالت كاميل :

ـــ والآن انظر اليها جيدا ، أليست جميلة ؟ عنـــدما كنت اقول لك ذلك ، لم تكن تعيرنى انتباها ، فأجب اذن ، أليس من المؤسف أن تخفى هذا الجمال ؟ لاتخف .. اننى اريدها أن تسمعك وأن يكون لك تأثير عليها .

وتطلعت مبتسمة الى الشاب وأنا اقول :

ـــ هل انا مضحكة الى هذا الحد ؟

كانت هذه هى المرة الأولى التى اتوجه اليه بالحديث بصفة مباشرة ، فابتسم بدوره ، وخيل الى ان كلا منا قد احمر وجهه .

قالت كاميل :

ــ حسنا .. أجب يافرانز .. انك لاتجرؤ على أن تقول الحقيقة . انه يفكر في أن يغازلك .. ومع ذلك فتأكدى أنه يشاركنى الرأى .. ولنر الآن القبعة .. انها مناسبة . أما الثوب فان هذه الاضافات مرعبة .. وسوف ترين الآن ما سأفعل به .

وجذبت قطع التل فازالتها جميعا ، ثم قالت :

ــ هذا افضل .. انك سوف تأتين معنا الى باريس في شهر سبتمبر يا أماه ، وسوف تدهشين من الطريقة التى ترتدى بها النساء الثياب هناك . أن الأمر لم ينته بعد ، اذ على أيضا أن أعلمك كيف تصففين شعرك .

ووضعت يديها فى رأسى ، فلم يلبث شعرى أن استرسل ، منطلقا من الأربطة التى سجنته فيها حتى اليوم . وقالت :

ــ فرانز .. الا تبدو الآن فى صورة أخرى ؟ اعطنى الآن حقيبتى ، فان بعض اللون يمكن أن يغنيها عن البودرة والأحمر . ولننظر الآن .. اوه يا أماه .. انظرى الى نفسك الآن !

ومدت الى مرآتها الصغيرة ، فرأيت البرتا لم أعرفها من قبل ، فابتسمت لها فى شىء من الخوف .

ومضت كاميل تقول وهى مستمرة فى تصفيفه شعرى :

ــ أتدرين ياأماه .. لاينبغى لك اليوم أن تخشى شيئا . ان ظلا خفيفا من الكحل فى أهدابك وفوق جفنيك ، ثم يصبح كل شىء على مايرام . تمتع اذن بهذا التغيير يافرانز ، وتصورمعى كيفتكون عندما ترتدى ثيابها كما ينبغى ، بحيث تبرز مفاتنها . اننى الى جانبها سوف

أبدو مثل لوح الخشب ..
وصمتت لحظة ثم قالت :
ــ الا يزال البيانو معطلا ياأماه ؟
ــ كلا .. لقد أصلحته أول أمس .
ــ هل تم اصلاحه؟ ان ذلك لم يخطر لي على بال .
وقفزت فى مثل لمح البصر الى غرفة الاستقبال ، ولم تلبث أن جلست تعزف وهى تقول :
ــ راقصها يافرانز .. أريدك أن تراقصها .
وتقدم نحوى ، فدفعته وأنا أضحك فى مرح ، وقلت :
ــ كاميل .. ان هذا من الجنون . انك تعرفين انني أجهل جميع رقصاتكم العصرية ..
ــ لاتلقى بالا الى ذلك . وهذه ماقولك فيها ؟
وغيرت اللحن الذى تعزفه فجأة ، وأخذت تعزف احدى رقصات الفالس ، وقالت :
ــ اعتقد الآن انه لاحجة لك . لاتصغ اليها يافرانز ، فهى ترقص الفالس كأبدع مايكون .
وأمسك بى فرانز ، فأخذت أرى بين الحين والآخر تلك الرقعة الخضراء التى تبدو من الحديقة ، والأفق البعيد الذى يبرق تحت أشعة الشمس .
وأسرعت كاميل فى العزف ، وبدأت بالتدريج أشعر عبر الثوب الخفيف الذى أرتديه فوق جسدى ، بضغط خطيب ابنتى .
ومن فوق عتبة المطبخ ، وقفت ماريا وفى يدها طبق تجففه وقد وضعته فوق قلبها ، تتطلع الينا وعلى فمها ابتسامة واسعة .

الفصل الثامن

ترى هل أتوقع من نفسي الانصاف الذى لابد لى منه ؟ حتى أستطيع أن أخط السطور الاتية ؟

ان التفاعلات التى تعرضت لها منذ هذه اللحظة تملأنى رعبا ، فكيف آمل أن أستطيع أن أضىء شعلتى بيد ثابتة ؟ سوف أحاول على الاقل ، فاذا أنا لم أنجح فى ذلك ، فليكن عذرى أننى بذلت فى تلك كل ما فى طاقتى ...



كان فرانز ذا قامة فوق المتوسطة ، وله جبهة عريضة ، وأنف محدب يضفي على وجهه تعبيرا كان يمكن أن يكون قاسيا ، لولا ان عينيه الحلوتين وفمه اللين الذى يكاد يشبه أفواه النساء قد لطفت كثيرا منه .

ولقد رأيت فى ساعة المحنة هذا الفم يتقلص فى عنف ، وتلكما العينين الجميلتين الضاحكتين الصافيتين تتقلبان فجأة كما تتقلب السماء ساعة هبوب العاصفة .

ولكن كيف كان يمكن ان تداخلنى الريبة فى ذلك الوقت ؟

وكانت لفرانز تلك الطريقة المحتشمة المريحة التى يتبعها الانجلو ساكسون فى ارتداء ثيابهم ، فقد كان يجمع بين طريقة الرجل العملى ، وبين طريقة الرجل الانيق .

هذا هو ما عرفه عنه المراقبون العابرون ، ولم يكن أكثر وضوحا من ذلك لأولئك الذين اقتربوا منه . ولقد عاشره وعاش معه عدد من الرجال والرؤساء والاصدقاء والمنافسين فى الظروف العادية ، بغير ان يفطنوا الى التعقيد الذى انطوت عليه طباعه .

ولقد احتفظ له تسعة أعشار الرجال الذين عرفوه بذكرى الرجل اللطيف الذى يتمتع بعبقرية خاصة فى الشئون المتعلقة بمهنته ، وفيما عدا ذلك فانه محبوب ساذج مرح .

أما النساء فعلى العكس من ذلك ، كن يدركن حقيقة فرانز ، بالرغم من ذكائهن المحدود . لقد كان قريبا منهن ، وكن يشعرن بما كان يغلى تحت هذا الطلاء الظاهرى ، ويعرفن أنه خلق لكى يكون سيدهن وفريستهن .

ولو أنه كان جالسا فى ركن من غرفة للاستقبال يدخن فى دعة بين أقرانه من الرجال ، وقد انهمك فى حديث خاص بالعمل ، فانهن كن يعرفن أن مجرد حضور واحدة منهن يكفى حتى لا يعود يصغى الا ظاهريا لمن يتحدث معه ، وسرعان ما تظهر على تقاطيع وجهه ابتكانة اشتهاء ، تضاعف من قوة ابتسامته التى لا تقاوم .

وكانت أقوى تلك النساء تشعر برغبة فى الفرار عندما تراه مقبلا عليها ، بعد أن يتخلص من الذى يتحدث معه . واذا كان مظهره عند ذلك يوحى بأنه يتصرف وفقا

لحساب معين ، فان ابتسامته الحلوة التى تبدو كلها حياء كانت كفيلة بازالة كل شك يدور فى نفس المرأة فى هذا الصدد .

أما أنا فلم أتمكن قط من معرفة ما اذا كان هذا الحياء حقيقيا أم زائفا ، غير انه كان يحول دون ادراج فرانز فى عداد أولئك الرجال الذين يمتهنون مهنة اغواء النساء .

وكان هو لا يحب ان يتحدث عن نفسه ، الى درجة أننى قد عرفت من كامل التفاصيل الضرورية عن حياته ، كما أنها هى نفسها اعترفت لى بأنها لم تقف على الجانب الاكبر من هذه التفاصيل الا بطريق الصدفة ، او بالحديث فى بعض الأحيان مع أحد مواطنيه .

وعندما كان يضطر الى الاجابة على بعض الاسئلة التى توجه اليه عن ماضيه أو عاداته أو مشاربه أو أعماله ، فكان يبدو كأنه يحاول ألا يظهر نفسه الا فى أكثر الصور تواضعا .

وهكذا كان يحمل النـاس على أن يقفوا الى جانبه بالرغم منه . وتطبيقا لمبدأ التواضع ، فانه كان ينفى عن نفسه أنه يجيد اللغة الفرنسية اجادة تامة ، وذلك بأن يتحدث بها فى بطء ، ويظهر كأنه يبحث عن كل كلمة يريد النطق بها .

والحقيقة أنه كان يمتلك ناصيتها ومتعمقا فيها ، ولم يكن يستخدم الا اللفظ المضبوط ، حتى فى مجال التجريد . كان يشعر بالهلع من ان يتحدث الى أناس يعجزون عن تلقينه أى شىء ، وعندما كان بعض الجهلاء الذين تربطه بهم علاقات العمل يطرحون رأيا يستطيع هو أن يجعله ينهار بكلمة واحدة ، فانه كان يستمع اليهم بابتسامة

يحسبها الاخرون موافقة منه على ما يقال . ولكن نعومته الظاهرة كانت فى حقيقتها نوعا من القسوة .

اننى لا اريد وأنا أتحدث عنه أن أكون قاسية عليه ، فاننى لم أكن حتي الان قاسية الا على نفسى . وليس هدفى هو الاساءة الى فوانز ، فحتى لو كنت أريد ذلك ، فاننى أعرف اننى غير قادرة على ذلك .



كان ينحدر من أسرة بولنـدية عريقة فى بروسـيا الشرقية ، وقد وجد منذ نعومة أظافره ذلك التقليد الذى يسود تلك الاسر من ميل الى الصناعات واحتقار للتعليم النظرى .

وقد التحق بالمدرسة الصناعية العليا فى [دانزيج] ، غير أن النظرية المجردة لم تشبع نهمه ، ففوجىء ذووه ذات يوم بأن علموا أنه التحق كعامل بسيط فى شركة [دنتز] ، حيث تصنع محركات الديزل الشهيرة فى كل أنحاء العالم . فلما انتهى تدريبه كان من حسن طالعه أن عينوه على الفور مهندسا ملحقا بقسم دراسات المحركات التى تستخدمها سيارات [مرسـيدس] ، وكلف فرانز بالعمل فى قسم سيارات السباق .

وقد عمل بصفة سرية فى تصميم سيارة صـغيرة بالاستعانة بفريق من العمال المخلصين ، ثم بذل قصارى جهده حتى وافق رؤساؤه على الاشتراك بتلك السيارة فى سباق [ليون] ، الذى نظمه نادى السـيارات فى فرنسـا ، فنال بها الجـائزة الاولى ، كما أصـبح هو مشهورا .

لكن الحرب العالمية لم تلبث أن اندلعت نيرانها ، ثم

لم يلبث بدوره ان فر من المانيا ولجأ الى فرنسا ، بعد أن أصيب فى صدره اصابة بليغة فى الايام الإولى من القتال .

وعمل فرانز فى صنع سيارة صغيرة ، يمكن انتاجها بأعداد كبيرة ، وتكون رخيصة الثمن ، وهى السيارة التى جاء بها فى صحبة كاميل الى [ماجلون] ، اذ قرر الاطباء أن يخلد الى الراحة ثلاثة شهور على الاقل ، غير أنه جاء معه بحقيبة مليئة بالرسوم والاوراق لكيلا يظل عاطلا خلال هذه الاجازة .

وعندما جاءا الى [ماجلون] كنت أتساءل :

ــ هل اصبحت كاميل عشيقة له ؟

وكم من مرة ألقيت على نفسى هذا السؤال ، وبى عذاب يفوق العذاب الذى من حق الام أن تشعر به ، ولو أنى فى البداية كنت أرفض الاعتراف بذلك . غير ان مسلكهما لم يكن فيه ما يعتبر مفتاحا لتلك المشكلة التى كنت أبذل جهدى لحلها .

كانت أيامهما تشبه الايام التى يقضيها أطفال كبار فى الاجازة ، فمن جولات بالسيارة ، الى رحلات لصيد السمك ، الى نزهات فوق الجبل .

وكانا دائما يدعوانى الى مصاحبتهما . وفى الإيام الاولى كنت أتخلف للاهتمام بشئون الدار ، ثم أخذت أصحبهما تدريجيا ، حتى أصبحت أذهب معهما كل يوم .

كانت هذه النزهات تبدو لى قصيرة للغاية ، وكنت فى بداية كل منها أبدو مرحة ، حتى اذا كاد النهار ينتهى ، أشعر بالتعاسة الى حد الاختناق .

وكنا نتناول طعام العشاء بعد ذلك على الشرفة ،

ونقضى الوقت فى الحديث الليلى . فاذا اوشك الحديث على الانتهاء وكان على أن أصعد الى غرفتى ، أحسست بشيء من الرعب لاننى سأصبح وحدى .

وفى بعض الاحيان كانت كاميل تقول :

ـــ فى استطاعتك ان تمكثى معنا بضع دقائق أخرى يا أماه .

غير أننى كنت أشعر أنه ليس لى أن أمكث أكثر من ذلك ، فأنهض منصرفة ، ويقبلنى كل منهما ، وأصعد الى غرفتى .

ولم اكن أشعل الضوء فى الغرفة حتى لا تحيط به فراشات الليل ، ومن نافذتى ألقى اليهما بتحية المساء . ثم انزع ثيابى كلها ، وأدخل عارية فى غلالتى المصنوعة من الدانتل ، وأعود على أطراف أصابعى لاجلس فى مقعد وثير ، على بعد متر واحد من النافذة . ومن مكانى كنت لا أزال أراهما عندما يكون الليل منيرا ، وأما عندما يكون مظلما ، فكنت أرى أطراف سجائرهما الحمراء ، وأسمع صوتيهما معا ، صوت كاميل العذب الصافى ، وصوت فرانز الجهير الذى فيه رنة غناء .

انهما يتكلمان عن أعمالهما ، وعن مشروعاتهما ، وأعترف أننى لم أكن أستطيع ان أمنع نفسى من اعتبار مثل هذه الاحاديث بين اثنين يحبان بعضهما ، اشياء غير ايجابية . ولكن ربما أرادا أن تجيء أحاديثهما على هذه الصورة ، احتراما لتلك المرأة المتقدمة فى العمر ، التى يعرفان أنها هناك فى الطابق الاعلى ، وتوشك أن تنام .



توجد أربع غرف فى الطابق الارضى من [ماجلون] ، وهى غرف ينفصل كل منها عن الباقى ، وتقع كل اثنتين منها فى ناحية من الممر .

وتطل بعض هذه الغرف على الشرفة والوادى ، ويطل البعض الاخر على الحـــديقة والجبل . اما غرفة كاميل فتقع على نفس الناحية التى تقع عليها غرفتى ، فى حين أن غرفة فرانز تقع فى مواجهتها .

وحوالى الساعةالعاشرة ، وأحيانا فى الحاديةعشرة ، كنت أسمع كاميل تقول :

ـــ والان .. هل لنا أن نعمل قليلا ؟

وأسمع بعد ذلك صوت أقدامهما فوق الممشى . انهما الان يرتقيان الدرج ، وعند ذلك يأخذ قلبى يدق بقوة . فمن أين يأتينى هذا الاضطراب ؟

هل استحق ، بعد هذه الحياة التى عشتها حتى اليوم، ألا أكون أكثر من امرأة بدأ الشـــــــعر الابيض ينبت فى رأسها ، لاشعر فجأة بأن جسدى قد تحطم ؟

كانت الجدران فى [ماجلون] سميكة ، بحيث كان يستحيل أن ينفذ صوت من غرفة الى أخرى . وعلى ذلك لم يكن فى وسعى أن أعرف فى أى غرفة يجتمع فرانز وكاميل ، ولا فى أى ساعة يترك كل منهما الاخر .

غير أنه كانت هنـــاك شراعات الابواب الزجاجية ، وبفضل الضوء الذى ينعكس على الممشى ، كنت أعرف أى الحجرات هى التى لا زالت مضيئة .

كنت أرجو وأخشى معا اختفاء هذا الضوء فجأة ، اذ أنه هو الذى يبدد الوحشة عن الدار . وفى الصباح ، عندما يجمعنا الافطار ، أروح أرقبهما خلسة ، فأراهما

يستأنفان حديث الامس ، كما لو أن شيئا لم يحدث .

كان كلاهما يمتدح ما يستمتع به فى هذه الليالى التى يقضيها فى [ماجلون] ، ويشـــيد بهواء البلدة النقى ، ويؤكد انه لم يعرف قبل ذلك جوا يبعث على الراحة مثل هذا الجو .

أما أنا فكنت أطرب معهمـــا ، وأنعى عليهمـــا عمى بصـــيرتهما . فهل كان لى أن تداخلنى الريبـــة من تلك المثابرة التى يبديها كل منهمـــا فى مراقبة مظـــاهر ذلك التغيير ، الذى كان يوشك ان يحدث فى داخلى ؟

الفصل التاسع

قالت كاميل :

ــ ها أنت أخيرا يا ماه ، وقد ارتديت شيئا مناسبا . عليك أن تظهرى نفسك بعض الشىء ، ولقد رأيت الأن أن الامر لم يكن عسيرا .

ودارت كاميل حولى ، وأخذت تقترب وتبتعد ، لكى تفحص الثوب الذى ارتديته ، وكان ثوبا بسيطا من الجرسيه الموف والابيض .

لم تكن المسألة بالنسبة لى هى خوفى من أن تصاب البلدة بالهلع اذا أنا تزينت ، ولكن طالما اننى وافقت على مصاحبة فرانز وكاميل فى جولاتهما بالسيارة ، فقد كان لابد لى كذلك من ارتداء شىء ملائم لهذه الجولات .

وكانت السيارة الصغيرة الجبارة تنقلنا الى مسافات تزداد بعدا يوما بعد يوم ، وهكذا فانه ما كاد يمضى أسبوع حتى توقفنا فجأة أمام أحد الكازينوهات فى احدى مدن المياه المعدنية المشهورة ، حيث طلبت كاميل تناول الشاى فيه .

كانت الشرفة مزدحمة بالحاضرين ، والاوركسترا

تعزف ، والبعض يرقص تحت فروع الاشجار ، فوق حلبة شاسعة مصقولة . وكانت كاميل من الرقة بحيث ابدت لى ملاحظة بأن [الجاكيت] الذى أرتديه والمصنوع من القماش الاسود لا يتمشى مع مثل هذا المكان ، وقالت :

— فرانز . استحلفك بالله ان تتوقف قليلا عن الحديث عن سيارتك .. والتفت الى أمى .

قلت لها :

— كاميل .. هذا أمر يبعث على الضحك .

— كلا .. انه لا يبعث على الضحك.. على العكس . فرانز .. انظر اليها .. أليست لطيفة الان ؟

فقال فرانز :

— حقا .. سوف تركب والدتك غدا الى جانبى .. حتى أشرح لها جميع أجزاء السيارة .

— ولماذا لا يكون ذلك اليوم ، ونذهب الى [مون دور] لنبتاع لها قبعة جديدة ؟

قلت معترضة :

— لن اصحبكما فى رحلة الغد ، لاننى انوى الذهاب الى مكتب المسجل ، ولا تنسى ان الايام تمر بسرعة ، وان على ان اسوى معه عدة مسائل خاصة بزواجك .

— اذا كان من اجل ذلك ، فلا زال لدينا وقت طويل يا أماه ، ثم ان أوراق فرانز لم تصل بعد ...



وهكذا كانت كاميل نفسها ، أو بمعنى آخر كانت قوة الاحداث هى التى تفرض على نوعا من التحول ، كنت ساضحك سخرية لو ان أحدا قال لى منذ شهرين فقط ، ان هذا سوف يحدث لى .

وعندما أعود بذاكرتى الى أدق الاحداث التى وقعت فى ذلك الشهر ، أفطن الى ان تلك الاسابيع هى التى بدت لى فيها الدنيا فى لون جديد ، حافل بالبهجة والغرابة والحماس والانفعال . كان كل شىء ، ابتداء من أعظم الاشياء الى أصغرها ، ومن القمر السابح فى السماء بين السحب الفضية الى الريشة الصغيرة التى تنثر بها ابنتى المساحيق على وجهها والتى نسيتها يوما على مقعد بالحديقة ، كل ذلك ساهم فى ان أكتشف الحياة فى عالم آخر مجهول .

أما العالم الاول الذى عشت فيه حتى ذلك الوقت ، فقد كان عالما محدودا كئيبا ، كانت جميع المخلوقات التى تعيش فيه تحمل طابعا لا يتغير ولا يتبدل .

وأما العالم الثانى ، فقد كان أحد تلك الاسواق الشرقية الساحرة ، الذى تعرض فيه الابسطة الملونة والاحجار الكريمة ذات الالوان البهيجة .

وبينما غيرى يكتشف هذا العالم وهم فى نحو العشرين ، اذا بى اقتحمه بعد ان بلغت الاربعين ، مما جعلنى أشبه بالمسافر الذى يصل مكانا وهو مصاب بالدوار .

ان المرء يدخل هذا العالم وكلتا يديه على قلبه ، فهو يشعر بالسعادة ويشعر بالالم ، ويود لو أنه استطاع أن يرى جميع الاماكن التى مر بها من قبل ، وأن يعيد قراءة الكتب التى سبق له أن قرأها ، لانه يدرك الان أنه لم يرها قبل ذلك قط .

اننى أهيم وسط عالم لم أعد أعرفه ، أو لم أعرفه بعد ، عالم كل ما فيه يتفتح على ضوء باهر ، هو ضوء الحب .



ان تلك الايام التى كانت تبـدو لى قبل ذلك طويلة لا تنتهى ، قد أصبحت بغتة قصيرة بالغة القصر . لم أعد استطيع مواجهة جميع مشاغلى التى ضاعفتها لاستمتع بها ، فى ذلك الدوار من النشاط الذى كنت أقوم به ، والذى استوعبنى .

ففى كل صباح لم نكن نقوم فيه بجولة بالسـيارة ، كان كل من فرانز وكاميل يظلان نائمين حتى وقت متأخر ، أما أنا فكنت أصحو بالرغم من الارق الذى يلم بى ، منذ الفجر ، فأستغل هذه الساعات التى أجـد نفسى فيها وحدى منفردة مع ماريا ، فى جعل الدار اكثر راحـة وجمالا .

كانت [ماجلون] تتحول هى الاخرى ، فان الزهور التي كانت ذابلة فى الحديقة ، بدت الان فى كل مكان من غرف الدار ، كما أننا قضينا خمسة عشر يوما لبناء غرفة حمام على أحدث طراز .

وكلما أدخلت على الدار أحد التحسينات ، كانت كاميل وفرانز يصـفقان اعجـابا ، وقال فرانز لخطيبته وهو يضحك :

ـــ أتعرفين يا كاميل أننى لن أذهب من هنا قط ؟

ـــ ومن الذى يحملك على العـودة الى باريس قبل الخامس عشر من اكتوبر ، وهو الموعد الذى تنتهى فيه نقاهتك ؟

ـــ وأنت ؟

ـــ انك تعرف ان اللجنة التى أعمل بها سوف تعقد جلسة فى العاشر من سبتمبر ، وذلك سوف يستغرق أسبوعا . ولست أدرى سببا يجعلك تجازف بأن تتعب نفسك فى رحلة مزدوجة من أجل هذه الايام القليلة .

انك تريد أن تأتى الدعوة من والدتى .. قولى له يا اماه انه يستطيع البقاء .

وهمست :

ـــ بطبيعة الحال .

اننى اذكر دائما أن هذا الحديث دار بعد ظهر احد الايام بينما كنا نوشك على الانتهاء من تناول القهوة فوق الشرفة ، وكنت فى ثوب من الموسلين الابيض ، وفى عنقى عقد من العقيق ورثته عن جدتى المولدة .

رفعت كلتا ذراعي لكي أقطف احدى الزهرات من فرع شجرة يتدلى فوقنا ، وعند ذلك خامرنى احساس غريب، يشبه الحرج الذى يشعر به المرء عندما يفطن الى أن شخصا يقف وراءه ، ولا يفتأ يحدجه بنظراته ، ولا يغفل عن أى حركة تبدر منه .

استدرت ، فرأيت كاميل هى التى تنظر الى بهذه الطريقة .

قلت فى ضحكة رنت بطريقة غريبة :

ـــ ماذا بك ؟ يبدو عليك كما لو أنك لم ترينى قط ، فماذا هناك اذن ؟

ظلت هى ساكنة مكانها بدون أن تتحرك ، ثم سمعته صوتها ، صوتا منخفضا يكاد أن يختنق ، فيه شيء يشبه الانين . قالت :

ـــ فرانز .. انظر الى والدتى .. انظر اليها وقل كم هى جميلة .. كم أنت جميلة اليوم يا أماه ! ..

الفصل العاشر

انتهى شهر أغسطس ، وانتهى معه الصيف ، وكان كل شيء يحمل على الظن بأن الشتاء سوف يجيء قاسيا .

وفي الصباح يصحو الريف وقد اكتسى بطبقة داكنة ، وبدأت الطيور العابرة التى لا نراها عادة الا فى مطلع شهر اكتوبر تظهر فى السماء ، على حين لاذت طيور شهر سبتمبر بالفرار .

وفى أقصى الوادى ، أطلق أحد الرعاة زوجا من البط البرى ، وعمد الفلاحون الى حرق الحشائش الجافة فى الحقول الكالحة ، فيرتفع دخانها ويختلط بالضباب ، وتنتشر رائحة الرطوبة والحريق التى هى الطابع المميز للشتاء .

وقالت كاميل :

ــ عليك ان تمنعى فرانز فى غيابى يا أماه عن ايذاء نفسه .

والواقع ان فرانز كان قد بدأ يسعل منذ بدأ الجو يميل الى البرودة ، بغير ان يسبب لنا اى قلق . كان يسعل ، ونحن نشهد الطريقة التى كان يضع بها يده على

جانبه ، حيث تؤلمه تلك الاصابة التى خرج بها من الحرب .

وفى النهار كانت الشمس المشرقة دائما تبدد مخاوفنا ، غير أن هذه المخاوف كانت تعود مع الغروب ، وقد انقضى اسبوع توقفت فيه جولاتنا بالسيارة .

ومضت كاميل تقول وهى تقرأ احدى الصحف :

ــ فى الليلة الماضية كانت الحرارة ثلاث درجات فى بوفيه ، وست درجات فى باريس ، وهذا ليس أمرا طبيعيا بالنسبة للموسم . وهكذا ترى أننا كنا على حق فى أن نقرر ان تبقى هنا اثناء غيابى .

فقال فرانز :

ــ اننى لم أقل نعم حتى الان .

ــ لقد قلنا ذلك نيابة عنك ، وليس عليك الا أن تطيع ، فلست أدرى ما الذى ستفعله هناك . ولو كنت فى مكانك ، لما فرضت على نفسى هذه المضايقة ، غير اننى سوف اطلب مد اجازتى الى آخر الشهر ، ولابد لى أن أصر على ذلك . فهل تتصور أننى لا استطيع السفر بمفردى ؟ لو أن على أحد أن يأتى معى ، لكان الاولى أن تكون والدتى التى لم تذهب الى باريس غير مرة واحدة . فهل تريدين المجىء يا أماه ، لكى تشترى ما يلزمك فى الشتاء ؟

قلت :

ــ أنت تعرفين يا كاميل ان فى امكانك ان تنوبى عنى فى هذا ، وقد اعطيتك القائمة . وفيما يتعلق بالمقاسات والتجارب فلك مثل قوامى ، وأنا أعتمد عليك .

ــ انك لا تعرفين كم من الوقت تستغرقه هذه التجارب ، ولا أريد ان أتغيب أكثر من أسبوع . وفضلا

عن ذلك فلابد ان أمر على البعثة البولندية من أجل هذا السيد ، لكى أقول لهم كلمتين بشأن تلك الاوراق التى لا يمكن الحصول عليها .

فقال فرانز الذى كان يبدو عليه انه يخاف من اغضاب كاميل على وجه من الوجوه :

ـــ أكرر لك القول انه لا داعى لان تجشمى نفسك مثل هذا العناء ، وسيكون أكثر بساطة لو أننى كتبت اليهم .

ـــ لكى لا يردوا عليك ، كلا . اننى أريد أن أعرف من الذى يتسبب فى هذا التأخير ، وأراهنك أن روما قد فعلت اللازم.، وأن الاوراق توشك ان تضيع فى مكاتب البعثة . وفى هذا الوقت يمكنك يا أماه ان تبدئى بالاهتمام بشئونك الخاصة بتقسيم الميراث مع المسجل ، فقد تأخرنا على هذا .

ـــ كيف يا صغيرتى ؟ لقد اقترحت عليك أكثر من عشر مرات أن نصنع اللازم ، ولكنك أنت التى كنت تقولين دائما انه ليس هناك ضرورة للاستعجال .

ـــ أعرف هذا . . وأعرف كذلك ان الامور اذا سارت على هذا المنوال ، فاننا لن نتزوج قط . على كل فاننا لا زلنا فى التاسع والعشرين من الشهر ، ومن هنا الى الثامن من الشهر المقبل ، فربما استجد شىء .



كانت المدينة الصغيرة التى تقع على بعد فرسخ واحد من دارنا فى [ماجلون] ، هى التى نتبعها فيما يتعلق بخدمات البريد .

ويتم توزيع البريد الوارد فى هذه المدينة مرتين فى

اليوم ، مرة فى الصباح ، والاخرى فى الساعة السابعة مساء . وبطبيعة الحال فان الموزع لا يمر على [ماجلون] الا مرة واحدة ، حوالى الظهر . ولما كنت وخدى ولا أتوقع الا رسالة بين الوقت والاخر تأتى من ابنتى ، فقد كان هذا الترتيب يوافقنى .

غير ان كاميل وفرانز لم يرضـــيا عن ذلك ، فكانا يذهبان كل مساء الى المدينة لتسلم رسائلهما وصحفهما من مكتب البريد ، ولقراءة البلاغ الذى يصدر فى الساعة الثالثة ، ويعلق على دار العمودية .

ولم تكن هذه المهمة تستغرق منهما بالسيارة أكثر من ربع ساعة ، ومنذ اضطر فرانز الى العنـــاية بصحته ، أصبحت كاميل هى التى تذهب وحدها ، فتقود السيارة بأقصى سرعتها ، ولا تستغرق الا أقل من ذلك الوقت .

وانطلقت فى هذا المساء مبكرة عن العادة ، اذ كان عليها أن تقوم بعدة مهـــام فى المدينة ، منها الذهاب الى الصيدلية ، بشأن فرانز .

وعنـــدما غادرتنا ، كنا جالســـين نحن الاثنين فوق الشرفة ، فقالت :

ـــ ان الامر لا يســـتحق أن تنتظرانى فى الخـــارج ، وبمجرد ان يهبط المساء ، تكرمى يا أماه بادخال هـــذا السيد .

كان فرانز يدخن احدى لفافاته ، وقـــد اطلق عينيه تجولان فيمـــا وراء حـــاجز الشرفة ، على الريف الذى اكتسى بلون داكن . وكانت الشمس تصل الى الحـــافة العليا من الهضبة ، وتوشك ان تختفى وراءها ، بينما يأتى من السهل البعيد صوت ناقوس صـــغير يهتز فى بطء ، وقد علق فى رقبة احدى الابقار . وعلى الطريق

مر قطيع من الاغنام محدثا صوتا ناعما ناتجا عن احتكاك صوف فرائه .

وهم فرانز باشعال لفافة أخرى ، ولم نكن قد تبادلنا كلمة واحدة منذ رحلت كاميل ، فأدركت انه لابد لى من قطع هذا الصمت ، الذى أحسست اثناءه أننى لم أعد مسيطرة على قلبى .

قلت :

ـ ليس من الحكمة أن تدخن هكذا .

وابتسم فى استسلام ، ثم قذف باللفـافة . ومضت بعد ذلك دقيقة بدت كأن لا نهاية لها ، فأرهفت أذنى وكلى يأس ، على أمل أن أسـمع بوق السـيارة وهى عائدة بكاميل .

وقال فرانز أخيرا :

ـ انك كريمة معى .

لم أقل شيئا ، فمضى هو يقول :

ـ لو كنت تعرفين مدى الاعتراف بالجميل الذى أكنه لك ، على استقبالك لى بهذه الطريقة .

همست في صوت ضعيف ، بغير ان أدرك الا فيما بعد عدم حيطتى :

ـ الا يشعر خطيب كاميل بأنه فى بيته هنا ؟

فراح يكرر عبارتى :

ـ خطيب كاميل .

كانت أربعة أو خمسـة أمتار تفصـل بين مقعدى ومقعده ، فركزت أملى الاخير على هذه المسافة ، بينما مضى يقول :

ــ هل حقا ان ما صنعته لى ، لم تصنعيه الا لاننى خطيب كاميل ؟

قلت فى لهجة حاولت ان تكون جافة ، وأنا أتطلع هذه المرة اليه :

ــ بغير كاميل .. كان يمكن ألا نلتقى .

أدار عينيه وفيهما تعبير حلو تشوبه المرارة ، ثم تمتم :

ــ هذا بديهى .. هذا بديهى .

وفى نفس هذه اللحظة اعترته نوبة من السعال اهتز لها ، وفى هذه الحركة التى أتى بها لكى يضع يده على جانبه ، انزلق الغطاء الذى وضعته كاميل على كتفيه قبل ذهابها وسقط على الارض .

عند ذلك أسرعت الى التقاطه ، وأنا أقول :

ــ انك تتألم !

وهز رأسه وقال :

ــ كلا .. قليلا جدا .. وهذا لا شىء . اننى اعتذر لانى جعلتك تقلقين هكذا .. دعى هذا الغطاء فاننى لا اشعر ببرد .

لم أنصت اليه ، وانما قلت :

ــ على العكس .. اننى أصر على أن تتدثر بهذا ، فما الذى قد تقوله كاميل ! وفضلا عن ذلك فان الليل قد بدأ يهبط .. فعلينا ان ندخل .. وذلك أفضل .

قال متوسلا :

ــ دقيقة واحدة .. فاننى على ما يرام هنا .

ــ عليك ان تطيعنى اذن .

وجمعت على صدره طرفى الغطاء ، فانتهز فرصة انحنائى فوقه وتناول معصمى وقبله .

وأقسم ، وربما كان هذا دفاعى الوحيد ، انّ الحركة التى أتيت بها فى تلك اللحظة لكى أدفعه عنى ، كانت حركة مخلصة . ولكنه ظل ممسكا ذراعى ، وقد ألصقه بشفتيه .

عند ذلك هتفت قائلة :

ــ فرانز !

واستمر هو قابضا على معصمى ، وتوقف لحظة عن تقبيله ، ثم قال :

ــ ما أسعدنى .. هل تنبهت أنت نفسك الى أنك قد ناديتنى باسمى ؟ انك لم تفعلى ذلك من قبل .

ــ اترك يدى .

ــ يدك ؟ منذ متى قد حرم تقبيل يد والدة كاميل ؟ ألا أقبلها صباحا ومساء أمامها ؟ ماذا هناك ؟ ماذا بك ؟

كدت أسقط على ركبتى على الارض ، فقفز واقفا ، وحاول ضمى بين ذراعيه ، لكى يساعدنى على الوقوف ، وهو يقول :

ــ أتوسل اليك .. ماذا هناك ؟ اننى أنا ...

وارتفع فى نفس الوقت هدير السيارة القوى ، وهو يزيد من قوته عند دوران الطريق القريب . كانت كاميل ستصل قبل مضى ثلاث دقائق ، وكنت أعرف هذا ، بل كنت واثقة من هذا ، ولكننى كنت عاجزة عن الحركة . وكان فرانز هو الذى حملنى من على الارض ، وذهب بى حتى مقعدى وهو يقول :

ـــ ثوبى الى رشدك . . لابد من ذلك . . وأنت تعرفين هذا . انها آتية .

ولم يكن صوته يحمل تلك النبرة الحلوة التى كانت له منذ قليل . انما كان منخفضا ، وقد اكتسب تدريجيا رنة آمرة حافلة بالقلق ، وما فتىء يكرر :

ـــ لابد من ذلك . . لابد من ذلك .

وفجأة سمعته يبذل جهدا لكى يعود به الى حالته الطبيعية الضاحكة ويقول :

ـــ أوه . . أخيرا ها هى كاميل .

وكما تفعل كاميل عادة ، فانها قفزت من السيارة التى وقفت فجأة بضغطة من الفرامل أمام الشرفة ، وقد عادت الينا . لم أتطلع اليها ، وانتظرت فى هلع أن تنطق بأول كلمة ، لكى أعرف من صوتها اذا كانت تشك فى شىء .

قالت :

ـــ كيف أنكم لا زلتم هنا ؟ لقد تركتكم منذ حوالى الساعة والجو هنا بالغ البرودة .

ووقع بصرها على الغطاء الملقى عند أقدام فرانز ، فقالت :

ـــ لقد كان الامر يستحق . .

ـــ انه انزلق عندما نهضت لالقاك . . فلا تغضبى يا كاميل . . ولا تكونى قاسية .

ـــ حسن . . حسن . هاك رسائلك وصحفك . طبعا ليس هناك شىء من البولنديين ولا من البابا ، ويعوض ذلك اننى مررت على المسجل ، وهو ينتظرك يا أماه غدا ، وهو يتعهد بترتيب كل شىء ، بحيث لن تمر

خمسة عشر يوما بعد عودتى من باريس ، الا ويكون علينا أن نوقع فحسب . ولكن ما بالك هكذا ؟

أجبت :

ــ ليس هناك من شىء ، أعتقد اننى فوجئت بهذا البرد .

ــ اننا ننتقل من حسن الى أحسن . انني أكلفك بالسهر على فرانز ، فاذا بك أنت التى تجعلينه يهمل فى نفسه .

واقتربت منى ، وكاد وجهها يلمس وجهى فى ذلك الظلام الذى أصبح كاملا . وبجهد يفوق الطاقة استطعت ان ابتسم ، واستمرت كاميل فى التطلع الى وجهى ، وأخيرا قالت :

ــ يا أمى المسكينة .. أرجو ألا تسقطى أنت نفسك مريضة .. هيا .. ويكفى اهمال هذا المساء .



وانقضى الاسبوع بغير أحداث ملحوظة ، وعاد الجو الى التحسن ، وتقدمت صحة فرانز ، الذى عاود العمل مرة اخرى مع كاميل .

وكانت كاميل قد حددت موعد سفرها الى باريس يوم الثامن من سبتمبر ، وفى السادس منه ، وبينما كنا نتناول طعام العشاء ، راحت تتحدث مع خطيبها عن التقدم الذى احرزه فى سيارته .

وقال فرانز :

ــ اننى مسرور للغاية .. هل تعرفين معنى المزايا التى تتيحها طريقة التبريد بوضع [الراذياتير] فوق سطح

السيارة ؟ أعتقد أننى بذلك أكون قد أدخلت تحسينا أساسيا ، سوف تقدره الشركة التى سأتعاقد معها ...

كانت كاميل تداعب السكين التى فى يدها ، ثم قالت :

ــ اذا كنت لا ترى مانعا ، فسوف نكتب الى هذه الشركة..

ــ نكتب لها ؟ أليس من الافضل أن تمري عليها ؟

ــ سوف أشرح لك الامر ، فبعندما حدثتكما عن سفرى الى باريس ، فانكما لم تتوقفا أنت ووالدتى عن تكرار القول بأن فى الامكان الاستغناء عن هذه الرحلة ، وأن فى الاستطاعة الحصول على نفس النتيجة بالكتابة . وفى اختصار لقد فكرت فى ذلك ، واقتنعت برأيكما ، ولن أسافر .

الفصل الحادى عشر

كانت أيام الخريف الاولى أجمل بكثير من آخر أيام الصيف ، فقد زال سعال فرانز ، وحل محله نوع من احساسه بالامتعاض من العمل ، وعادت صفاته الشرقية الى الظهور .

وكان يلجأ الى النوم بعد الظهر ، ولا ينهض الا لكى يأتى الى الشرفة ، ليدخن عددا من لفائفه ، تاركا وراءه كاميل وحدها تعمل فى اعداد المشروع الذى كان سيرسله الى تلك الشركة فى باريس ، والكتابة للحصول على تصريح بمد أجازتها .

لم أكن أعرف ما الذى يدور بينهما من حديث عندما يكونان بمفردهما ، أما أمامى فانهما لم يكونا يشيران الى رحيلهما عن [ماجلون] ، ولا الى التأخير الذى فرضه بطء الاجراءات فيما يختص بزواجهما .

وكانت كاميل بين الوقت والاخر تقول فجأة ، وقد بدا عليها كأنها قد انفصلت عن هذا العالم :

ــ عندما نتزوج .. سوف افعل هذا الامر أو ذاك ..

وكانت بين الحين والحين تعرض على فرانز بعض

الشئون ، وفى مقدمتها تلك التى لها علاقة بالمراسلات التي تبعث بها الى الشركات المالية او الصناعية ، التى كان يحاول أن يتأكد من حصـولـه على مسـاهمتها فى اخراج سيارته الجديدة ، فكانت تبدو كما لو أنها لا تفطن الى عدم المبالاة التى يستمع بها اليها ، بينما تروح هى بصوتها الصافى الواضح تقدم اليه تقريرا يوافق عليه دائما .

واذا كانت تشعر من جراء ذلك بشيء من الدهشة ، او كانت تتألم له ، فانها كانت تخفى ذلك بقدرة تحسد عليها .

لقد تحولت كاميل الى فتاة متزنة ، تماما كما كانت فى أيام طفولتها . وهكذا تبددت شكوكى من ذلك المشهد الذى وقع على الشرفة ، ولم يعد يثير فى سوى شيء من الاضطراب الثقيل ، كذلك الذى يبدو فى المياه الراكدة فى مطلع يوم عاصف .

وبدلا من ان تقف كاميل بينى وبين فرانز ، فقد بدا الامر وكأنها تعمل بغير ان تدرى ، على التقريب بيننا .

قالت لى يوما :

ـــ أماه .. ان فرانز يجتاز اليوم أزمة لا ينبغى لنا ان نخاف منها ، انه يقوم بنشاط ملحوظ ، ولكنه ليس على النمط الذى يقوم به الامريكيون ، الذين يعملون فى دقة الآلة المضبوطة . اما هو فانه يتعرض لبعض التقلبات . وقد مرت علينا فترة ، كان خلالها عاجزا تماما عن جمع فكرتين معـا ، أو عن تحرير رسـالة ، وبعد ذلك كان يستعيد الوقت الذى أضاعه . والمطلوب الان هو أن نسرى عنه قليلا . اننى أعلم أنه يهوى الصيد ، ويهتز طربا لمجرد سماعه طلقة بندقية فى الاحراش المجاورة ،

ولابد من وجود بعض الاماكن القريبة التى تحقق له ما يبغى ...

لم أجد صعوبة فى العثور على المكان الذى يصلح للصيد ، كما أن كاميل كانت على حق فيما ذهبت اليه ، فانه ما كادت تنقضى بضعة أيام حتى طرأ على فرانز شىء من التحول .

كانت الحيوانات التى يمكن صيدها كثيرة فى المنطقة ، ولما كان الصيد ممنوعا منذ بداية الحرب ، ولكنه مباح بالنسبة للخنازير البرية وغيرها من الحيوانات التى تعتبر ضارة ، فان فرانز سرعان ما قرر الذهاب لصيدها .

وأصبح فى غير حاجة الى دليل يذهب معه ، وبدأ يتوغل فى الاحراش وحده ، ويقضى فيها اكثر ساعات النهار .

وقالت كاميل ذات مساء حوالى الساعة السابعة ، ولم يكن فرانز قد عاد بعد :

ـــ ان هذا جميل ، ولكننى أخشى الان حدوث أثر عكسى . اننا مقبلون على شهر اكتوبر ، ولا ينبغى له ان يظل الى هذه الساعة المتأخرة فى الخارج . ولو اننى كنت أستطيع الذهاب معه لفعلت ، ولكنك ترين ان لدى من العمل ما أكاد أنوء به . أفلا توافقين على مصاحبته بين الحين والاخر ، بحيث تحملينه على العودة فى وقت مبكر ؟

ـــ أنا يا كاميل ؟ انك لا تفكرين فى الامر .. فأول شىء سوف أسببه له الضيق ، اذ أننى لست من هواة السير على الاقدام ، ولست أدرى اذا كنت أستطيع ...

فقاطعتنى قائلة :

ـــ وهذا هو المطلوب على وجه التحديد ، فانه سوف

يضطر الى عـدم الابتعـاد كثيرا ، حتى لا يسبب لك اجهادا . قـد لا يكون ذلك بالنسـبة لك أمرا مبهجا ، ولكنها خدمة أطلبها منك . فهل تعديننى بالتحدث معه فى هذا ؟

ـــ لا بأس .. ولكننى أفضل ان تحدثيه أنت .

وأظهر فرانز ما ينبغى ان يتظاهر به من الدهشـة عند سماعه هذا الاقتراح ، وفى اليوم التـالى انطلقت معه ، وكانت كاميل قد أعدت لى الملابس المناسـبة ، وكانت عبارة عن تنورة قصيرة ، فراح هو نفسه يداعبنى بأن يلصق فى ساقى العـاريتين بعض القطع من لبابة الخبز .

وقال وهو يضحك :

ـــ سوف أحاول ألا أتوغل بك فى الاماكن الكثيفة ، ولكن لا تتوقعى أنك سوف تتجولين فى احدى الحدائق ، فالاحراش فى هذه المنطقة قاسية ، وتكاد تشبه غاباتنا القديمة فى ليتوانيا ، حيث كنت أتوغل فيها عندما كنت لا أزال فى الثانية عشرة ، وأصبت فيها أول صيد كبير .



ولو أن هـذه الايام الجميلة السـاحرة لم تكن لها عواقب سـببت الكثير من الهلع ، فما كان أجملهـا من ذكريات تلك التى أمضيتها مع فرانز فى احراش الجبل .

لقد كنت اشعر فيها بأننى أتحول الى امرأة اخرى ، فى نفس الوقت الذى كنت اتعرف فيه على أماكن عشت بالقرب منها عشر سـنوات كاملة ، بغير ان يدور فى ذهنى مجرد فكرة عن وجودها .

كنا نتناول طعام الافطار فى ساعة مبكرة ، ثم ننطلق

فى السيارة ، والبندقية التى استعارها فرانز الى جانبى . وكان الطريق يرتفع ، والوادى والسهل والهضبة تختفى وراءنا ، وسرعان ما نتوغل فى المنطقة المظلمة .

ومن كل جانب فى هذه المنطقة ، تحيط بنا الاحراش ، وفى أقصى المنحدر نبع تتدحرج مياهه ، فنروح نعبره بالقفز من حجر الى آخر . وكان الهواء مثلجا ، فيترك فرانز السيارة فى الطريق ، بالقرب من أحد بيوت الفلاحين الذين يتولون حراستها ، ثم نبدأ نحن فى تسلق المنحدر .

ولا نصادف فى هذه المناطق الساكنة أى مخلوق ، بينما تنطلق من حولنا قلة من الطيور ، فيروح فرانز يعدد لى أسماءها .

ويصوب بعد ذلك وهو يضحك على أحد الحيوانات الهاربة ، ويرينى بذلك انه لو أراد لاستطاع ان يرديه قتيلا . ولكنه يخفض على الفور ماسورة بندقيته ، محتفظا فيها بالطلقات من أجل صيد يليق به .

وكنا نصل اخيرا الى آخر البقعة المظلمة ، وفيها يخيم جو لا هو بالخريف ، اذ ان الشمس لا تصل اليها ، ولا هو بالشتاء ، لان الشجر يحتفظ فيها بأوراقه .

أما الاوراق التى أسقطتها الرياح الشمالية ، فانها تكون فوق الارض مواد عضوية متحللة برونزية اللون ، تغوص فيها قدمى حتى الكاحلين .

ويجرى الماء بغير صوت تحت أكوام الاوراق ، ويصطدم فى صخور مخضرة تشبه فى حجمها الجماجم الهائلة .

ولابد عند السير إن يمد المرء يديه الى الامام ، ليزيح

بهما النباتات المدلاة من الاشجار ، حتى يشق لنفسه طريقا . وفي بعض الاحيـان ، عندما يكون هناك أحد كيزان الصنوبر وقد قضم بطريقة غريبة يهم بالسقوط الى جواره ، يكون لديه الوقت لكي يرفع عينه بسرعة ويرى في أعلى الشجرة ، الريش الاحمر لسنجاب صغير بادى الخوف ، على كنزه الثمين الذى سقط منه .

كان فرانز يسير الى الامام ، فلما وصل الى بقعة تتفرع الى جزئين توقف وهو يقول :

ـــ اذا كنا سنرى الخنازير البرية هـذا المساء ، فسوف يكون ذلك في هذا المكان .

وساعدني بكل احتراس على الوصول الى مرتفع صخرى يطل على خور يصل عمقه الى حوالى مترين أو ثلاثة أمتار ، فأجلسني على قطعة من الحجر الاصفر ، أما هو فقد جلس بالقرب منى ، والبندقية بين ساقيه .

وكلما اعتادت عيوننا على الظلام ، أخذت آذاننا تميز الاصوات في هذا الصمت . كانت الهمسة الخفيفة هى صوت الماء الجارى ، والهمسة الاخف منها هى صوت الريح ، اما الصوت المكتوم فهو صدى ثمرة البلوط وهى تسقط على الارض .

هز فرانز رأسه وقال :

ـــ لن نستطيع رؤيتها اليوم كذلك .

لم يكن هناك شعور بخيبة الامل في هذه الكلمات ، ولكم كنت مدينـة له بالجميل ، وكان هو يحس بذلك ، فيبتسم لى ، وبالتدريج يتبـدد الصمت بيننا ، ونروح نتحدث معا .

فعن أى شىء كنا نتحدث ؟

ليس من المنتظر ان أقول كل ما دار بيننا من حديث ،

ثم ان الجريمة لم تجعل قلبى قاسيا ، ولا استطيع أن أنسى أنه فى ذلك الوقت كانت كاميل لا تزال هناك .

ومع ذلك ، فاننى أستطيع ان أمضى فى روايتى ، بغير أن أشعر بالخجل . لقد كنت أحس بالفضول لمعرفة شباب فرانز ، وطفولته ، وكان هو يرد على اسئلتى فى هذا الصدد .

ورحت أصغى الى ذلك الصوت المتغم الحزين ، الذى امتلأ بالحنين الى بلاده ، التى نفى نفسه منها . وكان صوته يستعيد ذكرى غابات الوطن ، تلك الغابات الشاسعة التى تنتشر فى بولندا بالقرب من الحدود المشتركة مع روسيا وألمانيا .

قال :

ـ لقد كان لى أقارب فى كلتا الناحيتين . وعندما كنت صغيرا ، أمرح فى تلك الغابات التى لا نهاية لها ، والتى ازدحمت بأشجار الصنوبر فأضل بينها ، كان يحدث اننى أضطر فى خلال ساعة واحدة الى ان أستفسر عن طريقى مرة لدى احدى دوريات حراس الغابة ، وأخرى لدى احدى نساء القوقاز . والغابة حافلة بالذئاب والدببة والثيران الوحشية ، ولكن هذه الاخيرة قد اختفت منذ الحرب . وفى أحد الايام ، وكنت حينئذ فى التاسعة ، وجدت نفسى فجأة وجها لوجه ازاء احد هذه الثيران . كنت منهمكا فى صيد السمك فى ترعة صغيرة هادئة ، وعندما استدرت لاتناول احدى الديدان من حقيبتى لوضعها فى الشص ، اذا بى أرى الثور . لم أكن قد سمعته وهو قادم ، وكان يقف هناك ، على أقل من ستة أمتار . تطلع الى بعينين ثائرتين ، وهو يتهيأ للانقضاض . كنت اقف فى قارب صغير مقيد الى جذع شجرة ،

فسارعت الى حل ذلك الرباط ، ولو كانت عقدته عسيرة ، لكتب على الضياع . وتوغلت فى عرض الترعة ، ورحت أجذف بكل قوتى ، بينما امتلأ الثور غضبا ، وأخذ يركض حول الترعة ، وهو يرسل أنفاسا مرعبة . ولم أكن أخاف الا من شىء واحد ، هو ان يطاردنى داخل الماء ، ولكنه على ما يبدو كان يريدنى بغير ان يبتل جسده .

قلت وقلبى يخفق :

ــ وماذا حدث بعد ذلك ؟

فأخذ يربت على جبينى فى رفق ، ثم قال :

ــ بعد ذلك ؟ ان المغامرة قد انتهت على خير ، طالما أننى هنا ، ولكن هل فى ذلك اى فائدة لى ؟ اننى أتساءل عما اذا لم يكن من الافضل ان الثور ...

فقاطعته فى سرعة قائلة :

ــ لا تقل ذلك ! ولكن ما أجمل تلك البلاد !

قال وهو ينظر الى نظرة قاتمة :

ــ انها ليست جميلة ، انها مؤثرة وفيها بعض القسوة . اننى لا أعرف شيئا أكثر حدة من الاضواء الاخيرة للمساء وهى تنعكس فى لون بنفسجى ضارب الى الخضرة ، على خيوط الامطار الكثيفة التى تنهمر من السماء . انك سوف ترينها يوما من الايام .

سوف اراها .. انه يعدنى باننى سوف اراها !

ولا شك فى أننى بدلا من أن أتركه هكذا يصنع منى بغير ان أدرى شريكة له ، أعرف ما ينبغى لى أن أرد به عليه ، فأقول له :

ــ أجل ــ اننى سوف أصحبكما الى هناك أنتما الاثنين عندما تنتهى الحرب .

ومن البديهى انه كان على ان افعل ذلك ، وانه كان

على أن أفعل الكثير . ولانني لم أفعل ، فهذا هو السبب في أنني هنا اليوم .

ولقد رأيته كثيرا يتحمس، بينما يتحدث بهذه الصورة ، وكنت أستطيع ان أرقبه بغير ان يعيرني إهتماما . لـكم تغير منذ اليوم الذى رأيته فيه للمرّة الاولى !

لقد كنت أشعر أنه استعاد احساسه بذاته ، ولم يعد يبدو عليه ذلك الطابع الذى يتمتع به المهندس الانجليزى، بجفائه وأدبه . ان الشمس قد لوحت وجهه ، وقد ترك لحيته تنمو ، وهى لحية قصيرة بنية اللون ، نبت شعرها فى حلقات صـغيرة ، فجعلته يبدو كواحد من قياصرة الفجر .

وخيل الي انه يتمتع بعضـلات فولاذية تحت ردائه المخملى الاخضر الذى جمعه حول صدره ، وتحت حذائه الجلدى الطويل . أما نظرته ، هـذه النظرة على وجه خاص ، فانها كانت تبعث فى كيانى الكثير من العذاب ، وكنت أعلم انني لم اعرفه بعد .

وعندما أفاق من الاحلام التي كان سابحا فيها ، أتى بحركة من يطرد عن نفسه فكرة تؤرقه ، ومن جديد راح يبتسم لى وقال :

ـــ اعتقد اننا لن نراها اليوم .. ترى هل نراها ؟

ولن أنسي قط ذلك اليوم ، الذى رأينا فيها تلك الخنازير البرية للمرة الاولى .



كانت تتقدم الى الامام بغير ان تبدو عليها العجلة ، فى أقصى الخور ، وكانت عبـارة عن أم وأربعـة من صغارها . وكانت هى تسير أمام الصغار التى انتشرت

خلفها كالمروحة ، كأنما تتولى حمايتها .

وتوقف الصغار ، ثم عادت وتابعت مسيرها نحونا . وأحس بها الكلب فى البداية ، وانطلقت منه صيحة مكتومة ، وفجأة قطع فرانز عبارة كان يقولها ، وأخلد الى الصمت .

وكلما تقدمت الخنازير ، كنت أرى مؤخرة البندقية تقترب تدريجيا من كتفه فى تصميم .

ها أنا الان أعرف نظرة فرانز الحقيقية ، وقد استولى على الرعب منها .

وظلت مؤخرة البندقية معلقة فى الهواء ، وكانت الحيوانات لا تزال خارج المرمى ، ثم توقفت عن التقدم . أحاطت الصغار بأمها ، وراحت هذه تبحث بفمها المستطيل فى الارض عن غذاء لابنائها ، ثم همت باستئناف المسير فى اتجاهنا .

لم يكن نوع من العطف والشفقة هو الذى استولى على ، وانما نوع من الرعب ، فقد خيل الى ان طلقة النار التى سوف تخرج لكى تصيب تلك الحيوانات ، انما ستنالنى فى الصميم .

وعند ذلك همست :

— فرانز .. فرانز !

وبغير أى تدبير وصلت الى هدفى ، فبالرغم من أن صوتى كان منخفضا الى أقصى حد ، فقد كان ذلك وحده كافيا ، اذ ان الخنازير قد اختفت فى مثل لمح البصر مبتعدة فى الغابة .

انطلقت من فرانز عبارة سباب وهو يضع سلاحه على كتفه ، ولكن عندما ادرك عدم جدوى هذه الحركة ، عاد وأنزل البندقية على الارض .

ولم أقو على مواجهة نظرته ، وظللت مضطربة أرتعد ، الى أن سمعته ينفجر ضاحكا ، ثم قال :

ــ هيا بنا .. إذا خطر لنا يوما أن نصيد الثور الوحشى ، فستكون لنا فرصة أكبر من هذه .

وعدنا إلى [ماجلون] حوالى الساعة السادسة ، فسألت ماريا قائلة :

ــ أين الإنسة ؟

ــ لقد انطلقت الان الى المدينة لتأتى بالبريد .

قلت :

ــ هل ذهبت سائرة على قدميها ؟ لماذا لم تنتظرنا لتذهب بالسيارة ؟

ــ لقد كانت تعمل طيلة النهار ، وقالت ان السير سوف يفيدها ، وانها فى حاجة الى بعض الهواء .

ــ حسن .. عليك باعداد المائدة فور وصولها .

وعادت كاميل فى السابعة والنصف ، وكنا فى انتظارها فى غرفة المائدة ، فقالت :

ــ أسعدتما مساء .. هل كان الصيد طيبا ؟

أجابها فرانز :

ــ سوف تقص والدتك عليك ما حدث ، وهذا أفضل . هل هناك رسائل لى ؟

ــ أجل .. بعض الرسائل .. هاك الصحف أولا .

لم يكن يبدو عليها انها تتعجل توزيع البريد ، وراح فرانز يتطلع اليها فى شىء من القلق ، لم تفتنى ملاحظته .

وقالت كاميل :

ــ خذ هذه .. وهذه أيضا لك .

ووضعت أمامه على المائدة مظروفا ، تناوله على

الفور وهو يقول :

ـــ انها أوراقي !

ـــ أجل .. أوراقك .. أوراقك العتيدة أخيرا .

ـــ اذن فقد كتبت اليهم ؟

ـــ أجل .. الى البعثة البولندية ، وقد أجابوا على رسالتي على الفور تقريبا . ألم تكتب أنت اليهم ؟

ـــ أنا ؟ بلى .. لقد كتبت .

ـــ اذن فان رسالتي كانت محظوظة أكثر من رسالتك ، وهاك البرهان على ذلك .

وصمتت برهة ثم عادت تقول :

ـــ على كل فانه خير كل ما ينتهى الى خير . والان يا أماه الصغيرة ، لا ينقصنا الان شيء سوى أوراقي .. أو أوراقنا ، وآمل ألا نتأخر في اعدادها . لقد كنتما على حق أنتما الاثنين ، فقد أحسنت صنعا بعدم سفرى الى باريس .

الفصل الثانى عشر

كانت قصة تلك الاوراق تحيرنى ، ولكننى كنت مقتنعة بأن فرانز كان قد تلقاها قبل ذلك ، وان كاميل علمت بذلك من الصورة الثانية التى ارسلت اليها ردا على الرسالة التى بعثت بها الى البعثة البولندية .

ومنذ ذلك الوقت ، لم يكن عسيرا تصور ما سوف يحدث بعد هذا ، وابتداء من ذلك اليوم فى [ماجلون] .

فهل يعيش المرء مثل هذا الموقف المضطرب ، الحافل بالقلق ؟ وهل وضحت أمامى فى ذلك الوقت فكرة كاملة عن هذا الالتباس وذاك الخطر ؟

كلما حاولت ادراك ذلك ، ازداد شعورى بعجزى وقصورى ، وكل ما استطيع قوله فى هذا الامر ، هو أنه لم تكن بى رغبة فى التفكير فيه على الاطلاق .

ولقد كان الخطأ الذى ترديت فيه يكمن فى هذا ، وفى هذا تكمن جريمتى . وقد استمر هذا حوالى خمسة عشر يوما ، هى الايام الخمسة عشر الاولى من ذلك الخريف الدامى ، استولى على فيها الدوار ، وكنت اقترب خلالها وأنا مبتهجة من الهاوية .

بيد ان عذرى فى ذلك ، كان فى أننى تصــورت انى سوف أتردى فيها وحدى .

وبقدر ما كانت الايام الاولى من شهر سبتمبر قاسية مزعجة ، جاءت أيام شهر أكتوبر حافلة بالبهجة . ذلك ان الفراشات التى كانت قد اختفت فترة عادت لتطير وترفرف فى جميع أرجاء الشرفة ، بل وتخاطر بالتقــدم حتى غرفة المائدة . وكنت أعرف جميع هذه الفراشات ، وكنت أعدد أسماءها أمام فرانز .

لقد كانت فراشـــات دقيقـــة زرقاء اللون آتيـــة من الهضبة ، وأخرى بنية ذات اجنحة فضية . وفى غرفتي اكتشفت بين زجاج النافذة والســتائر فراشـــة غريبة الشكل تأتى بين الحين والاخر يقال لها فراشة الليل ، تتلون أجنحتها باللونين الرمادى والاحمر ، ويطلق عليها أهل البلدة اسم العروس .

وكنت عندما أراها ســجينة أطلق لها حريتها ، وأنا أتساءل عن السبب الذى حدا بهم الى اطلاق هذا الاسم الرائع عليها ، هذه الحشرة التى تبــدو كأنها اكتست بالدم والرماد .

وباتفاق متبادل بيني وبين فرانز تم بغير ان نتشاور معا ، تخلينا عن صيد الخنازير البرية ، اذ ادركنا ان من دواعي الحــذر ألا نترك كاميل بعد ذلك وحدها فترة طويلة .

وبغير ان تطلب هى منى ، فقد أثرت احتمال الخطر الذى قد تتعرض له صحة فرانز ، اذا هو بقى أطول مما يجب فى الرطوبة تحت الاحراش . وقد تلقت كاميل هذا التعليل بأن هزت رأسها فى عدم مبالاة ، ثم قالت :

ــ أفعلاً ما يحلو لكما !..

وبدا فى عبارتها هذه ، كأنها تنطبق على كل شيء . على أنه بالرغم من هذه الحرية التى كانت تتركها لنا فى الظاهر ، ربما لكى ترى الى أى حد سوف نستغلها ، فاننا لم نعد نبتعد عن الدار ، أو عن الشرفة ، حيث تظللنا غصون أشجار الكستناء .

وفي بعض الاحيان فقط ، عندما تلمع الشمس بصورة فيها الكثير من الاغراء بعد الغداء ، وبينما تكون كاميل قد صعدت الى غرفتها لكى تستأنف عملها ، كان فرانز يتولى قيادة السيارة ، ذلك الشيطان الصغير ، وننطلق فيها معا حتى نصل الى أحد تلك القصور التى تقف على حافة المنحدرات المحيطة بنا ، او الى ابراج سنان لوران ، حيث كانت تقام فى الماضى الحفلات الراقصة فى الاعياد ، فقامت بالقرب منها غابة عذراء صغيرة .

ومن هناك نشرف على الوادى المترامى الاطراف من تحتنا ، تحيط به من بعيد الجبال الشامخة .

وكان قلبانا الحائران يجدان شيئا من الهدوء والسكينة فى هذه الاماكن ، وهما هدوء وسكينة كانا قلبانا فى حاجة قصوى اليهما ، وعند ذلك نشعر فى هذه الوحدة التى يسيطر عليها الصمت بحريتنا .

كانت أفكارنا تتحد ، ولا نعود نرى عدانا نحن الاثنين، فتكتمل سعادتنا ، ثم تترامى أبصارنا الى [ماجلون] ، حيث كان يستحيل علينا الا أن نعود اليها ، لكى نجد فى انتظارنا كاميل .

وكثيرا ما كنا نجدها عندما نعود فى غرفتها ، وفى

بعض الاحيان تكون فى انتظـــارنا فوق الشرفة ، وهى تتأرجح فوق ارجوحة صغيرة وتدخن احدى لفائفها ، فتستقبلنا بعبارة مرحة .

وفى احدى هذه المرات قالت لى :

ـــ أماه .. لقد وصل طرد بريدى باسمك اثناء غيابك، وقد دفعت عنك رسومه كما حدث فى المرتين السابقتين ، وهذا يجعلك مدينة لى بما يزيد على اربعة آلاف فرنك . ان الامر لا يستدعى ان تدفعى لى هذا المبلغ فى الوقت الحالى ، اذ أنك سوف تسوين كل شىء فيما بعد ، طالما ان بيننا حسابا جاريا . وبالمناسبة .. فاننى أعتقد ان الوقت لن يتأخر بنا الان عن تسوية هذا الحساب .

قلت :

ـــ لقـــد مررت الان على المســجل ، ولم يكن فى مكتبه . لكننى سوف أمر عليه غدا بغير شك ، ويمكنك أن تثقى بذلك . أين ذلك الطرد ؟

ـــ فى غرفتك .. لقد وضعته فيها .

كان يبدو فى ذلك العـــــام ان موسم الصيف قد استطال الى أقصى وقت له ، واحتفظ فى أواخر أيامه بحـــرارته ولهيبه ، خـــوفا من أن تحل ليـــالى الشتاء بظلامها .

وكنت بدورى ابدو كما لو كنت احـــاكيه ، فـــان النصائح التى كانت كاميل قد قدمتها الى لم تضع هباء . غير انها لم تعد الان على مزاج معتدل ، فلم تشفع هذه النصائح بغيرها ، ولو أننى لم أعد فى حاجة الى مزيد منها .

لقد كنت أعرف ما الذى يحتوى عليه ذلك الطـرد البريدى القـادم من باريس ، اذ أنه عنـدما تراجعت كاميل عن القيام برحلتهـا ، عادت وتخلت كذلك عن القيام بالنيابة عني بشراء الحـاجيات التى كنت قـد كلفتها بها ، فلم أجد صعوبة ولا حرجا فى أن أحـل محلها .

وما كان يبدو لى من قبل عبئا ثقيلا ، اذا به يصبح بالنسبة لى من الامور الجميلة التى ينشغل بها المرء .

لقد كنت أعيش غارقة بين الكتالوجـات ومجـلات الازياء ، وعندما كانت ماريا تدخل على فى الصباح فى غرفتى ، فانها كانت تجدنى اما جالسة أمام المرآة أجرب طريقة جديدة لتصفيف شعرى ، واما جالسـة بالقرب من سريرى منهمكة فى تصفح عينات الاقمشة من كافة الانواع والالوان .

ولقد أشرت قبل ذلك الى الدهشة الممتزجة بالبهجة التى استقبلت بها كاميل محـاولاتى الاولى التى بدأت بها ، للهروب من الظلام المقبض الذى كنت أعيش فيه والآن ، فان مشروعاتي فى هـذا الشأن لم تكن تثير لديها الكثير من الحماس ، وكنت أعرف أنهـا ليست نظرة تشجيع تلك التى تتلقانى بها ، فى كل مرة أظهر فيها أمامها بثوب جديد .

ومع ذلك فان هذه الاثواب كانت بسيطة مناسبة ، الا أننى يجب إلا أنسى ، انه قبل ذلك بثلاثة أشهر فقط كنت أؤكد بأننى لن اتخلى عن ثياب الحداد قط .

وكان يبدو كأن كاميل تتطور تطورا عكسيا ، اذ

انني كلما زدت اهتماما بمظهري ، ابتعدت هى عن كل مظهر من مظاهر الاناقة النسائية .

وأذكر في هذا الصدد المرة الاولى التى ظهرت فيها على الشرفة ، وقد طليت وجهى بقليل من الالوان ، اذ انني لم أدرك انها فطنت الى ذلك ، الا عندما رأيتها تقلع نهائيا عن وضع أى شىء من هذه الالوان على وجهها .

على أنها لم تلفت نظرى قط الى مثل هذه الاشياء ، بل انها فعلت ذلك مرة واحدة .

كنت فى ذلك اليوم أرتدى ثوبا مصنوعا من الاورجندى الازرق الموشى بزهور ذات لون برتقالى خفيف ، وقد صنع بحيث كان يكشف عن صدرى وكتفى . وعندما شاهدتنى به ، ابتسمت وهى تقول :

ــ ما كل هذه الاناقة يا أماه ؟ ان من يراك يدور فى خاطره انك انت التى سوف تتزوجين !

مثل هذه الملاحظة كان يمكن ان تبعث الرعدة فى جسدى ، ولكن احساسى بمعناها كان احساسا عابرا .

فماذا يهم فى قرارة الامر كل ذلك بالنسبة لى ؟ وما الذى كنت اخشاه اذا أنا أصبحت امرأة أنيقة ، وما الذى لحظته كاميل ؟

ثم .. ألم يكن الاهم هو ان يلاحظ فرانز ذلك ؟

لقد كان كل همى فى ذلك الوقت ، ان اتفنن فى أن أظهر له بسحري ، وان أجعله يعرف انه هو ، وهو

وحــــده ،صاحب هذه المعجزة ، وان أشــــكره على ان جعلنى اكتشف نفسى ، بأن ابدو فى كل مرة اكثر جمالا فى عينيه .

وقالت لى ماريا ذات يوم :

ــ هل ألقت سيدتى بالا ؟

ــ الى ماذا ؟

ــ الى سجنة الانسة منذ بضعة أيام .

ــ وماذا بها ؟

ــ قد يقال ان جو البلدة ليس طيبا بالنسبة لها هذا العام .

هززت كتفى وقلت فى جفاء :

ــ ان الآنسة قد عملت كثيرا فى الآونة الاخيرة .. وهى لا ينقصها الا ان ترتاح قليلا .



وهكذا هربت فى تلك الســـاعات التى انعـــدم فيها الاحساس والعقل ، عن قصد وتعمد ، من كل مامن شأنه ان يحملنى على القيام بواجبى ، ولا استطيع الا الاعتراف بذلك .

اننى لم أفعل شيئا ، عندما كان ذلك لا يزال فى امكانى ، من أجل التنبؤ بالعاصفة التى كانت توشك ان تنقض على رءوسنا .

اننى أعرف انه كان يتعين على ان أصيح في كاميل مائة مرة ، بل ألف مرة ، وأقول لها :

ـ ما الذى يبقيك هنا .. أيتها الفتاة الصغيرة القصيرة النظر ؟ عليك بالفرار بعيدا ، الا تشعرين كما تقول ماريا ، ان الجو لم يعد صالحا لك هنا ؟ لا تبقى هنا دقيقة واحدة ، فى بيت لا تدركين ما يدور فيه من خيانة ...

ولكن لا .. ان واجبى كان شيئا آخـر . ليست كاميل هى التى يجب ان تذهب ، فأنا اذا رحلت من هنا فان [ماجلون] لن تصبح مكانا للجريمة ، وانمـا ستعود كما كانت من قبل دارا طيبة فى ذلك الخريف الجميل .

أجل . كان على ان أتخلى عن مكانى ، فاننى لن أعدم مكانا أنسحب اليه واختفى فيه . ألم يكن هناك على بعـد فرسخ واحـد ، ذلك الدير الذى كثيرا ماراودتنى فكرة الالتحاق به كامرأة تريد أن تقضى فيه ايامها الاخيرة فى هدوء ؟

لقد اقتنعت بذلك خوفا من ان أبدو انانية فى نظر كاميل ، التى لم أكن أتصور أن استقبلها بعد ذلك فى فترات الاجازة . وما كانت ابنتى لتبدى لى اليوم الا نوعا من الاسف المهذب ، على اتخـاذى مثل هـذا القرار .

وهناك ، أو ابعد من ذلك ، أو فى أقصى الارض ، فاننى اذا كنت اخشى من عـدم شعورى بالقرب من غريمى العتيد ، كنت استطيع على الاقل ان اتنفس ذات الهواء الذى يتنفسه .

كنت أود الذهاب الي بعيد ، الي الناحية الاخري

من هذا العالم ، ولا يهم تحديد المكان ، كل ماهناك أننى كنت أريد الرحيل .. الرحيل !

ولو أننى فعلت ذلك ، لما قدر لما حدث ان يحدث ، ولما أصبحت ليالى على ماهى عليه من عذاب مقيم ، وندم لا يزول .

هكذا افكر اليوم ، ولكن هل كان فى امكانى فى ذلك الوقت ان اتنبأ بما كان سيحدث ؟ وهل كنت قادرة على اتخاذ مثل هذا القرار ؟

يالقوة الحب البائس !

اننى لاذكر عندما كنت أؤدى الامتحان فى شهادتى العالية ، أنى قد حصلت على تقدير جيد فى التاريخ . فقد كان السؤال عن قضية ملكة منكوبة الحظ ، فرحت فى اجابتى ادافع عنها ، واضفت عبارة استرحام قلت فيها :

— اننى اترك الحكم عليها لجميع الامهات !

هذه الصرخة ، وهذا الهتاف ، كنت أنا آخر من له الحق فى النطق به . ولكن لو أننى خضعت لقلبى ونزواته ، وهتفت بدلا من ذلك قائلة :

— اننى اترك الحكم عليها لجميع النساء !

فهل كانت أى امرأة تجد فى نفسها الجرأة ، على ان ترمينى بحجر ؟

يالقوة الحب البائس !

ان تلك المرأة كانت ستكذب ، لو أنها أنكرت أنها لم تكن ولو مرة واحدة فى حياتها ، اسيرة للحب ،

مستعدة لان تفعل فى سبيله أى شىء ، بما فى ذلك الجريمة والعار .

كلا .. كلا .. اننى على ثقة من الامر ، وأقسم على ذلك ، بأن ألبرتا ليست الاستثناء المقيت . أننى لست الا امرأة بائسة ، وضعتها الظروف بحيث يتعين على ان امضى فى الجنون الى النهاية .

لقد كان ينقصنى القليل حتى اتمكن من قضاء حياتى أرملة وأما ، بغير أن أشعر بالندم ووخز الضمير فهل كانت جريرتى ، ان كان مصيرى مختلفا عن ذلك ؟

من هذه الناحية ، لا يراودنى أى خوف . واذا حدث انه لم يكن هناك شىء فيما بعد الموت ، فان روحى سوف تتبدد فى العدم كما تتبدد الارواح الاخرى . أما إذا كان هناك شىء ، فلسوف يكون من الغريب ان يوجه الى الاتهام بارتكاب المكائد التى لم أكن الا ضحية لها فى هذه الحياة .

وهل كنت انا التى عملت على كشف جمالى فى هذه السن المتأخرة ؟ ألم أصل الى الثالثة والاربعين من عمرى ، بغير ان يدور فى ذهنى مجرد ادراك المفاتن التى يضمها جسدى ؟

اننى ماكنت لاطلب الدخول الى هذا الفردوس الذى كنت اجهله ، لو ان ذلك الملاك الفاتن لم يقدنى حتى اعتابه . فهل كانت جريرتى ان اصابنى الذهول من جراء ما شاهدت ؟ وهل كان خطأى ان الاشياء جميعا ، ابتداء من تلك اللحظة ، لم يكن لها وجود بالنسبة لى ، الا من حيث ارتباطها بالشهوات والحب ؟

ان أقصى ما يتأجج فى الرجال من عواطف ، لا وزن لها على الاطلاق الى جانب ما يضطرم فى قلب امرأة واحدة ، اذا اليأس استولى عليها ، وجعلها تشعر أنها سوف تنتهى عما قريب .

ان هذه المرأة تعترف بأنها سوف تضحى بكل شىء ثم انها تكذب اذا هى زعمت عكس ذلك .

وقد يقال لى :

ــ وهل تضحين بكل شىء .. حتى كاميل ؟

اننى اسمع جيدا .. كاميل !

ولا ينبغى لاحد هنا ان يتصور اننى لم أفكر فى هـذا الخضم من الاضطراب فى كاميل ، ولكن ماذا ! انها لا تزال فى الثانية والعشرين ، وهى لن تعدم العثور على فرانز آخر . فهل كانت هى تحب هـذا الرجل ؟

أجل .. ولقد كنت أعلم أنها تحبه .. تلك الطفلة البائسة .

اذن ماذا ؟ ..



كنا قد أصبحنا فى الثامن من اكتوبر .

وفى مساء هذا اليوم ، وفى ساعة العشاء ، هبطت كاميل الى قاعة الطعام وهى مبتسمة كعادتها وقالت :

ــ ماذا تم بشأن تقسيم التركة يا أماه ؟ هل قابلت ذلك الموثق من أجل اعداد عقدى ؟

اجبت قائلة :

ــ انك تعرفين انني كنت مشغولة طوال اليوم ، اذ ان المستأجرين قد جاءوا . ولكنني سوف أذهب لمقابلته بالتأكيد غدا .

ــ هذا عظيم ، لانني يجب ان انبأك بأننا ســـواء تزوجنا أم لم نتزوج ، فانه يتعين ان نعود الى باريس فى أول نوفمبر ... أو أنا على الاقل .

يالهدوء تلك الكلمات !

فهل كان الامر طبيعيا ؟ وهل كان مصطنعا ؟

اننا لن نلبث ان نعرف ذلك .

الفصل الثالث عشر

قصدت بعد ظهر اليوم التالى الى المدينة سيرا على الاقدام ، بغير ان أقول شيئا لفرانز عن خطتى ، حتى لا يعترض عليها ، وقد بدأت بأن رحت أهيم على طول الشاطىء الصغير ، الذى يجعل من هذه المدينة صورة متواضعة لمدينة البندقية .

وحيانى فى الحديقة العامة ، وعلى رصيف الميناء الصغير بعض من يعرفوننى ، وتوقفت لكى يسألونى عن انبائى ، والوقوف على موعد زواج كاميل .

وكنت أرد عليهم بطريقة آلية ، وحدث اكثر من مرة أن خانتنى شجاعتى ، ثم خطر لى بعد ذلك أن أعود أدراجى فى الطريق الموصل الى [ماجلون] .

غير اننى همست لنفسى قائلة :

ــ هيا .. يتعين عليك ان تفعلى ما أنت مقدمة عليه .

وعندما وصلت أمام مسكن الموثق ، جذبت وقلبى يدق ، الحبل الموصل بالجرس ، فلم يجبنى أحد . ولم يكن هناك أدنى صوت داخل البيت .

فهل كان هذا الحظ الطيب ممكنا ؟

ولقد هممت بالابتعاد بغير ان الح اكثر من ذلك ، عندما سمعت وقع اقدام تمشى فى الدهليز ، واذا بالباب يفتح ، وتظهر فيه خادم عجوز .

قالت :

— ان سيدتي ليس لها حظ اليوم ، ولو أنها جاءت بالامس فقط .. ولكن السيد المسكين يجلس الى جوار النار ، يعانى من حمى حادة . وأنا امضى الوقت فى عمل المشروبات الساخنة ، كما ان الطبيب قد منعه من العمل ، ولو أننى على ثقة من أنه ســـوف يستقبل سيدتى اذا رغبت فى ذلك ، بغير ان تخشى من انتقال العدوى اليها .

— كلا .. كلا .. ان الامر لا يستحق ذلك . قولى له فقط اننى جئت ، واننى سوف اعود عندما يتحسن .

وانطلقت بأقدام سريعة ، فلقد وفيت بما وعدت . وهكذا يتضح مدى الخداع الصبيانى الذى وصلت اليه مع ضميرى .

كان فرانز ينتظرني فى الشرفة كالعادة ، فتبادلنا تلك النظرة الطـــويلة ، التى كانت تغنينا عن تبادل الكلام .

وفى الساعة الثامنة كانت كاميل لا تزال فى غرفتها وصـــعدت ماريا لكى تخبرها ان العشـــاء قد أعد ، فجاءت على الفور تقريبا ، وهى تقول :

— اسعدتما مساء .. هل هناك خطابات ؟

فأجاب فرانز الذي كان قد تغيب نصف ســـاعة

للذهاب بالسيارة الى مكتب البريد :

ــ ثلاث أو أربع رسائل لك .

كان هو الذى يذهب احيانا ، وكانت هى التى تذهب أحيانا اخرى ، غير انه انقضى اكثر من شهر لم يقطعا فيه هذه المسافة معا .

قالت كاميل :

ــ هل تسمحين لى يا أماه ؟

وأخذت تفض رسائلها ، ثم راحت تقول :

ليس فيهـا ماهو هام ، فيما عـدا رسـالة من رئيسى فى العمل . انه يوصينى بالراحة جيدا ، ويقول ان هنـاك عملا كثيرا ينتظـرنا فى نوفمبر . وأنت ماذا لديك ؟

أجاب فرانز :

ــ ليس شـيئا ذا اهمية ، هـذا رد من الشركة الفرنسية لصنع السيارات . لقد اتفقنا .

ــ على ماذا ؟

ــ على مشروعى الذى تعرفينه ...

ــ اننى لا أعرف عنه شيئا على الاطلاق ، ولكن هذا ليست له اية اهمية .

قال فرانز فى صـوت شعرت فيه شـيئا من الغضب :

ــ حسن .. فيما يختص بالنموذج الخاص بالسيارة المقفلة ، فقد خطرت لى فكرة الغاء ابواب الدخول ، ولامكان الدخول اليها فاننى قد جعلت السقف وجانبا

من الهيكل يدوران حول محور أفقى . وما يكاد الركاب يجلسون فى أماكنهم ، حتى يضغط السائق على زر يحرك هذين الجزئين كهربائيا ، فيهبطان معا ، وتغلق السيارة . لقد توصلت بذلك الى ماكنت ابغى ، وهى سيارة لا ترتفع عن الارض الا أقل مسافة ممكنة .. فما قولك فى هذا ؟

ــ ان هذا من العبقرية المطلقة .

ــ أجل ، ولكن المؤكد انه نموذج غير معتاد . ثم ان هناك كما تذكرين حاجب الطين الامامى ، الذى يجب ان يدور مع العجلات ليقلل من مقاومة الهواء لقد تبادلت كل هذه التجديدات مع مهندسى الشركة الفرنسية ، فبدأوا بالقول بان هذه مبالغات ، ثم أخذوا يقتنعون بوجهة نظرى . وهذه الرسالة التى حدثتك عنها ، يقولون فيها اننا اتفقنا بشأن بيان التكاليف .

ــ وبيان الساعة الثالثة .. هل فكرت فى الذهاب الى دار العمدة لقراءته ؟ وهل هو على مايرام ؟

ــ بعض انبائه لابأس بها ، فان القوات الفرنسية المشتركة مع القوات البريطانية اخذت تهاجم فى بلجيكا فى منطقة الغابات . وسوف تذاع تفاصيل أكثر فى بيان الغد .

ــ هل هذا كل شىء ؟

ــ ليس هناك جديد على بقية الجبهة .

ــ اننى من جانبى لا أحب هذا الهدوء الظاهرى .

ولزمت كاميل الصمت ، ولم نجرؤ انا أو فرانز على

ان نقطعه عليها . ان هذه الوجبات التى كانت تبدأ مرحة فى الماضى ، اصبحت الان بالنسبة لنا ضربا من العذاب .

كانت رنة صوتى قد اكتسبت شيئا يبعث الخوف فى قلبى ،اذ كان فيه ما يشبه الاعتراف . كما ان فرانز لابد ان يكون لديه الشعور نفسه ، فيما يتعلق به . لقد وصل بنا الامر الى حد اننا لم نعد نفتح افواهنا ، الا لكى نجيب على الاسئلة التى توجهها الينا كاميل ، والتى اخذت تقل تدريجيا وتصبح قصيرة موجزة .

ومن حسن الحظ انه كانت هناك ماريا . انها لم تكن ذات أسلوب منمق ، وكان يطيب لها ان تنقل الينا انباء يوم . وكنت انتظر والقلق يملانى تلك اللحظة التى تبدأ فيها تبديد هذا الصمت الكريه بملاحظاتها وقصصها بغير ان يكون فى نيتى ان اجعلها تلزم الصمت .

وفى هذا المساء بالذات ، كان واضحا ان لديهـا شيئا تريد ان تقوله ، ولكنها لا تجرؤ على البدء فيه .

وقالت كاميل التى كانت تطرب منذ بعض الوقت من ارتباك الخادمة :

ـــ ماذا لديك ياماريا ؟ لابد ان عندك قصة تريدين ان ترويها لنا .

فقالت هذه :

ـــ وكيف استطاعت الانسة معرفة ذلك ؟

ـــ ان هذا ليس بالغ الصعوبة .. فان شفتيك تتحركان .. كما انك تكررين لنفسك ما تريدين ان نطلب منك قوله لنا .

ـــ ياالله يا آنسة ! ان مالدى هذه المرة لن يبعث على الضحك ، فعندما يحدث شيء فظيع لرجل طيب ، له قدره فى البلدة كلها ...

ـــ ومن الذى وقع له هذا الشيء غير الطيب ؟

فسألتنى الخادمة الصغيرة ، التى كانت ترغب بطريقة مؤكدة فى جعلي اشترك فى الحديث :

ـــ هل تعرف سيدتى كليمان ؟

ـــ أي كليمان ؟ هل هو المزارع الذى يستأجر الارض من أسرة ميناردى ؟

ـــ اجل ياسيدتى .

ـــ اننى اعرفه بعض الشيء ، واعـــرف انه كما تقولين رجل طيب . وامرأته كذلك لطيفـــة ، وهى تدعى الفونسين على ما أعتقد ، وهى امرأة جميلة .

قالت ماريا وهى ترفع عينيها الى السماء :

ـــ انها امرأته ياسيدتى !

وسألتها كاميل :

ـــ ماذا فعلت ؟

ـــ كانت البلدة كلها تقول عنها ما تقوله سيدتى . ولكن الان .. ان الأمر المؤكد هو انها عرفت كيف تخفى لعبتها .

ـــ ماذا هناك اذن ؟

ـــ لقد هجرته منذ قليل يا آنسة ، لكى تلتقى فى تولوز بابن عم لها يتجر فى الدراجات ، ويبدو أنهما قد رتبا كل شيء معا عندما كان يأتى هنا فى الاجازات

لقد تركت وراءها رسالة الى كليمان تقول له فيها انه يستطيع ان يفعل ما يحلو له ، وانها تحب الاخر ، وانها لن تعود اليه قط . أليس هذا محزنا ؟ اليس في استطاعة كليمان ياسيدتى ، ان يعيدهـا اليه بقوة الشرطة ؟

وفوجئت ماريا بالصمت الذى استقبلنا به قصتها ، فأخذت تكرر قولها :

ـــ أليس كذلك ياسيدتى ؟

فتمتمت بدورى قائلة :

ـــ لست أدرى .

أما كاميل فقد انفجرت ضاحكة ، فتطلعت اليها ماريا فى دهشة ، بينما قالت كاميل :

ـــ اذن فان كليمان المسكين قد خدع بنذالة . ألم يكن يشك فى شىء ؟

ـــ وما الذى تعنيه الانسة ؟

ـــ وماذا يفعل الان طول النهار ؟

ـــ انه يبكى يا آنسة ، انه يبكى وهو يرعى شئون الاطفال ، وهذا ما يبعث على الأشفاق . لقد ذهبت ايرما حـائكة الثياب الى هناك بعد الظهر ، فرأته جالسا وعلى ركبتيه الطفل الصغير الاخير ، الذى لم يكمل بعـد عامين ، وكان يطعمه من زجـاجة اللبن ، وبين الوقت والاخر كان يضطر الى اعادته الى مهده ، ليخفف دموعه الغزيرة .

قالت كاميل :

ـــ لقد كانت [ميديا] اكثر جراة من ذلك . . اليس

كذلك يا أماه ؟ أليس كذلك يافرانز ؟ خبريني ياماريا ، ما الذي سوف يفعله الان ذلك المسكين ؟

ــ ما الذي يفعله ؟ لاشيء .. ما الذي تريده الانسة أن يفعل ؟

وهزت كاميل كتفيها في ازدراء ، ثم قالت :

ــ ان كليمان هذا غبي بكل تأكيد ، وهو لا يستحق أن ننشغل من أجله .

فقالت الخادمة :

ــ وما الذي كانت تفعله الانسة .. لو كانت مكانه ؟

لم تصدر عني أو عن فرانز أية حركة ، ولم يدر في ذهن ماريا انه كان يجدر بها الا توجه هذا السؤال الى كاميل ، بل وان لا تروى قصة كليمان .

لكن كاميل راحت تضحك في طلاقة ، ثم قالت :

ــ ما الذي كنت سأفعله ؟ هل سمعت يا أماه .. هذا أمر عجيب . ماكنت سأفعله أنا ؟ هاهو :

وتريثت هنيهة ، ثم مضت تقول :

ــ انني اعرف جيدا ماكنت سأفعله .

واخذت تتفرس فينا الواحد بعد الاخرى ، ثم استطردت تقول :

ــ كيف انه لا أنت ياماريا ، ولا أنت يا أماه ، ولا أنت يا فرانز ، لم يلتبد بأي منكم الفضول لسؤالي عن هذا الذي كنت سأفعله ؟ ان احدا منكم لا يفتح فمه :

وتناهى الى صوت فرانز جافا وهو يتمتم :

ــ يالها من ملاحظة غريبة !

ولم يبد على كاميل أنها قد تنبهت الى ماقال ، وكان واضحا انها تسخر أشد ما تكون السخرية .

قالت :

ــ ماذا هناك يا أماه ؟

واستطعت اخيرا ان أقول :

ــ وما الذى كنت تفعلينه ؟

ــ أوه .. أخيرا . لا بأس .. ربما أكون قد تسرعت اكثر مما يجب الان ، عندما قلت أننى اعرف ما سأفعله . والحقيقة هى اننى لا أعرف ، فان ذلك يتوقف على اشياء كثيرة . وعلى اى حال ، فان هناك أمرا أنا على ثقة منه . هو ان صحف اليوم التالى سوف تتحدث عما أفعله ، وأؤكد لكما انها ستخصص له مكانا يعادل المكان الذى تخصصه للبيان الحربى .

وفى صوت منخفض مكتوم ، أردفت موجهة الحديث هذه المرة إلى نفسها :

ــ ولن أقيم اعتبارا لاى شىء !



انقضت فترة لم يسمع خلالها الا صوت الساعة الكبيرة ، ثم قالت كاميل بأقصى ما يمكن من عدم المبالاة !

ــ لقد كان فرانز على حق ، فهذا الحديث لا أول له ولا آخر ، فلنتحدث فى شىء مختلف . وبهذه

المناسبة ، هل ذهبت اليوم يا أماه الى الموثق كما كنت تنوين ؟

قلت فى ضعف :

— لقد ذهبت اليه .

— وأنا أراهن على أنه لم يكن هناك .

— بل كان هناك .

— اذن فقد اجتمعت به ؟

— لم أتمكن من ذلك ، فقد كان مريضا ، يشكو من حمى حادة .

وانفرجت شفتا كاميل ، وقالت :

— لقد كنت على ثقة من ذلك .

— وكيف كنت على ثقة ؟ اعتقد انه لا يد لى فى اصابته بتلك الحمى .

— لا تغضبى يا أماه ، لكم تغيرت طباعك ! ولكم تغيرت ! لست أنت التى أوجه اليها الاتهام ، بل أتهم الصدفة ، الصدفة التى ترتب فى هـذه الايام أمورا غريبة .

وراحت تفكر فى عمق ، ثم مضت تقول :

— اتعرفين على وجه التقريب ماهو الوقت الذى سيستغرقه هذا الموثق فى مرضه ؟

فندت عنى حركة من يجهل ذلك ، فقالت هى :

ـ ليس أمامنا الا ان نغيره .

ـ انه الموثق الذى اتعامل معه منذ عشرة اعوام ولسوف تنظر البلدة الى هذا التغيير نظرة سيئة .

ـ ان فى البلدة اشياء اخرى تنظر اليها نظرة أسوأ من ذلك . هل يدور فى ذهنك انهم لا يتهامسون عنا ؟

اربد وجهى ، بينما استطردت تقول :

ـ أجل .. بشأنى وبشأن فرانز بطبيعة الحال . فمنذ بضعة أيام ، همست احدى النساء عند مرورى قائلة .. هؤلاء الناس يخطئون كثيرا بتأخير زواجهم . فالزواج اذا تأخر .. لن يتم قط . وكل هذا ليس له من هدف الا لتذكيرك يا أماه بشىء واحد ، هو أنه تيعين علينا ان نغادر [ماجلون] فى أول نوفمبر ...

وتريثت برهة ، ثم مضت تقول :

ـ لسوف يكون من بواعث السخرية انك أعلنت في البداية اننا جئنا الى هنا لكى نتزوج ، ثم نعود بغير ان نتم اجراء واحدا من مراسم هذا الزواج ، حتى ذلك الاجراء الذى كنت اعتقد بسذاجتى انه أبسطها جميعا . والان .. هل تريدين ان أتولى بنفسى موضوع الموثق ؟ لقد استطعت انهاء أوراق فرانز ، وفضلا عن ذلك فاننى على استعداد للتجاوز عن كل ذلك ، وان أتزوج بغير عقد فى الكنيسة ، فاننا نثق فى بعضنا البعض .. أليس كذلك ؟ اننى يا أماه وريثتك الشرعية فلماذا كل هذه الاجراءات ؟ هذا الا اذا كانت لديك النية للزواج مرة أخرى ...

قلت :

ــ هل تعطيننى مهلة الى الغد يا كاميل ؟.

تطلعت الى فى ذهول ، ثم احنت رأسها دليلا على الموافقة .

***

أما أنا فكنت أفكر :

ــ هذه هى النهاية .. لقد انتهى حقا كل شىء ..

الفصل الرابع عشر

لم يغمض لى جفن طوال الليل ، واستطعت فى أثناء ذلك أن ارتب استخدام الزمن فى اليوم التالى .

كان الموقف الذى اتخذته كاميل ، وتلميحاتها التى لم تكشف منها الا قليلا ، ما أكد لى الشكوك التى ثارت فى نفسى عشية هذا اليوم ، وهو أننا نسير فى اتجاه كارثة ، أو فى اتجاه فضيحة على الاقل .

لذلك فان الوقت قد حان للخروج من الحلم الذى كنت قد استسلمت له تدريجيا .

ونهضت مبكرة جدا فى الصباح ، ولم يكن فرانز أو كاميل قد خرجا من غرفتيهما ، عندما اتجهت الى المدينة سيرا على الاقدام ، فوصلت اليها حوالى الساعة التاسعة . كان أول ما قمت به ان ذهبت الى المركز وكان أمين المدينة ينتظر زيارتى منذ وقت طويل .

فقد كنت على علم بالاجراءات المطلوبة ، اعلان يلصق على واجهة المركز لمدة اسبوعين على الأقل ، لتلقى اى طلب يعترض على الزواج .

همست وأنا اشعر بالسعادة ، بالرغم مما بى من اسى :

ــ اننى أود ان يكون فى هذه المهلة ثلاثة أحاد ...

فأجاب الامين :

ــ اننا اليوم الاربعاء ، ويمكن اتمام الزواج فى نهاية الخمسة عشر يوما ، أى يوم الخميس ...

قلت :

ــ كلا .. فلنجعله يوم الاحد التالى .

كنت أسعى لكسب يومين أكثر . وقال الامين :

ــ فليكن .. سوف اسجل ذلك . هل اتفقت مع القسيس على الموعد ؟

ــ سوف اقابله بعد خروجى من هنا .

ــ اتفقنا ياسيدتى . اذن فاننى فى انتظار شهادات الميلاد لكى اتخذ اجراءات الاعلان .

ــ سوف احضرها لك بنفسى غدا ، المهم هو أننا قد اتفقنا بشأن الموعد .

ــ لقد اتفقنا عليه .

كانت العادة هى ان يجرى الاعلان عن الزواج ثلاث مرات متتالية ، بواقع مرة كل يوم احد ، غير انه كان فى الامكان اختصار اثنين منها . ولم يقم القسيس أية عقبات فى سبيل ذلك ، ولا فى سبيل اتمام الزواج بل انه اخذ يقدم الى الحلول المكنة .

قال :

ــ ان خطيب الانسة كاميل كاثوليكى المذهب .. اليس كذلك ؟

نعم ياسيدى القس .

ـــ لقد نسيت أننى قد لمحته مـــرة أو مرتين وهـــو يحضر الصلاة معها .. هل سيعترف ؟

ـــ هذا ما أرجوه .

ـــ حاولى اذن ان تبعثى به الى عشية يوم الزواج ان يومهم سيكون يومى ، الا انه يحسن ان تسبق المراسم الدينية حفل الزواج بأقصر مدة ممكنة .

واستقبلنى الموثق فى ركن الى جانب المدفأة ، واذا كنت قد تمنيت ان يحدث تأخير من ناحيته ، فان هـــذه الامنية سرعان ما تبددت . لقد بدا ان الجميع يتبارون فى المجاملة .

وقال الموثق :

ـــ اية عراقيل هـــذه التى تتصورينها يا سيدتى ، طالما ان الجميع ليس لديهم أى اعتراض ؟ ان تقييم حساب الوصـــاية ، وكذلك عملية الجـــرد من أبسط الاجراءات . هل تقولين ان الخطيبين ينويان الزواج وفقا للتعاليم التقليدية ؟

ـــ أجل .

ـــ أذن فسوف يصلك منذ يوم الاثنين القادم مشروع العقد ، وانا تحت تصرفك المطلق من أجل التوقيع ، سواء كان ذلك هنا ، أو فى [ماجلون] .

كان حلقى من الجفاف مما وجدت معه صعوبة فى الاعراب له عن شكرى ، وذهبت افكارى الى رجال الاعمال الذين يزعم البعض انهم لا يقصدون رأسا الى أهدافهم .

وكانت الساعة لا تزال الحادية عشرة والنصف ، وقـــد انتهت كل تلك الاجـــراءات ، التى لم أكن قد استكملتها فى مدى شهرين .

والان كان على ان اعود مرة اخرى الى هناك ، لكى اواجه كاميل ، وأواجه فرانز . لم يكن ذلك فى مقدورى ، انما أنا فى حاجة الى ان انفرد بنفسى .

ان كل شىء قد تم بشأن كاميل ، ولم يعد لها ان تشكو . أما هو ، فيتعين ان اتحدث معه أولا ، وان أشرح له الامر . لكن انفرادى به ، لم يكن يترك لى شيئا من الشجاعة ، ثم ان الذى أهم بعمله كان يبعث فى احساسا بالهلع .

ومر بى احد الفلاحين الذين تقع الارض التى يستأجرونها الى جوارنا فى عربته ، فرجوته أن يخطرهم فى [ماجلون] ان هناك ما يستبقينى فى المدينة ، وانني سأتناول غدائى فيها ، ولن اعود الا فى ساعة متأخرة من بعد الظهر .

وقابلت عددا من الناس استوقفونى ، وشعرت ببهجة مريرة وأنا أنهى اليهم نبأ زواج كاميل . كانوا يهنئوننى ، فأرد على التهنئة مبتسمة ، ولكن قواى كانت بعد ذلك تخوننى .

ان المدينة التى وقعت فيها هذه الاحداث يشرف عليها تل يرتفع حوالى مائتى متر ، ولم يبق من القصر الذى كان يتوجه فى الماضى سوى برجين ، هما برجسا سان لوران ، ولم تكن منحدراته او المسالك المؤدية اليها ليطرقها الا قطعان الماعز .

وقد عمدت الى تسلق هذه المنحدرات .

كانت قدماى تنزلقان فوق الأحجار الملساء ، فتبلل صدغاى بالعرق . فما الذى كان يدفعنى الى ان افرض على جسدى مثل هذه التجربة التى لم تكن الا

لتضنيه ، فى الوقت الذى كنت أوشك فيه ان احتاج الى سائر قواى ؟

لقد كنت عاجزة عن ادراك هذا السبب ، غير اننى كنت أمضى فى طـريقى ، كما يفعل الذى يسـير فى نومه .

وعندما وصلت الى جـوار الجـدران المتهدمة ، جلست فوق حجر ضخم ، واسندت يدى فوق ركبتى ، ورحت اتطلع امامى فى شىء من البله .

كانت المدينة تمتد تحت اقدامى ، أشبه ما تكون بلعب الاطفال . فها هو الشاطىء تقوم عليه جسور دقيقة ، وهناك الميدان الصغير ، وفى وسطه تمثال لاحد الضباط العظام بدا لى كأنه جندى صغير من الرصاص . وتلك قطع صغيرة تتحرك ، هى السيارات التى تسير فى بطء وعدم انتظام ، وهؤلاء هم الناس وقد بدوا صغار الحجم يقتربون من بعضهم ويتفرقون كما يفعل النمل الذى انهمك فى العمل .

وساءلت نفسى عما يحملهم على ان يتحركوا بهذه السرعة ، فى نفس الوقت الذى وقعت أنظارى فيه هناك الى اليمين ، عند حافة الريف والمنازل الاخيرة على المقابر .

كانت هناك بعض أشجار الصنوبر ، وبعض الجدران الصغيرة ، وبعض الطـرق الصغيرة المستقيمة ، ثم المقابر الصغيرة البيضاء والسوداء . وقد بدا كل ذلك ، كما لو كان رقعة للدومينو .

وفى الصف قبل الاخير ، فى الركن الايمن ، كانت تقوم مقبرة اسرتى . وهناك ترقد جدتى المولدة ،

وهنـــاك أمى ، وهنـــاك أبى وزوجى ، لاعبا النرد البائسان .

وهناك ، فى مدى عام أو عشرة اعوام ، ومـــا أهمية ذلك ، ســـوف أكون أنا الاخرى . وما الذى لا يجعلنى أوضع هناك الان ، على الفور ؟ ان ذلك سوف يسوى الامور كلها ، على اقل تقدير .

وأدرت رأسى ، وأخذت اتطلع حولى ، على بعد بضعة امتار فقط ، تقوم الكتلة الضخمة لاحد البرجين لقد صعدت ذات يوم فوق هذا البرج ، وكان ذلك منذ وقت بعيد ، قبل ان تولد كاميل . فهناك باب ضخم منخفض ، وسلم لا نهاية لدرجاته يصعد ملتفا داخـــل جدران هائلة الحجم يخيم عليها الظلام .

وفجأة ، على ارتفاع مائتى متر من الارض ، يظهر ضوء النهار ، ويهب النسيم العليل ، وتبدو السحب الزرقاء .

وعند ذلك لن يكون هناك سوى ان يغمض المرء عينيه ، وان يتقدم اربع أو خمس خطوات ، وربما ست ثم ينتهى كل شىء بالنسبة لهذا الجسد البائس ، وربما كذلك لهذه الروح البائسة هى الاخرى ...

ينتهى !

ارتعدت طويلا .

ان البعض يروى ، سواء فى الكتب أو فى الحياة ، كيف انهم عدلوا عن فكرة الانتحار التى راودتهم ، اما نتيجة لانهم تذكروا اسراتهم ، أو احتراما لانفسهم ، أو لاسباب اخرى .

غير اننى اعترف ، واســـفاه ، ان ما اثنـــانى عن

الانتحار هو الخوف ، الخوف وحده هو الذى استولى على فى هذه اللحظة ، فجعلنى اتراجع فى مهانة وضآلة شان .

وبين الوقت والاخر ، كان صوت احدى الساعات يرتفع ، لينبئنى بمرور الزمن ، الذى كنت أحس تارة انه يمـــر فى سرعة ، وتارة اخـــرى يبدو لى كأنه لا ينقضى قط .

ودقت الساعة الثالثة ، ثم الرابعة ، والخامسة . لقد حان الوقت للمضى من هنا ، ويتعين على ان أعود الى البيت .

وعندما عدت الى الفيلا كانت الســـاعة السادسة والنصف ، وهو الوقت الذى يذهب فيه فرانز أو كاميل لبحث عن البريد . ومن بعيد ، لمحت فرانز واقفا على الشرفة ، وكان مستندا بمرفقيه على الجدار المحيط بهـــا .

وفى نفس اللحظة سمعت صوت السيارة ، وكانت كاميل على وشك اخراجها للذهاب الى مكتب البريد . قالت :

ـــ مرحبا يا أماه .

ـــ مرحبا .

وصعدت مسرعة الى غرفتى .

كان الليل قد انتشر ، وصوت السيارة آخـــذ فى الابتعاد على الطريق .

وتشددت ، فان اللحظة الحاسمة فى حياتى قد جاءت . ان هذا المشهد قد لا يدوم الا ربع الساعة ، وهو الوقت الذى يكفى لكى تذهب كاميل الى مكتب البريد ثم تعود ...

وانفتح باب غرفتي ، ودلفت قامة فرانز الطويلة فى الظلام .



قال :

ـ ماذا هناك ؟

كان صوته قد تبدل ، وأصبح اجش منخفضا . ولم أرد عليه ، فعاد يقول :

ـ ماذا هناك ؟

واحتوانى بين ذراعيه ، وقال للمرة الثالثة :

ـ ماذا هناك ؟ اننى لا أفهم شيئا ، ان هذا لمن الجنون ، ان تتركينى معها طول النهار بعد ماحدث بالامس ، مع احتمال ... ان هذا لمن الجنون . ولكن ماذا بك ؟ يجب ان تجيبى .. يجب ..

انطلقت منى صيحة :

ـ فرانز .. لقد انتهى كل شيء .

تراجع الى الوراء ، فسقطت فى المقعد ، ثم اسندت رأسى الى المسند ، وانخرطت فى البكاء .

قال :

ـ انتهى ؟ كيف ؟ اننى لا أفهم شيئا .

ـ اننى قادمة من المدينة ، وقد قمت بكل ما كان يجب ان أقوم به ، وقد تم تحديد الموعد ، وغدا سوف ينشر الاعلان ، ويجرى الزواج يوم ٢٧ اكتوبر ، أى بعد خمسة عشر يوما .

ـ الزواج ؟ زواجى من كاميل ؟

ـ أجل .

ان الصرخة التى انطلقت منه لن تزول من أذنى قط

لقد كانت انينا ينبعث من مظلوم ، اكثر منها هدير رجل يزأر .

واحتوانى مرة أخرى ، ونهضت بدورى مدفوعة بشعور عنيف يفوق طاقة البشر . لقد كنت حتى هذه اللحظة اعتقد اننى وحـدى التى اعطى كل شىء ، ولكننى ادركت الان وكلى نشوة وذهول من الفرح ، ان فرانز يحبنى .

وأخذ هو يذهب ويجىء فى الغرفة ، ويدور فيها كما يفعل الحيوان فى القفص ، بغير ان يعبأ اذا كان الصياح الذى ينطلق منه مسموعا فى الخارج .

وأخيرا ترامى على ركبتى ، وأخـذ يضغط على جسدى ، وعند ذلك أحسست كما لم أحس قبل ذلك قط بقوته ، وكذلك بضعفه .

قال :

ـ كلا .. كلا .. هذا مستحيل .. لن يحدث هذا قط .

لم احاول الانفلات منه ، فقد كنت أعرف ان هذا هو العناق الاخير . لقد سكبت طول النهار دموعا من الدم ، وكنت على ثقة من اننى اديت واجبى الى النهاية الامر الذى يبيح لى الان ان انعم بغير ظل من الندم ، بلحظة هناء وحرقة والم .

ومضى هو يقول :

ـ لن يحدث هذا قط .

كانت رأسى منطرحة الى الوراء وشعرت بيديه فوق جسدى بصورة مباشرة ، كما لو كان يعلم انه قد اصبح عاريا .

وتحدثنا طويلا ، وفم كل منا ملتصق بفم الاخـــر ، وتبادلنا من القبل أكثر مما تبادلنا من كلمات . لقد زال وقت الحياء الكاذب ، وجاءت اللحظة التى نقول فيها ونفعل كل شيء .

اننى اروى كل شيء ، ولا اخفى شيئا ، ولا اتظاهر بشيء .

قال :

ــ هذا مستحيل .. هذا مستحيل !

ــ انه ليس مستحيلا .. انه مقطوع به . ففى اليوم السابع والعشرين من اكتوبر ، سوف يكون كل شيء قد انتهى يا فرانز .

ــ ولكن هذا أمر مريع ، ان هذا من الاجرام . أجل، انه من الاجرام . يجب ان تفهمينى جيدا ، وان تدركى اننى لا استطيع ان احبها قط ، وبأننى لم اعد احبها منذ اليوم ...

ــ صه يا فرانز .. صه !

كنت اتحسس ذلك الجبين واقبله فى جنون ، وكان هو الان الذى يتخلص من عناقى ، لكى يعود الى الصياح :

ــ كلا مرة اخرى ، فان ذلك سيكون مريعا ، لابد ان هناك شيئا يمكن عمله ، او وسيلة ...

ــ ليس هناك شيء من ذلك يا فرانز .

ورحت الصق شفتى بشفتيه ، وانا اكرر له :

ــ ليس هناك من شيء ، حتى اذا اعادت لنا كاميل حريتنا ، وفضلا عن ذلك فاننى اعرفها ، اننا نعرفها ، وهى لن تفعله قط .

ــ اذن .. ماذا يجب علينا ان نفعل ؟

كان صوته يزداد انخفاضا وضياعا .

قلت :
ــ ما الذى يتعين علينا ان نفعله يافرانز ؟ وهل ادرى انا ذلك ؟
قد يتعين .. كلا .. كــلا .. لا يتعين شىء على الاطلاق .
وفى هذه اللحظة بالذات ، تردد صوت بوق السيارة، ثم اتضح دويها .
كانت كاميل قد عادت .
ــ لا يتعين شىء على الاطلاق يا فرانز .. لقد انتهى الامر .. فالوداع .
كنا نصغى الى كاميل الان وهى تتحدث الى ماريا فوق الشرفة ، فترى فى اى وضع سوف تجدنا ؟
لم يكن مصباح غرفتى مضيئا ، ولكن ما الذى تفعله بى الان الشكوك او التلميحات او التهديد ! وماذا يطلب منى اكثر من ذلك الذى صنعت ؟
من لى بتقبيل هاتين العينين للمرة الاخيرة ، قبل ان تختفيا من مخيلتى الى الابد !



لم نتبادل كلمة واحدة خلال تناول الطعام ، وكنت اشعر ان الفتور الساخر الذى تصطنعه كاميل ، انما ينطوى على احساس منها بالقلق .
وكنت عاجزة عن النظر ناحية فرانز ، وراحت ماريا الصغيرة تقوم على خدمتنا فى كآبة وصمت ، وهى تسير على اطراف اصابعها .
وما كادت تضع الحلوى على المائدة ، حتى نهضت كاميل فجأة ومضت خارجة ، فلم استطع الا ان افعل مثلها .

وظللت حوالى نصف الساعة فى غرفتى ، ثم قصدت الى غرفة كاميل ، وبغير ان اطرق بابها دخلت .

كانت تهم بأن تبدأ عملها ، وكان شعرها الاشــقر مسترسلا فوق كتفيها ، وعندما دخلت ، قفزت مرتعدة .

اواه .. يا لابنتى المسكينة .. يالابنتى الصغيرة الحبيبة .. التى لم تجد الوقت لكى تتظاهر بالتجلد والتماسك .

وفوق المائدة الصغيرة ، رأيت منديلا مبللا بالدموع، ومنذ ذلك اليوم ، لم اتوقف قط عن التفكير فى هــذا المشهد ، ولكننى فى تلك اللحظة ، واعترف وكلى شعور بالعار ، لم اتأثر .

قلت لها :

ــ لعلك تعرفين كما ارجو ما الذي استطعت ان اصنعه اليوم فى المدينة . لقد اعد كل شيء ، ولسوف تتزوجان فى اليوم السابع والعشرين .

تفرست هى فى ، ورأيت شفتيها ترتعدان ، وفى حدقتيها بدت بعض الدموع .

قالت فى صوت منخفض :

ــ اصفحى عنى !

وفى نفس الوقت اتت بحركة لكى تتناول يدى ، فتظاهرت بعدم ادراك ما تقصد . وعندما افكر فى انه كان فى استطاعتى ان القى بنفسى بين ذراعيها ، وان تلك اللحظة من الحنان كان يمكن ان تنقذ كل شيء ، فاننى لا استطيع ان اصفح عن نفسى قط .

قلت :

ــ اسعدت مساء .

وكانت هي واقفة وسط الغرفة ، وذراعاها ممتدتان نحوى ، كما لو كانت تتوسل الى وتسترحمنى . ولقد رأيتها بالغة الصغر ، متناهية الضـآلة ، تبعث على الشفقة ، واقفة كالطفلة الصغيرة .

أجل .. لقد كانت طفلة صغيرة ، واستطعت ان اسمعها وهى تقول :

ـ اماه .. اماه .. لماذا نحن هكذا تعيستان !

الفصل الخامس عشر

ترى كيف امكنني ، خلال هذه الايام الاخيرة ، ان تبلغ بي القسوة الى حد الا استجيب لاى من توسلات كاميل ؟

هذا هو ما كنت استطيع ان اساله لنفسي ، لو لم اكن قد احتفظت في نوع من الولاء المفزع ، بذكرى الهول الذى شعرت به خلال هذا الاسبوع .

كنت قد هزمت ، ولكنني لم أكن قد استسلمت بعد . فقد كان جسدى وقلبي ودمى تتمرد على الظلم الذى نزل بي ، ولم اكن وصلت الى حد كراهية ابنتى ، ولكنني لم أكن استطيع ان امنع نفسي من النظر اليها باعتبارها اداة لمصير جائر .

لقد منحت كل مالدى ، فهل كان على زيادة على ذلك ، ان اتقبل دمارى وضياعى وعلى فمى ابتسامة ، حتى لاتشعر هى بمجرد شىء من الندم او توبيخ الضمير ؟

لا شك في انه كان يتعين على ان افعل ، ولكنني لم اتمكن من ذلك . ولسوف يكون عقابى هـو اننى لن استطيع قط التخلص من شبح كاميل ، التى رفضت

الاستماع الى توسلاتها الصامتة ، وان اجفف آخر عبراتها .

فعندما يقرر المرء ان يضحى بنفسه ، فانه لا ينبغى له ان يكتفى بانصاف الامور .

اما فرانز ، فان سلوكه قد اصبح بالنسبة لى لغزا من الالغاز ، فبعد ذلك المشهد العنيف الذى وصفته ، وبعد احتجاج بالاخلاص والحب كان بدوره محموما ، اذا به يغرق فى نوع من الفتور والجمود ، او هو نوع من اللامبالاة ، الذى لم يكن ينطوى على شعور حتى بالكآبة .

ذلك انه لم يكتف بمجرد انه لم يعد يسعى لكى ينفرد بى ، بل انه لم يكن يترك اى فرصة تلوح له للبقاء مع كاميل . انه لم يكن يختلق هذه الفرص ، ولكنها عندما كانت تلوح ، كان يجد فى نفسه على ما يبدو ، القدرة على ان يتحدث اليها بنفس السهولة التى كان يفعل بها ذلك من قبل .

وفى مرات كثيرة ، سواء امامى او امام ماريا ، كان يتحدث معها عن الصورة التى كان ينوى ان ينظم بها فى باريس بعض التفاصيل الخاصة بحياتهما .

ولقد كانت كاميل هى التى تحول مجرى هذا الحديث، وهى تنظر الى بعينين امتلأتا بالالم والعذاب .

ترى اى الوسائل هى التى لا تلجأ اليها ، فى محاولة تبرير سعادتها البائسة ، لقد كانت هى التى عملت اكثر من مرة على الانزواء والاختفاء ، وهى التى سعت بشكل واضح لكى تتيح لنا فرصة الانفراد ببعضنا .

ولكنه كان يتنبه لذلك دائما ، فيجد عذرا لينسحب قبل اية واحدة منا .

هذا هو الهجر والنسيان .. فهل هو امر ممكن ؟
لم يقم فرانز اية عقبة فى سبيل الانتهاء من آخر الاجراءات الخاصة بالزواج، منذ صبيحة اليوم التالى . وقد ذهب ومعه كاميل الى دار العمدة، وتلقيت فى نفس اليوم التهانى من اناس رأوهما فى المدينة ، وقالوا انهما كانا فى غاية السعادة .

وقال البعض :

ـــ لقد كان من المؤسف حقا ، ياسيدتى العزيزة ، تأخير زواج شابين مثلهما طويلا ، وهما على مثل هذا الوفاق . وانت أيضا لابد ان تكونى فى غاية السعادة !

وقد وجد فرانز ان اعترافه فى الكنيسة امر طبيعى، وفى يوم الاثنين التالى صحبته كما تم الاتفاق من قبل ، الى الموثق من اجل التوقيع على العقد ، وهو احتفال كئيب بالنسبة لاثنين يوشكان ان يوحد بينهما الزواج ، فلا يسمعان فيه من حديث الا عن موت احدهما .

وقد نص فى ذلك العقد على انه فى حالة وفاةفرانز، فان ارباحه الناتجة عن اختراعه للسيارة ، سوف تعود الى كاميل .

ولقد رجوت اقدم المستأجرين لدينا ان يكون شاهدا لابنتى ، وقبل الموثق ومساعده ان يكونا شاهدى فرانز .

وظل موعد الزواج محددا لهاليوم السابع والعشرين من شهر اكتوبر ، وبات كل شىء معدا تماما قبل هذا الموعد بعشرة ايام، عندما جاءت ماريا يوم الاثنين الثانى والعشرين ، وكنا حينئذ نوشك على الانتهاء من تناول طعام الافطار ، لكى تقول لى ان امين المركز قد حضر ، وانه يود ان يتحدث معى .

قلت للخادمة :
ــ دعيه يدخل .
وقدم الرجل الطبيب اعتذاراته ، وقال انه جاء قاطعا مسافة الفرسخ التى تفصل بين بيتنا ودار العمدة تحت وابل المطر المنهمر .
امتقع وجه كاميل عندما رأته داخلا ، وكان فرانز منهمكا فى تكسير احدى ثمرات الجوز بسكينة ، ولم يظهر على وجهه اى تعبير .
وحاولت من جانبى ان يجىء صوتى طبيعيا بقدر ما استطيع ، فتساءلت :
ــ هل هناك شىء ياسيدى العزيز ؟
ــ انه اختلاف بسيط فى التوقيت ياسيدتى ، وقد ارسلنى العمدة على وجه السرعة لا خطاركم به ؛ وهو مع ذلك يشعر بمنتهى الاسف . ان زواج السيدوالانسة لا يمكن ان يعقد فى يوم الاثنين المقبل .
ــ وما السبب فى ذلك ؟
ــ لاننا اخطرنا منذ فترة وجيزة ، اى فى هذا الصباح بالذات ، بأن هيئة مراجعة مواليد عام ١٩١٩ سوف تحضر فى هذا اليوم الى مركزنا ، والعمدة مضطرلحضور اجتماعها . حقا ان هناك مساعده ، غير ان قاعة الاحتفالات لن تكون خالية . لذلك فان العمدة قد كلفنى ازاء هذه الظروف ، بأن يطلب منكم ان ...
ــ ان نؤجل الموعد ؟
ــ او ان تقدموه ياسيدتى .. وفقا لرغبتكم . ان جميع ايام هذا الاسبوع تحت تصرفكم ، فيما عدا يوم الاحد . لقد سوينا الامر بالنسبة للاعلان ، ويمكنكم ان تحجزوا يوم الاربعاء .. على سبيل المثال .

ـــ الاربعاء القادم ؟ انه بعد غد !
ـــ او اى يوم غيره ياسيدتى .
ـــ اننى لا اريد افضل من هذا ، ولكنك تدرك اننى لست وحدى التى اقرر ذلك . وعلى هذا ...

اتجهت عيناى التائهتان الى فرانز وكاميل ، فخفضت هذه رأسها . اماهو فلم يظهر عليه اى اضطراب ،وكان متحكما تماما فى صوته وهو يقول :

ـــ من ناحيتى ..فان موعد بعد الغد يناسبنى تماما ، فكل شىء قد اعد .. أليس كذلك ياكاميل ؟
فهمست كاميل وهى تزيد من تخفيض رأسها :
ـــ لا بأس .. لا بأس .
فقلت معترضة :
ـــ قد يكون القس مشغولا ...
ـــ كلا ياسيدتى .. لقد التقيت به وانا فى طريقى الى هنا ، وهو يضع نفسه تحت تصرفكم فى هذا اليوم .
ـــ لقد دعونا الشهود للافطار ، ويتعين ان ...
فقال فرانز :
ـــ لقد قلنا لهم فى الدعوة انه سيكون افطارا بسيطا .
واصبح مستحيلا على ان اعترض اكثر من ذلك ، فقلت وقد اعترانى ضعف شديد :
ـ لا بأس ياسيدى .. لقد اتفقنا على بعد الغد .



لا ينتظر احد منى تحليلا بارعا للساعات التى اعقبت ذلك ، فانها لاتزال ، كلما اجهدت نفسى فى التفكير فيها ، اكثر الساعات اضطرابا فى حياتى .
لقد قضيت بقية ذلك اليوم ، واليوم التالى له فى

القيام بالاشياء الضرورية العاجلة . وكانت ماريا تهرول ذاهبة الى المدينة وعائدة منها ، ولكنها لم تقدم لى الا مساعدة طفيفة .

وكان فى استطاعة كاميل ان تعاوننى ، غير انها لم تجرؤ على مجرد ان تقترح على ذلك . ولا اتحدث هنـا عن فرانز ، الذى لم يكد يظهر الا قليلا ، وفى ساعات تناول الطعام فحسب . لقد لازم غرفته ، ولم يغادرها قط .

وفى صبيحة اليوم الثانى ، ارتنى ماريا منفضـة السجائر التى يستخدمها فى غرفته ، وكانت مليئـة بالاعقاب حتى حافتها ، ولابد انه لم يتوقف عن التدخين على الاطلاق .

كان يتعين ان يتزوجا وقد ارتدى هو السترة العادية، بينما ارتدت كاميل بدورها ثوبا عاديا . ذلك ان الحرب كانت تبيح مثل هذا التسهيل ، وتعفى الازواج من عبء الملابس التقليدية .

اما طعام الافطار الذى يتم فى اليوم التالى، ولايذعى اليه سوى العمـدة والشهود ، فلم يكن يقلقنى فى شىء . لذلك ركزت كل جهدى لكى اقلب البيت رأساعلى عقب ، اذ كان فى حاجة فعلا الى اعادة ترتيبه وتنسيقه . فقد انقضى شهران وانا اهمله ، لانى كنت منغمسة فى التفكير فى نفسى .

وبقدر ما كانت ماريا الصغيرة متحمسة للعمل مخلصة فيه ، فانها لم تكن كافية لكل شىء . وفى خلال هذين اليومين ، اخـذت اصـارع الارهاق والحمى ، ولم اترك فرصة امتنع فيها عن تغطية يدى وثيابى بالغبار .

وبعد ظهر اليوم الثاني وجدت انني انهيت تقريبا مهمتي،

ثم بدأت الاضواء تغيب ، وكان المطر الذى انهمر منـــذ الصباح يزيد من تعاستى ، ويضاعف الصمت الذي خيم على البيت .

من ذا الذى يستطيع ان يتعرف على [ماجلـــون] الذى كان منذ شهر واحد يتلألأ ، خلال الخريف الجميل، فى هذا البيت الصامت الكئيب ؟

لذلك كان على ان اعمل لازالة هذه الكآبة ، حتى لا يضيع جهدى فى هذين اليومين هباء . وهنا خطر لى ان انزع الستائر الثقيلة عن قاعة الطعام ، اذ مضى عليها وقت طويل لم يزل عنها الغبار .

سارعت للقيام بذلك ، وعمدت الى نزع ستائر النافذة الاولى ، غير اننى رأيت انه للوصول الى الجزء العلوى منها ، لابد لى من سلم ، اذ عجزت عن ذلك بالرغم من تسلقى فوق احد المقاعد الذى وضعته فوق المائدة .

وكان السلم الوحيد فى [ماجلون] موجــودا فى الجاراج ، الى جانب لوازم الحديقة . ولهذا الجاراج باب داخلى يوصل بالفيلا ، ولما كان المطر ينهمر ، فقد رأيت الذهاب اليه عن طريق هذا الباب الداخلى .

وعندما هممت بوضع يدى على مقبض الباب الزجاجى، اذا بى اتوقف عن ادارتها ، اذ رأيت فرانز داخــل الجاراج .

كان جاثيا على ركبتيه امام غطاء السيارة ، وفى ضوء مصباح صغير راح يعمل فى اصلاح شىء ما فى الاجهزة الميكانيكية .وكان ظهره متجها ناحيتى ويستحيل عليه رؤيتى .

وهكذا اجلت الحصول على السلم ، وقمت بنصف دورة على اطراف اصابعى ، وعدت ادراجى . فقـــد

كنت حريصة على عدم مضايقته في عمله ، وعلى وجه خاص على عدم خلق فرصة لاثارة حديث فى مثل هذا المكان ، طالما انه كان يتجنب مثل هذا الحديث منذ بضعة ايام .

وحوالى الساعة السادسة ، وبينما كنت اخرج من احد الادراج ادوات المائدة الفضية ، سمعت خطوات فرانز على الدرج ، اذ كان يهبط من غرفته . وقدفوجئت برؤيته يدلف الى قاعة الطعام .

كنا نتناول الشاى فى هذه القاعة منذ حال سوء الجو والمطر دون ان نفعل ذلك فى الشرفة ، غير انه كانت قد انقضت بضعة ايام ، وبسبب الاحداث التى نعرفها ، لم نكن ننتهز فرصة مثل هذه لنجتمع معا .

قال فرانز وهو يفرك يديه :

ــ لقد تغلب على البرد فى الطابق العلوى ، ويطيب لى تناول قدح من الشاى هنا ، فيا له من جو !

كانت الريح تضرب زجاج النافذة ، والظلام يحيط البيت من كل مكان ، فأومأت باشـارة الى مـاريا ، وسرعان ما احضرت الاقداح وابريق الشاى ووضعتها فوق المائدة .

وقال :

ــ أين كاميل ؟ الا يخطرها احد ؟

وبينما اخذتاضع علىالمائدة الاغطيةالتى ستستخدم صباح الغد فى طعام الافطار ، اذا بكاميل التى ذهبت للبحث عنها تدخل القاعة . كانت تبتسم فى خوف ، كما لو كانت تتسول نظرة أو كلمة ، فتظاهرت بأنى لا أفطن الى ذلك .

وتحدث الاثنان فيما بينهما اثناء تناولهما الشاي ،

ولست اذكر موضوع حديثهما ، اذ كان حول امور لا اهمية لها .

ودقت الساعة السادسة والنصف ، وعند ذلك نهضت كاميل واقفة ، فسألها فرانز :

ـــ الى اين انت ذاهبة ؟

ـــ سأضع معطفى الواقى من المطر .

ـــ كيف ذلك ؟ انك لا تنوين الذهاب الى مكتب البريد فى هذا الجو المكفهر بطبيعة الحال !

ـــ لابد من ذلك ، لاننى لن اذهب فى الغالب مساء الغد ، واريد ان ارجو الساعى لكى يرسل الى البريد مع ابن اخيه الصغير الذى يمتلك دراجة .

ـــ هل تريدين ان اذهب بدلا منك ؟

كان قد مر وقت طويل لم يعرض عليها هذا الاقتراح ، وقد احسست ان اهتمامه هذا جعل كاميل تبدو فى غاية السعادة ، اذ اجابته فى ابتهاج :

ـــ كلا ، اننى امنعك حتى من مجرد المجىء معى . وسوف ننظر فى ذلك عندما تشفى تماما ، وتدخن اقل مما تفعل حاليا . الى اللقاء يا اماه .

كانت لاتزال هناك ، واقفةفىمكانها عند عتبة الباب، وقد تهيأت للاختفاء فى الليل .

وعند ذلك هتفت اناديها فى همس :

ـــ كاميل .. كاميل !

فقالت :

ـــ هل لديك شىء تحبين ان أقوم به لك يا اماه ؟

ـــ كلا .. لا شىء ..

وعدت الى ادواتى الفضية ، ولم ارها حتى وهى خارجة .

وفى الخارج ارتفع صوت محرك السيارة الـذى ادارته ، وبعد ذلك عندما غاب هذا الصوت مبتعدا فى الطريق ، عاد صوت سقوط المطر الحاد رتيبا .

وذهب فرانز فجلس امام المدفأة ، فاختلست نظرة ناحيته ، واذا به يضع مرفقيه على ركبتيه ، وذقنه بين يديه ، ويظل فى مكانه بلا حركة . كان يبدو انه يسبح فى احلامه .

وفى هذه الاثناء ، تدحرجت جمرة ملتهبة،وتفتتت فوق الارض الى قطع صغيرة من الفحم المتوهج ، انتشرت بدورها فى المكان .

وسارعت ماريا لتوقى الخطر ، وسمعتها تصـيح متعجبة :

ـ انظرى هنا ياسيدتى !

ـ ماذا بك ؟

ـ انظرى الى حذاء سيدى .. فى اى حـالة من القذارة .

قال فرانز :

ـ لعمرى ان هذا صحيح .

وفى نفس الوقت مد ساقه الى الامام ، واذا بحذائه يبدو وقد تلطخ ببقع كبيرة من الزيت .

قال :

ـ ترى من اين جاءت هذه القذارة ؟

ـ هل يريد سيدى ان انظفه له ؟

ـ كلا .. ان الامر لا يستحق .. والحذاء نفسـه

لم يعد يساوى شيئا ..

* * *

وانسحبت الخادمة الصغيرة ...

وبعد نصف ساعة عادت لكى تضع غطاء المائدة ، ثم تركتنا مرة اخرى . وخيل الى فى هذه اللحظة ان فرانز يتنهد .

وعندما دقت الساعة دقة واحدة ، ظهرت ماريا فى قاعة الطعام وقالت :

ـــ سيدتى .. لقد بلغت الساعة الثامنة والنصف ، والانسة لم تعد بعد ! .. هل ينبغى مع ذلك ان اقدم العشاء ؟

الفصل السادس عشر

لم يهتز فرانز ، الذى كان لايزال مطرقا برأسه امام المدفأة ، فقلت للخادمة :

ـــ عليك ان تنتظرى قليلا قبل تقديم الطعام .

فهل كانت ماريا الصغيرة تشعر بقرب هبوب رياح الكارثة ؟ انها بدلا من ان تعود الى المطبخ ، ظلت مستندة الى جانب الباب ، بغير ان تتوقف عن النظر الى بعينين مليئتين بالاسى .

وذهبت الى احدى النوافذ وفتحتها ، ثم اضطررت لاغلاقها على الفور . كانت العاصفة قد دخلت الغرفة تزأر ، فدفعت المصباح المعلق بقوة وجعلته يصطدم بأحد الاعمدة ، مما احدث رنينا مزعجا .

وظللنا نحن الثلاثة بدون حراك ، وقد جلس فرانز مكانه ، بينما وقفت انا وماريا ، الى ان دقت الساعة الربع الاخير قبل الساعة التاسعة .

وعند ذلك سرت نحو فرانز ، وفى حركة لم احاول التلطيف من حدتها ، جذبته من كتفه وقلت له :

ـــ هيا بنا !

ولم يستدر ناحيتى ، فاضطررته الى ذلك ، وانفلت وجهه من بين يديه . كان شاحبا مصفر اللون .

قلت :

ـــهيا بنـــا !

واجاب متلعثما :

ـــ ماذا ؟

ـــ لا تسمعنى ؟ هيا بنا .

أما ماريا فقد سمعت ، وكانت واقفة بالفعل الى جوارى ، بعد ان احضرت فى لمح البصر معطف فرانز الواقى من المطر ، ومعطفى الذى ارتديه كلما تجولت في الحديقة .

وكان فرانز قد نهض ، وقال :

ـــ لقد فهمت ، انك تريدين ان نذهب للقاء كاميل . فهل أنت قلقة عليها ؟ لا داعى للقلق ، ففى الاسبوع الماضى كانت الساعة الثامنة والنصف عندما عادت .. اليس كذلك ياماريا ؟

فقالت الخادمة الصغيرة :

ـــ سيدى .. ان الساعة تقترب من التاسعة .

ـــ التاسعة ؟ اذن فالامر يختلف ، ولابد من الذهاب . ان من المؤكد فى مثل هذا الجو انه كان علينا ان نلح اكثر لاستبقائها .

لقد فعلت كل ما استطعت فعله ، اليس كذلك ؟ ولكن الا تخشين الاصابة بالبرد ؟ ربما كان من الافضل ان

اذهب وحدى .

كنت قد ارتديت معطفى ، فقدمت اليه معطفه . اما ماريا فانها قد توسلت الى قائلة :

ـــ هل تسمح سيدتى لى بأن اذهب معها ؟

ـــ كلا .. عليك ان تبقى هنا ، بل تناولى المصباح ، وسوف تصحبيننا حتى البوابة .

كان الظلام فى الخارج كثيفا ، مما اضـــطرنا الى السير الى جوار حافة السور ، واخذ ضوء المصباح يتراقص على خيوط المياه التى تنهمر ســـــوداء من السماء .

وما كدنا نصل الى الطريق ، حتي اخـــذت اسرع خطاى ، بل اننى كدت اجرى .

ومن ورائى سمعت صوت فرانز الاجش يقول :

ـــ حذار .. فاننا لا نرى شيئا .. هل جننت ؟

وادركنى ، ثم جذبنى من ذراعى ، فدفعته عنى ، وركضت اسرع من ذى قبل . وفجأة توقفت ، ومددت يدى الى الامام وانا اصيح :

ـــ هناك .. انظر .. هناك !

كان الطريق الذى يربط [ماجلون] بالمدينة يحيط به سور انشىء حديثا ، ويطل على سهل ينخفض عنه بما يتراوح بين اربعة امتار وعشرين مترا .

وفى وسط هذا الطريق ، دوران حاد مفاجىء ينحرف الى اليمين ، وفى هذه البقعة بالذات يبلغ اقصى ارتفاع له عن السهل . وتبعد حقول الذرة التي يطل عليها عن

سطحه مالا يقل عن عشرين مترا .

وانني لاذكر انه عندما خرجت للمرة الاولى بالسيارة مع فرانز وكاميل التى كانت تتولى القيادة ، فانها قد فوجئت من حدة هذا الدوران .

ومنذ ذلك اليوم ، فانها اجتازته اكثر من مائة مرة ، ليلا ونهارا . غير انني سمعت فرانز وهو يلومها عدة مرات على انها تعتمد كثيرا على معرفتها لموقع هذا الدوران ، مما لا يجعلها تهدىء سرعة السيارة بما فيه الكفاية وهي تعبره .

حقيا انه هو نفسه لم يكن يضرب لها المثل ، وان عدم مبالاته كانت تعادل، ان لم تكن تزيد، عن استخفاف كاميل .

وعندما اصبحنا على بعد حوالى خمسمائة متر من الدوران ، لم نستطع ان نميز شيئا بعد في الظلام ، ولا نرى تفاصيل الارض . ولكن كيف اشك في انه لم يكن المكان الذى مضيت اشير اليه بيدى الممدودة ؟

ـ هناك !

وامامنا تذبذبت من بعيد فى الظلام ، عدة رءوس من نقط لهب صفراء ، حوالى سبعة او ثمانية . انها مصابيح سيارات او عربات قد توقفت .

وبين الوقت والاخر كان احدهذه المصابيح يختفى، لكى يعود من جديد بعد ان يبتعد الهيكل الذىيمر امامه، والى اليسار ، فى مكان بالغ الانخفاض ، كانت هنـــاك نقطتان مضيئتان تتحركان،وكانت احداهما اكثر وضوحا من الاخرى ، مما يدل على انها احد مصابيح الجيب الكهربائية .

قال فرانز :

ـ فلنستمر فى السير .

كان هو الذى يركض الان ، وقد امسكنى من ذراعى وراح يجذبنى معه . واخذنا معه . واخذنا نتعثر فوق الحصى ، واصبحت الاضواء اكثر وضوحا ، ولم يبق امامنا سوى بضع مئات من الامتار لكى نجتازها ، عندما رأينا ضوءا ينفصل عن الاضواء الاخرى ، فى نفس الوقت الذى سمعنا فيه صوت محرك بدأ يدور .

كانت احدى السيارات تتقدم على الطريق فى اتجاهنا ، ويبدو ان احدهم كان ذاهبا لتبليغ [ماجلون] .

وصاح فرانز :

ـ قف !

وأطاع السائق ، الذى لم يلبث ان قال :

ـ أهذه انت ياسيدتى ؟

عرفت فيه هنرى صاحب الجاراج ، وهو نفسه الذى كان قد ذهب بى منذ ثلاثة اشهر الى المحطة ، يوم وصلت كاميل .

ثلاثة اشهر !

وهبط من سيارته ، فتناولت يده وانا اقول :

ـ هنرى . . يا آلهى ! أتوسل اليك ياهنرى . . ماذا حدث ؟ انها هى . . اليس كذلك ؟

لم يرد على ، وانما راح يتطلع الى فرانز ، بغير ان يجرؤ على ان يشير اليه مجرد اشارة واحدة . لقد كان هو الذى يتعين عليه ان يتحدث معه ، الا اننى لم اترك

ذراعه ، ورحت اقول :

ـــ هنرى .. اتوسل اليك ! الا ترى اذن ...

ولم يعد يستطيع ان يقاوم ، فقال وهو يقبل يدى :

ـــ اواه ياسيدتى .. لقد وددت الا تكونى انت التى التقى بها الان . ياللانسة الصغيرة المسكينة !

وبغير ان تصدر من فرانز كلمة،حول اتجاه السيارة، وساعدنى هنرى على الصعود ، وسرعان ما اصبحنا وسط مجموعة من الظلال كانوا يتحدثون فى صوت منخفض .

كانوا من الفلاحين الذين يعملون فى الاراضى المجاورة، وبعض سكان المدينة . وعندما تعرفوا على ، صمتوا جميعا .

كان الطريق من عند المنحدر قد اقيم عليه ســـور صغير من الحجر ، وقد انفتحت فجوة فى هذا السور عرضها متران ، تشير الى المكان الذى هوت منه سيارة كاميل .

وقفز فرانز من سيارة هنرى ، واخذ يهبط المنحدر . وقد هممت بأن اقتدى به ، ولكن بعض الايدى امتدت وامسكت بى .

هتفت قائلة :

ـــ دعونى .. اريد ان اراها !

وفى هذه اللحظة جاءت سيارة اخرى ، وكان فيها الطبيب الذى ذهب البعض فى اثره لاستدعائه .

كان رجلا متقدما فى العمر ، ضعيف البنية ، فاضطررا

الى ان يدوروا به دورة واسعة لكى يوصلوه الى مكان الحادث ، الذى كان يبدو تحتنا على بعد ثلاثين قدما .

وبقدر ماسمحوا لى ، فاننى اخذت انحنى واتطلع الى اسفل فى الظلام . وكان المصباحان اللذان رأيناهما من بعيد يروحان ويجيئان ، قد توقفا الان عن الحركة، وتركزا على كومة حطام السيارة .

ولم يكن هناك اى صوت ، ولا اية كلمة تخرج من ذلك الثقب المظلم ، ولا اية حركة . ثم خيل الى اننى سمعت شيئا ، انينا او بكاء مكتوبا .

كان فرانز .

وعند ذلك صحت :

ـــ فرانز .. فرانز .. انها على قيد الحياة .. أليس كذلك ؟ هل هى على قيد الحياة ؟

لم اتلق ردا ، كل ما هناك اننى سمعت الى جوارى رجلا لم اميز تقاطيع وجهه يتمتم قائلا :

ـــ ياسيدتى المسكينة .. مافائدة تركها هنا ؟ يجب ان تنقل الى [ماجلون] .

ومرة اخرى حاولت التملص ، ولكن الدائرة المحيطة بى ضاقت على ، وامتدت ايد قوية لتمسك بى فى وقار . ولما عجزت عن الفرار ، تهاويت فى الطين ، ورحت انتحب .



بعد ساعة من ذلك ، وجدت نفسى ممددة على مقعدى الطويل فى البيت ، وقد وضعوه امام مدفأة المطبخ .

وامامى نار تتلظى .

وفى نهاية الغرفة ، وقف فى الظلام جمع كبير ، عرفت من بينهم مستأجر ارضنا ، ورأيت هنرى كذلك ، والرجلين اللذين عاونا فى الصعود بجسد ابنتى الصغيرة الى الطريق . وقد رأيت ثيابهما مبللة بالماء وملطخة بالطين .

هتفت بهم :

— اقتربوا من النار يا اصدقائى .. اقتربوا .

ولكن هؤلاء الناس الطيبين لم يجرأوا على ذلك ، وظلوا فى اماكنهم ، جلوسا فى الناحية الاخرى من المائدة ، وهم يصبون فى صمت زجاجات النبيذ التى احضرت لهم ، لاعادة الدفء الى اجسادهم .

وفى هذه اللحظة دخلت ماريا ، فارتمت على قدمى ، وبللت يدى بدموعها . وقد بذلت جهدا كبيرا لكى اقف على قدمى ، وقلت :

— ماريا .. اننى اريد رؤيتها .

— كلا ياسيدتى .. كلا .

— لماذا تمنعونى من رؤيتها ؟ هل هى بشعة الى هذا الحد ؟ اننى اريد ان اراها مع ذلك .

— ليس الان ياسيدتى .. فيما بعد .

— لقد ماتت .. أليس كذلك ؟ ومع ذلك فلا ينبغى ان تبقى وحدها . لماذا تركتها ؟

— ان السيد فرانز الى جوارها ياسيدتى .. ياللسيد المسكين . انه يحمل على الاشفاق . ولقد ذهب البعض لاحضار اثنتين من راهبات الدير ، وكذلك العمدة

والقس . اين وضعت المفاتيح ياسيدتى ؟

ـــ المفاتيح ؟ وماذا تفعلين بها ؟ واى مفاتيح ؟

ـــ الخاصة بالدولاب الكبير ، الذى توضع فيه الاغطية .

ـــ لقد فهمت .. يا الصغيرة المسكينة .. لست ادرى ياماريا .. ابحثى عنها وسوف تجدينها .

وخرجت ماريا ، فاغمضت عينى منهكة القوى . وظن الفلاحون اننى لا اسمع حديثهم ، فأخذوا يتكلمون معا بصوت هامس ، بينما كانوا يصغون الى شرح صاحب الجاراج لطريقة الحادث .

قال :

ـــ انها كانت تسير بسرعة كبيرة ، وهذا امر مقطوع به ، ولكن ذلك لا يكفى ، فانها قد تصورت ان الدوران لايزال بعيدا ، اذ كانت تعرفه جيدا ، وهذا ايضا امر مفهوم . ولكنها فى ذلك الظلام ، وبسبب المطر ، لم تفطن الى انها عند الدوران ، والدليل على هذا انها لم تضغط على الفرامل ، وهذا انا على ثقة منه . لقد رأيت ذلك فى بصمات العجلات ، وليس هناك مجال للخطأ ، فان الطريق عندما يكون مبتلا يظهر ذلك جيدا . لقد انطلقت راسا مقتحمة السور ، ومن هناك قفزت السيارة فى الفضاء لكى تتحطم فى الهاوية .. ولو كانت هناك اى محاولة للوقوف ، لضغطت على الفرامل .

ـــ هل هبطت الى الحقل لترى بنفسك ؟

ـــ بكل تأكيد ، لقد كنت اول من وصل الى هناك ، بعد ان تنبه احد رعيان المزارع الى وقوع الحادث ، اذ رأى

بعض الاحجار ناقصة من السور ، وكانت فى مكانها من قبل عندما مر عليها منذ قليل . عند ذلك داخله الشك ، فانتظر اول عابر سبيل ، فكنت انا ولوسيان اذ كنا نمر معا . ولقد هبطنا ، واذا بالمسكينة قد انتهت ولا جدوى من عمل اى شىء . اما السيارة فكانت تكاد تكون سليمة ، ولو ان عجلة القيادة قد تحطمت بطبيعة الحال . ان هناك شيئا قد ادهشنى .

— وما هو ؟

— دراسة الفرامل ، فقد كانت مضغوطا عليها الى آخرها ، وربما تكون الصدمة هى التى جعلتها هكذا ، لانه لو كانت الانسة هى التى ضغطت عليها لابطأت السيارة من سيرها ، ولاستطاعت ان تجتاز الدوران .

قال احد المزارعين :

— صه !

ذلك انه بدرت منى حركة لا ارادية نبهتهم الى اننى متيقظة ، فتوقفوا عن الكلام .

وبعد قليل وصلت الراهبتان للسهر على جسد كاميل ، واشعلت ماريا النار فى المدفأة الموضوعة فى غرفتى ، وساعدها المزارعون فى حمل مقعدى الطويل .

لقد كانوا يريدون حملى على ان اخلد الى النوم ، فرفضت ، وظللت اتوسل حتى يسمح لى برؤية كاميل . ولكن ذلك كان بلا جدوى ، وكانت الحراسة التى فرضت على لمنعى من ذلك ، لا تتوقف دقيقة واحدة .

وفيما بين الساعة الرابعة والخامسة اغمضت عينى ، واترك للخيال تصوير هذه الدقائق من النوم المروع . الذى تخلله كابوس ثقيل وحفل بالدموع والنحيب .

وقد خيل الى ان فرانز كان واقفا الى جانبى، فحاولت ان ابعده عنى ، ولكن قوتى لم تسعفنى . وعندما فتحت عينى ، رأيت اننى لم اكن مخطئة .

لقد كان هناك ، انه هو بقامته الطويلة ، ينحنى فوقى ، وكان قد احاط عنقى بذراعه ، واخذ يمطر شـــعرى بقبلاته .

واحسست بدموعه تسيل لامعة، وفى صوت متقطع، لم يتوقف عن تكرار هذه العبارة :

ـ لسوف أوقف حياتي كلها للتخفيف عنك ، حتى يأتى ذلك اليوم ...

وبغير ان ادرى ، تركته يفعل ، واذا بفمه يهبط من جبينى الى وجنتى ، ثم ينزلق الى فمى ويلتصق به . وشعرت ، وقد استولى على الهلع ، اننى ابادله قبلته.

الفصل السابع عشر

كانت عجلة القيادة قد حطمت صدر كاميل ، وقد اكد الطبيب انها قضت نحبها بغير ان تتألم.

وغفوت قليلا ، وفى الصباح فقط حصلت على الموافقة بأن ادخل الى غرفتها ، ولست ادرى كيف احيلت هذه الغرفة المظلمة الى غرفة يدخلها كل هذا الضوء .

كان السرير فى الوسط ، وقد رفع الجانب الاكبر من اثاث الغرفة . لقد تحول كل شيء ، وبدا ان هذا افضل.

والى اليمين والى اليسار ، ركعت كل من الراهبتين الصغيرتين فى هدوء، وراحت تصلى فى صمت. فركعت بدورى عند طرف السرير فى المكان الذى اعد لى ، ورحت اتطلع الى كاميل . انه لامر غريب حقا ان تتطلع والدة الى ولدها الذى مات .

وعند الفجر ، كانت اصغر الراهبتين سنا قد ذهبت الى المدينة ، التى اوصلها اليها هنرى بسيارته ، ثم عادت وقد ملأتها بالزهور . وقد نثرت الورود البيضاء وكذا زهور الكاميليا على سرير كاميل ، وبين يديها وضع

الصليب الصغير الذى عمدت به وهى طفلة ؟ وقدعثرت عليه ماريا فى مكان ما من البيت .

كلا ، لابد ان كاميل لم تتألمَ ، فقد كانت عيناها تبدوان كأنهما اغلقتا عندما نقلوها من مكانها ، بغير ان يضطر احد الى اغلاقهما . اما وجهها فكان هادئا ، بل مبتسما ، وانفها لم ينبعج الا قليلا .

ولكن شفتيها اللتين تخلصتا من الخضاب الذى كانت تحبه كثيرا ، والذى علمتنى كيف استخدمه ، بدت لى شاحبتين .

وكانت قدماها بالقرب منى وقد ارتفعتا تحت الغطاء، فملت عليهما وقبلتهما .

ثم اضطررت بعد ذلك الى النهوض ، ففى الدور الاسفل كان ينتظرنى بعض الناس الذين يطلبون رؤيتى. وكان فرانز يترقب دائما حركاتى ، فعاوننى على هبوط الدرج .

وعندما مررت امام المرآة التى وضعت فى المشى ، اذا بى افطن الى اننى قد ارتديت السواد . فان ماريا كانت قد فكرت فى ان تضع على مقعدى الطويل ثوب حداد ، هو احد اثوابى التى حملتنى كاميل على خلعها . وعندما استيقظت من نومى ، إرتديته بطريقة آلية .

وبطريقة آلية كذلك ، رحت اصغى الى عبارات المعزين وهم يحدثوننى عن كاميل . وكان الموثق حاضرا، ومعه مساعده . وفى مجيئهما لم يضيعا فترة الصباح سدى ، كما انهما لم يرتديا ثيابا اخرى غير تلك التى اعداها فى اليوم السابق ، للحضور بها فى حفل الزواج ، كشهود لفرانز .

وكان هذا الاخير موضع عطف الزائرين ، وقال بعضهم :

— ان هذا شيء مروع لك ياصديقتى ، لا جدال فى ذلك . ولكن علينا ان نفكر قليلا كذلك فى هذا الفتى ، هو الذى رأيناه منذ وقت قصير فى صحبتها ، وكانت تبدو عليهما السعادة والثقة بالمســـتقبل • ان الافكار يجب ان تتجه الان اليه ، وهذه لابد ان تكون ارادة كاميل العزيزة ، التى تنظر الينا من السماء . فعليك الا تتركيه لنفسه ولياسه .

نظرت الى فرانز . كان هؤلاء على حق ، فقد ظهر الحزن عميقا علي تقاطيع وجهه . ولكنني لاحظت فى نفس الوقت احد التفاصيل التى لا تفوت المرء فى مثل هذه اللحظات ، فانه لم ينس ان يزيل لحيته .



ولما كانت الجنازة قد تحدد موعدها صبــاح اليوم التالى ، فقد امضيت بقية اليوم بالقرب من كاميل . وفى المساء حاولوا اعادتى الى غرفتى ، فرفضت بقوة جعلت الراهبتين لا تصران على طلبهما .

آه لو انهما تعرفان مدى الضعف المروع الذى يختفى تحت هذا العناد من جانبى ! لقد كنت واثقة من اننى اذا خضعت لطلبهما وذهبت الي غرفتى ، فانه ما يكاد ينقضى ربع الساعة حتى يلحق بى فرانز فيها .

وهناك ، فوق ذلك المقعد المستطيل ، وعلى بعـد خطوتين من هذا السرير المظلم ، فاننى اتحول الى امرأة اسيرة مستسلمة ، واصبح من جديد متاعا له ، والعوبة فى يده ، وفريسة لاهوائه .

وما كانت صورة كاميل التى ماتت ، بيديها اللتين وضعتا مضمومتين فوق صدرها الجبيب الذى تحطم ، ولا شبح الدنس الذى نرتكبه ، ما كان كل ذلك ليمدنى بالقوة التى تجعلنى ادافع عن نفسى .

اننى اقر بوحشيتى ، واعترف بكل مايراد توجيهه الى ، ولكن الامر كان هكذا . وماذا كان فى امكانى ان افعله ؟ ما من شىء يحملنى الان على الكلام ، فلأمنح على الاقل نعمة الاعتراف ، ونعمة الندم .

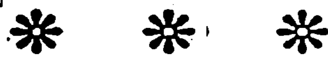
ينبغى اذن ان اقـول كل شىء ، فقـد ادنت نفسى بنفسى . وبعد ، فانه لن يدور فى ذهن احد كما اعتقد، ان يستهين بالهلع الذى اوحى به الى نفسى . فهل يعرف احد ما هى الافكار التى راودتنى فى هذه الغرفة ، حيث رائحة الموت سوف تغطى بعد قليل على رائحة الزهور ، وبالقرب من السرير الذى لن يبقى عليه فى الغد سوى هذه الكاميليا التى بدأ الاصفرار يغـزو اوراقها ؟

اواه .. ان قلب الانسـان الحقيقى يختبىء وراء ستار من الحياء اسدله عليه الروائيون والادباء . فان ما يعرضون على الناس،يعرفون جيدا كما يعرف الناس كذلك ، انه ليس القلب الحقيقى .

انهم يعرفون جيدا ، والناس ايضاً ، ان المثالب التى نسمح باتهام أنفسنا بها علنا ليست الا هفوات طفولة ، الى جانب ما يفكر اكثرنا هدوءا وشرفا فى ان يفعله فى بعض لحظات حياته . فيالها من خيانات ، ويا لها من سرقات ، وانتهاكات ونوايا للقتل . ويالـه من جبن واقذار وقسوة وفسق !

ولو اننى جرؤت على قول ذلك امام قضاتى ، فاننى

على ثقة من اكتساب عطف اشد الناس ، ولسارع اكثرهم صرامة الى مواساتى . ولكن ماذا يهم اذا انفجرت الشفاه لكى تنطق بحكم الادانة على البرتا ، طالما انه فى ذات اللحظة يوجد شخص واحد لا يخشى ان يعترف بالحقيقة ؟



أجل : فبينما كنت اجاهد بالقرب من هاتين الراهبتين اللتين يتقاسمهما النوع والصلاة ، احسست ان حنان الام يذوب فى نفسى تدريجيا ، واننى لم اعد ابكى حزنا على فقد ابنتى .

لم يبق فى سوى امرأة تتفرس فى وجه غريمتها الصامت . لقد رحلت كاميل حاملة معها سرها ، فيالذكرى الليالى الطويلة التى امضيتها اتلصص لسماع اقل حركة تتردد خلسة فى البيت الذى يخيم عليه الصمت والسكون !

أيكون هذا الوجه الشمعى الذى لا يعبر عن شىء وجه عذراء ، أم هو وجه امرأة ؟

ان هذا للاسف ما لن اعرفه قط .

وهكذا ، فاننى فى تلك اللحظات الفاضحة ، انا امها وسبب موتها ، قد وجدت ما يدفعنى الى الشعور بالغيرة منها .



كانت التقاليد لدينا تقضى بأن تمشى النساء على اقدامهن وراء الموكب الجنائزى .

وبالرغم من طول المسافة ، فاننى قررت ان اتبع هذه التقاليد ، كما قررت ان اضع فوق رأسى فى هذه

المناسبة الشال الذى كان لجداتى ، وقد انسدل على كتفى ، وان احاول ان اعود لبضع دقائق البرتا الاولى، التى خشيت كاميل التعسة ان تصبح امرأة اخرى .

وكان الجو مشرقا ، وسحابة خفيفة تغطى سماء الريف ، وفى الحقول بدأت الازهار تتفتح خلال الليل ، حتى اذا جاء الصباح بدت الوانها الزاهيـــــة تخلب الالباب .

وسرعان ما وصلنا الى الدوران ، فبدأت النسوة اللاتى سرن فى الموكب يتطلعن الى من تحت ازارهن ، اذ لم يكن السور الصغير قد اصلح بعد .

أما فى الحقل السفلى ، فلم يكن هناك من اثر يدل على وقوع الحادث ، سوى بعض اعواد الذرة التى مالت اكثر من الاخرى . واما السيارة نفسها فلم يبق لها من اثر ، لان فرانز كان قد اشرف بنفسه على رفعها .

وعلى بعــد بضع مئات الامتار من المدينـــة ، كان القس فى انتظارنا ومعه اطفال الكنيسة الذين يتكون منهم فريق الانشاد . وبينما اخذت الاجراس تدق ، بدأ الموكب ينتظم ويبطىء من سيره ، ولم اعد اشعر بأى ارهاق ، وخيل الى ان فى امكانى ان امشى الفراسخ والايام وراء هذا النعش .

وفى داخل الكنيسة كان الجو باردا ، فأخذت ارتعد تحت الشال وتحت دثارى . بيد ان هذه الثياب الكثيفة تخفى عن عيون الاخرين كل ما بنا من ضعف ، دموعا كانت او حمى . وهى تتيح لنا كذلك ان نرى مانريد ان يفطن الينا احد .

ومنذ الصباح كان يستحيل على أن أتطلع الى فرانز،

ولكنى تمكنت اخيرا من مراقبته ؟ بالرغم من الضيق الذى كنت احس به .

ان مكان الشرف فى الكنيسة ، وهو الذى يقع فى الناحية اليمنى ، مخصص فى بلدتنا للنســاء . وكان المكان الذى اصلى فيه اقرب ما يمكن الى التابــوت ، تماما مثل مكان فرانز من ناحية اليسار . وعند تقديم الماء المقدس ، كنا ندير وجهينا ليتقابل كل منها بالاخر ، فأراه بين الشموع والزهور .

كان يخفى مشاعره تحت ستار من الالم الـذى يتظاهر به ، وكان يبدو فى صورة طائر وحيد، يحلق فوق مستنقع كساه الجليد .

وكانت فكرة اننى بعد ساعة سوف اجد نفسى وحيدة معه ، عندما يتفرق كل هؤلاء الناس ويذهبون لحالهم، كانت هذه الفكرة تملأنى بشعور من الرعب من غير المجدى ان يطلب منى تحليله .



لم تكن المقابر بعيدة عن الكنيسة ، وللوصول اليها كان لابد من اجتياز احد فرعى النهر الصغير الذى يروى المدينة .

كان صوت تضارب المياه الخفيف يصحبنا فى سيرنا، وعلى علو كبير فى السماء ، ابصرت وانا ارفع رأسى برجى سان لوران . لم يكن قد انقضى اسبوع على ذلك اليوم ، الذى صعدت فيه الى التل الذى اقيما فوقه .

فمن ذلك العلو كنت قد رأيت المقابر ، وقد راودتنى يومها فكرة ارتقاء احد ذلكما البرجين ، وان القى بنفسى

فى الفضاء . ولو قد واتتنى الشجاعة عندئذ ، لما كانت كاميل اليوم قد ماتت .

وتراجع الذين تجمعوا عند القبر ، لكى يتركوا لى مكانا عندما اقتربت من الحفرة . هنا اذن سوف يسجى جسد طفلتى ، هذا الجسد الذى انجبته .

وبحركة تلقائية تحسست احشائى ، هذه الاحشاء التى حملتها فيها ، اننى اذكر المرة الاولى التى رأيته فيها كاميل ، وكان ذلك فى سرير كبير كانت ترقد فيه امرأة شابة تتألم وتنزف ، والى جانب هذا السرير مهد غامض مغلق .

لقد ماتت طفلتى .

ها هى كومة الارض الداكنة ،التى سرعان مايختفى تحتها هذا التابوت .. اجل ، ولكن شبح كاميل لا يمكن التخلص منه على هذه الصورة ، ولا يمكن ان يغلق عليه كما نريد ، كشىء لا نرغب فيه ، بين الجدران الاربعة لمقبرة ريفية صغيرة .

وصحبنا عدد من الناس ، ثم استأذنوا فى الانصراف امام بوابة [ماجلون] . وكانت ماريا قد اعدت نزولا على التقاليد غداء لحوالى اثنى عشر شخصا ، فوجدته نفسى انا وفرانز يجلس كل منا عند احد اطراف المائدة الفسيحة ، وفيما بيننا عـدد من المقاعد ، كان يبـدو كأنها آخر محاولة لتأخير الوقت الذى ينفرد كل منـا بالاخر .

وعندما هممت بالجلوس ، رأيت ماريا يستولى عليها الاضطراب ، وتجذب فى سرعة فوطة المائدة التى

وضعت امامى .
كانت قد وضعت سهوا فوطة كاميـــل فى المكان المخصص لى ،وعند ذلك انفجرنا نحن الاثنين فى البكاء ، لدى مرأى تلك الاداة المعدنية البيضاء الصغيرة التى تحفظ فيها ، والتى كنت قد اشتريتها لها منـــذ عشر سنوات مضت ، يوم دخولها القسم الداخلى بالمدرسة، وظلت تستخدمها منذ ذلك الوقت .

الفصل الثامن عشر

اننى ابذل في روايتى هذه غاية جهدى ، لكى اقص ماحدث بكل دقة ، واقدم صورة صادقةللوقائع ،واعمل حتى لا ادع الافكار التى اضطررت فيما بعد الىاعتناقها تشوهها وتحورها .

فليمحى ذلك الشعور الذى اكنهاليوم لفرانز ويزول، ذلك الشعور المعقد الذي اختلط فيه الحب والكراهية ، حتى لا يبقى سوى ذكرى الاعوام التى لم يدخر فرانز فيها جهدا لاسعادى . لقد فعل كلما فىطاقته ،واحبنى كما لم يحب رجل اى امرأة فى العالم ، واضفى على حبه هذا حرارة ودفئا واخلاصا لم يسبق له مثيل .

اما خطأى ، فكان فى اننى لم ادرك ان عمق هـذه العاطفة يقضى عليها بالا تدوم الى الابد ، وكان خطأى أننى تصورت ان اقتصار المرأة على حب مخلوق واحد، انما يعطيها الحق فى ان تأمل انه لن يحب غيرها .

لقد اعتقدت ، وهذا خطـأى ، ان الحب العظيم يسمو فوق قانون الاعوام . فيا لليقظة المروعة التى تسبق زوال هذا الوهم ، وما اقسى ان تفطن المرأة

فجأة ، فاذا الحب الذى كان موقوفا عليها قـد تحول، ولم يعد الا نوعا من الاشفاق (*)

* * *

انني اقر فى هلع ، ان الشهور التى اعقبت موت كاميل مباشرة هى التى بلغت فيها سعادتى ذروتها. ففي خلال هذه الشهور ، لم تتجه افكارى الا قليلا الى ابنتى .

وليس هناك شك فى ان فرانز لم يكن يتركنى وحدى طويلا ، وعندما كان يضطر الى الذهاب الى المدينة ، كان يعود لكى يجد الدموع تنهمر من عينى ،وقد ارتميت فوق مقعدى ، ترتعد كل اعضائى فى غرفة حيث لا اجد فى نفسى القوة لكى انهض واشعل ضوءها .

بيد ان وجوده كان يبدد سريعا تلك الاشباح القاتمة التى يبعثها الظلام والوحدة ، ولم يكن عليه الا ان يأخذنى بين ذراعيه ، ويمطرنى بقبلاته .

وكنا نتناول طعام العشاء وحدنا ، ونخدم انفسنا بأنفسنا ، فان ماريا لم تعد تبيت فى [ماجلون] ، اذ صرحت لها ان تعود الى بيتها ، وكانت توشك ان تعقد خطبتها على ابن واحد من المزارعين المجاورين لنا .

كانت تأتي حوالى الساعة العاشرة صباحا فتعد لنا طعام الغداء ، وتقضى بعد الظهر فى العناية بالبيت، ثم تنصرف مع حلول المساء بعد اعداد العشاء .

وهكذا كان هذا البيت العتيق يصبح لنا بغير رقيب، ولا يكون هناك اى مخلوق يشهد الاسابيع الاولى من سعادتنا .

ولم يكن هناك احـد كذلك يرى امرا غير عادى فى بقاء فرانز فى البلدة . وقد ذهب بعد دفن كاميل ،

سواء كان ذلك عن قصد منه ام رغبة حقيقية فى البحث عن علاج ، لاستشارة طبيب المدينة ، وهو رجل عجوز ، وجد فى ذلك ما ارضى كبرياءه كثيرا .

وكان من رأى هذا الطبيب ان فرانز اذا قضى الشتاء فى باريس ، فانه سوف يقضى على التقدم الذى احرزه فى طريق الشفاء ، ونصحه بان يظل اطول فترة ممكنة فى [ماجلون] طالما ان الجو فيها له تأثير طيب على صحته .

ولم يعترض فرانز على هذه النصيحة ، التى ربما كان هو الذى اوحى بها . غير ان اجازته كانت توشك على نهايتها ، فكان لابد من عودته الى باريس لتصحيح وضعه لدى السلطات الادارية والعسكرية التى يتبعها . وكان من المتفق عليه ان اصحبه فى هذه الرحلة .

ولم تستغرق الرحلة اكثر من الوقت اللازم لكى يحصل على امتداد للاجازة ، وقد استغل ذلك لقضاء بعض الاعمال الخاصة به ، فزار عددا من رجال الصناعة ، ومن بينهم صاحب احدى الشركات الكبرى لصنع الذخائر بالقرب من باريس .

وفى اقل من خمسة عشر يوما عدنا الى [ماجلون] . ولو ان احدا جاء فى ذلك الوقت ، وقال لى اننا لن نخرج منها قط ، فانني اعتقد اننا ما كنا لندهش من هذه النبوءة . وعلى اى حال فانه اذا كان احدنا قد ابدى شيئا من التحفظات ، فانها لم تأت من جانب فرانز ، وانما جاءت من جانبى ، اذ كنت اعرف بالرغم من كل شىء ان لديه عملا ينبغى له ان يتابعه .

وقد كان علينا ان نذهب عاجلا او آجلا ، للاقامة فى باريس ، على الاقل خلال الجانب الاكبر من وقتنا .

غير اننا لم نعبأ فى ذلك الوقت بالاهتمام باى شىء ، فالحرب كانت مستمرة ، ولم يكن فى امكان احد ان يتنبأ بما سيأتى به الغد .

ولسوف تدرس يوما الاثار التى احدثتها هذه المأساة الكبرى ، التى دامت اربع سنوات ، فى حياة البشر ، وبصفة خاصة اولئك الذين لم يتصلوا بالصراع الذى دار فيها بصورة مباشرة . فلقد كانت تفرض على الجميع قيودا صارمة ، فكان كل انسان لا يستطيع ان يتخذ فى شىء قرارا حاسما ، بل كان يقول :

— عندما تنتهى الحرب ...

وكانت عبارة مرنة ، تبعث الراحة فى النفوس ، وكم نشأت فى ظلها اوضاع غير طبيعية ، ثم نمت ، وتفرعت فى كل اتجاه ، وثبتت جذورها بصورة مذهلة .

وعندما جاء السلام ، كان لابد من عمل شاق لانتزاع تلك الجذور ، واعادة الاوضاع الى ما كانت عليه ، ولكن ذلك لم يكن سهلا ميسورا .

وكان ذلك الشتاء مروعا لكثيرين من الفرنسيين ، غير انه لم يكن منتظرا ان تتأثر بالحزن الذى عانت منه بلادها ، تلك التى تبذل طاقة جهدها لكى تنسى تماما ابنتها التى لم يمض وقت طويل منذ ووريت التراب .

ان الحرب لم يكن لها وجود بالنسبة لامثالها من النساء ، اللاتى لم يقاسين الا من اجل عواطفهن او غرامهن . وكانت الحرب بالنسبة لى ، هى اثر ذلك الجرح الذى اتخذ شكل احدى النجوم ، والذى كنته اراه ليلا ، فى ضوء المصباح الاحمر الصغير ، فى صدر فرانز العارى ، وهو راقد الى جانبى .

لقد كان ذلك الجرح يمكن ان يقضى على حياة حبيبى .

لم اكن افكر فى ان كاميل كان يمكن ان تكون على قيد الحياة ، لو ان تلك الرصاصة قد ارتفعت سنتيمترا واحدا عن المكان الذى اصابته فيه ، فاخترقت القلب الذى كنت استمع الى دقاته ، بغير ان اخشى الا من ان اسمعه يبطىء فجأة .

ان دنياى ، وكل ما يشغلنى ، ووطنى وآمالى ، كل ذلك كان هنا ، فى هذا القلب . اما ما عداه ، وما هو قائم خارج هذه الغرفة التى أرقد فيها معه ، فانه غريب عنى ، ولا احفل به . ولم اكن اتصور قط انه يوجد اى شىء يثير اهتمامى ، الا فرانز .

وهو ايضا .. لكم احبنى !

انى اعود دواما الى هذه الذكرى ، ذكرى انه قد احبنى . ان المرأة قد تخطىء فى تقدير اى شىء ، فيما عدا مثل هذا الامر ، لقد كان حبه هو المبرر الوحيد لحياتى .

فلا يحاول احد ان ينتزع هذا الايمان منى ، وهو الايمان الوحيد الذى بقى لى ، وهو الحطام الوحيد الذى سوف اظل الى نهاية ايامى متعلقة به .

وحتى اذا جاء ونحن امام قضاتنا ، لكى ينكر كل شىء ، ويقول اننى امراة مختلة العقل ، وان الشعور الذى يكنه لى ما كان ليدفعه الى الجريمة ، فاننى سوف اهتف امام المحكمة واقول :

— لا تصغوا اليه .. الا ترون انه يبذل قصارى جهده .. هذا التعس .. لكى ينقذ عنقه ؟

ولسوف تكون لهجتى من الصدق بحيث يصدقوننى . اجل .. ان حبه هو اساس هذه القضية ، وقد قدم

الى الدليل الدافع على ذلك ، فضلا عما لدى من ادلة اخـرى .

ان لدى ادلة كثيرة ، مما لا يجعلني اعرف بأيها ابدأ ، اذا تعين على ان اعدها . فلا يتعلق بالاوهام ، لانني سوف اسوق هذه الادلة جميعا ، ولسوف امضي في ذلك اذا اقتضى الامر ، الى الحد الذى لم تذهب اليـه امرأة قط .

لسوف اتخلى عن كل حياء عند اقدام المحلفين ،لكى اروى لهم كل شيء ، ولن يستطيع احد ان يزعم بانني كنت اتخيل الكلمات التى كان يهمس لى بها ، او العناق الذى كان يحوطني به ، او ان ذلك كان من قبيل مايفعله مع اى امرأة اخرى .

انني اعرف ما اقول ، ولدى النقـاط التى تصلح للمقارنة .

خذوا كاميل مثلا .. لقد احبها هى الاخرى ، وانا على معرفة بذلك ، ومن المحتمل أنها كانت خليلته .

والواقع انني لم أتوقف ،كلما تغيب هو عن [ماجلون]، من التنقيب فى اوراق ابنتى ، وقد توجت محاولتى البشعة هذه اخيرا بالنجاح .

لقد عثرت على الرسائل التى كان يبعث بها اليها .

ان كل هذا شيء وضيع ، وانا ادرك ذلك ، ولكن هل حدث من قبل ان وقفت امرأة اخرى قط مثل هـذا الموقف ؟

لا اعتقد .

وهل هناك امرأة يمكنها ان تتغلب على ما تشعر به من تقزز ونفور ، وان تحاول ولو بفكرها ؟ ان تضع

نفسها مكانى ؟

الرحمة .. الرحمة لهذه المرأة التعسة .. الرحمة لى. ولكن .. ما هى اهمية هذا ؟ ان تلك الرسائل التى عثرت عليها ، قد قرأتها جميعا ، وكنت اقول لنفسى :

ــ لقد احبها هى الاخرى ، وهذا امر مقطوع به. لقد احبها ، ولكن كما يحب الرجل اى فتاة عابرة . وما قيمـة هذه الكلمات التى كان يستخدمها معها ، الى جانب تلك التى كان يوجهها الى ، الى وحدى ، والى جانب تأوهات الاشتهاء التى كنت انتزعها منه !

* * *

وفى خلال هذه الأيام ، وتلك الاسابيـع التى كنت اغترف فيها الثقة فى نفسى ، والتى كانت تنقصنى حتى ذلك الوقت ، رأيت فرانز الذى اسكره نجـــاح العمل الذى قام به ، وهو يشهد كمتفرج ذلك التحـــول الذى كان هو صانعه .

كان يحدث فى بعض الاوقات ، ان يتوقف فجـأة عن العناق الذى نكون منهمكين فيه ، ويدفعنى عـــن احضانه فى رفق ، ويضع يديه على كتفى العاريتين، ويظل يحـــدق فى وجهى بخليط من الشعور بالفخــر والحزن ، ثم يهمس قائلا :

ــ عندما افكر ...

وتتوقف عبارته عند هذا الحد ، ولقد كانت لى حرية ان اتمها وفقا لما اريد .

عند ذلك كنت اتساءل فى نشوة :

ــ ترى ما الذى يفكر فيه ؟ هل يفكر فى انه كان ينبغى له ان يعرفنى قبـــل ذلك ، وانه ما كان يجب ان يمتلكنى شخص آخر سواه ؟ كلا .. انه يفكر

قطعا فى الصورة التى كنت عليها عندما جاء الى ، امرأة متواضعة حزينة ترتدى ثيابا سوداء ، وأصغر مما انا عليه الان بعام واحد ، ولكننى كنت ابدو اكبر بعشرة اعوام .

لم يكن يسوءنى الحديث عن المعجزة التى تمت بعودة شبابى الى . فقد كنا نحن الاثنين نهيم فى غرورنا ونحن نتحدث فى هذا الصدد ، الذى كانت هناك اشياء كثيرة تؤكده . نظرات الدهشة مثلا ، التى تبدو فى عيــون اهل البـلدة ، وكلمات المجاملة والاعجـاب التى كان يوجهها الى الرجال من الاغراب عن المنطقة ، وهى تحية ساذجة ، ولكنها كانت مع ذلك تملانى سرورا وارتياحا .

والواقع ، كيف كان فى امكانى الا اتأثر بكل هـذه الادلة ؟ لقد كانت عيناى سوداوين لامعتين ، وتوقف شعرى عن المشيب ، وكان السير والحركة والعناية التى كنت اوليها لجسدى ، كان كل ذلك قد جعله ثابتا ناعما ، كما لم يكن تبل ذلك قط . اما وجهى ، فقد دب الشباب فيه ، واختفت كل التجاعيد الصغيرة التى كانت فيه من قبل ، كما لو كان قد تعرض لمعجزة . ولقد ذهبت الاستطالة التى كان عليها ، واصبح مستديرا جميلا ، فيه فتنة طاغية .

ومع ذلك فقد كانت هناك امرأتان تدعى كل منهمـا البرتا ، الاولى تلك التى لم أتوقف قط عن أن أكون فى صورتها ، البرتا القديمة ، المرأة التى كانت ترتدى ثياب الحداد ، ووالدة كاميل . وهى أخيرا تلك التى كانت تبدو فى المدينة ، وعلى الطريق ، مستندة الى ذراع الرجل الذى كانوا لا يزالون يطلقون عليه فى البلدة اسم

« خطيب الانسة » ، والتى كان الجميع يرفعون لهـا قبعاتهم فى احترام .

ثم كانت هناك البرتا الاخرى ، تلك التى كانت تبدو، عندما كانت بوابة [ماجلون] تغلق عليها ، فتصبح حصنا لا تصل اليه انظار الاخرين .

هذه المرأة ، من ذا الذى كان يمكن ان يتعرف عليها، وهى بتلك الشفاه القرمزية المرتعدة ، وبعينيها اللتين اظهر الكحل سحرهما وعمقهما وحرارتهما ، وبحركاتها المسترخية فى دلال ، وبالثياب العارية التى ترتديها ، وبكل ما ورثته من يقظة جنسية عن جدتها المولدة ؟

وماذا كان من امره هو ؟

لقد كان يستخدم من الكلمات التى يشكرنى بها ، ما كان يكشف لى بها عن الفراغ الذى كانت عليـه حياتى الماضية ، وفى نفس الوقت ما يملا به هذا الفراغ بالسحر والجمال .

وعشنا عاما فى هذه العزلة الرائعة .

وعندما كان يهبط المساء ، كنت اتناول رأسـه الجميل بين يدى ، هذا الرأس الجميل الذى كنت على استعداد لكى اقسم باغلظ الايمان على انه ما كان يمكن ان تدور فيها اقل فكرة اجرامية .

لقد كان على ان يدور فى نفسى عنه ما هو اكثر من الشك ، بل ما يقرب من اليقين ، ولكننى لم ارغب فى التفكير فى ذلك . ولقد كانت جريرتى ، ولكم وددت ان اقول جريرته ، اننى اعتقدت ان الحب العظيم يمحو كل شىء ، ويطهر كل شىء ، ويبرر كل شىء .

وهذه الجريرة ، كائنا ماكان الذى سيحدث ، لها بكل

تأكيد قدرة عظمى فى قلب اي مخلوق ، يكون قد احب الحب الحقيقى .



وتعاقبت الشهور ، وتوالت الفصول .

وفى ذات صباح من شهر نوفمبر ، وبينما كنا جالسين معا فوق الشرفة ،ارتفعت دقاتناقوس احدي الكنائس فى السماء الداكنة ، وسرعان ما اعقبتها دقات النواقيس الاخرى فى جميع ارجاء الوادى والجبال .

وتبادلت انا وفرانز النظرات . هذه هى نهاية الحرب ، فهل هذا امر ممكن الحدوث ؟

وعلى الطريق مرت النساء والشباب والاطفال ، يضحكون ويصيحون ، متجهين بسرعة ناحية المدينة .

ونهض فرانز واقفا ، واخذ يسير جيئة وذهابا بخطوات واسعة فى الشرفة . اما انا فقد ظللت مكانى، وامتلات نفسى بالاضطراب والحيرة ، ولبثت اصغى الى هذه النواقيس التى كانت كل دقة منها تعنى قرب دخولى فى حياة جديدة ، كنت اخشى ان تكون حافلة بالمكائد ، مليئة بالاحابيل .

الفصل التاسع عشر

ظللنا نقيم فى (ماجلون) ما وسعنا ذلك ، حتى بعد ان اعلنت الهدنة ، ثم كان علينا بعد هذا ان نتخذ قرارا .

كان العام يقترب من نهايته ، وتلقى فرانز الدعوة تلو الدعوة من المسيو [اكبس] ، وهو رجل الصناعات الكبرى ، الذى استطاع ان يبرم معه عقد شركة ، ثم تلقى منه رسالتين يطلب منه فيهما بكل حزم ان يحضر الى باريس .

واعتقد ان الامر لو كان قاصرا عليه ، لتأخر مرة اخرى فى تأجيل رحيله ، فان احتمال مشقة العمل الذى ينتظره ، كان يبدو انه يملأه بالاعياء والملل .

وقد كنت انا التى اصررت على الا يترك نفسه لهذا الخمول ، الذى يتعارض مع مصالحه .

وفى حوالى نهاية شهر ديسمبر غادر [ماجلون] ، فظللت بعده خمسة عشر يوما لكى اشرف على اغلاق هذا البيت القديم بصفة نهائية ، ولكن انقذ للمرة الاخيرة المظاهر ، وذلك بعدم مغادرتى للبلدة فى نفس اليوم

الذى غادرها فيه فرانز .

وكما قلت ، فاننى كنت لا اعرف مدينة باريس ، ولم تكن الشهور الاولى التى قضيتها فيها لتخفف شيئا من هذا الجهل .

كان فرانز فى انتظارى بطبيعة الحال فى المحطة ، وبدا لى ان الفترة التى افترقنا فيها ، وهى تزيد على خمسة عشر يوما ، كأنها فى طول القرون .

وقد علمت بعد بضعة ايام ، ان فرانز لكى يكون فى انتظار القطار الذى اقلنى ، اضطر الى عدم حضور اجتماع على جانب كبير من الاهمية ، عقده مجلس ادارة الشركة .

هكذا كان ، وهكذا كنا ...

وفى السيارة التي اقلتنا ، لم اتوقف لحظة واحدة عن الضغطعلى ذراعه ، وعن احتوائه بين ذراعى ، وعن تقبيله . وسرنا فى طرق تقوم على جانبيها اشجار سوداء ، واجتزنا نهر السين ، بغير ان يطرأ على ذهنى أن أسأل فرانز الى اين يذهب بى .

كان كل شىء يستوى عندى ، مادام هو معى . لقد كنت لا اكاد اصغى اليه ، بينما راح يشرح لى الحلول المختلفة التى ينوى اتخاذها لتنظيم حياتنـا معا . وكانت قبلاتى له تجعل الكلمات تتوقف على شفتيه .

قلت له :

ـــ ما اهمية كل ذلك ، طالما اننى معك يا حبيبى ! ان كل ما سوف تفعله ، سيكون على ما يرام .

ولما اخذنا نسير الى جوار مبان ضخمة هائلة ، ارتفعت فوقها سحب من الدخان الاسود ، جعلت سماء الشتاء تبدو اكثر ظلمة مما هى عليه ، تخفف فرانز قليلا من عناقنا ، ومد ذراعه وهو يشير اليها قائلا وهو يبتسم :

ـ هذه هى المصانع .. مصانعنا .

وبعد ذلك بعشر دقائق ، توقفت السيارة امام بوابة احدى الفيلات .

ودخلنا .

كنت نشوى من فرط السعادة ، الى الحد الذى لم يجعلنى فى هذه اللحظة ارى شيئا على الاطلاق ، لا الحديقة ، ولا الوصيفة التى سارعت لكي تتنـاول منى قبعتى ومعطفى ، ولا معجزة الفخامة التى استطاع فرانز ان يحققها فى بضعة ايام فى كل غرفة من تلك الغرف التى ستمضى فيها حياتنا ، ولا ذلك المنظـر الساحر الذى كان يمتد تحت نوافذنا ، والذى كان ينبعث منه فى تلك اللحظة نفسها شعاع ضئيل مـن اشعة الشمس ، خارجا من بين السحب .

لم ار سوى مخلوق واحد .. هو فرانز ، ولم افكر الا فى شىء واحد ، هو اننى الان وحدى معه .

وفى هذه الغرفة ، فان هذا الباب الذى اغلق فى التو علينا ، قد عزلنا عن بقية العالم . وهنا ، لا مكان للذكريات ولا للاشباح ، لا مكان للمقبرة القريبة ، لا مكان الا لنا نحن الاثنين يا فرانز .. لا مكان الا لنا .

وفى اثناء الغداء ، اخبرنى فرانز بكل ما صنـع منذ مجيئه الى باريس ، فقال :

ـــ لسوف اشرح لك كل ذلك بالتفصيل فيما بعـد تدريجيا . اما الان ، فاننا نناضل ، انا ومسيو [اكس] وسط صعاب لا يمكن تصورها . غير ان العمل يبدو منذ الان رائعا ، وكيف يمكن ان يكون غير ذلك ؟ ان مسيو [اكس] رجل من الدرجة الاولى ، انه يمتلك عقلا من افضل العقول تنظيما فى هذا العصر . حقا ان الشهور الاولى سوف تكون قاسية ، ولكن ماذا يضيرنى من ذلك ، طالما اننى عندما اخرج من المصانع ، اعرف اننى سأجدك هنا فى انتظارى ؟ ولسوف ترين اننى سأدبر كل شىء ، حتى لا اجعلك تتضايقين من عملى .

ـــ وانت تعلم جيدا انك لن تلومنى على اى محاولة لاثنائك عن عملك .

ـــ اعرف هذا ، واعرف كذلك ان هناك وقتا لكل شىء . اننا سوف نتناول طعام الغداء هنا كل يوم ، ثم ان سان كلود لا تبعد الا عشر دقائق بالسيارة عن المصانع . ولذلك اخترت هذه الفيلا هنـــا . وفى المساء سوف نكون احرارا ، فنستطيع البقاء او الخروج كما يحلو لنا . ثم ان هناك مسيو [اكس] .. الذى يجب الا ننساه . اننا سوف نتناول العشاء معـــه بقدر ما نستطيع ، ولقد حدثته كثيرا عنك ، وهـــو يتحرق شوقا ليتعرف بك .

ـــ هل حدثته عنى ؟ ماذا قلت له ؟

ـــ كل ما تستطيعين تصوره ، انها اشياء تكفى لكى تجعله يفهم اننى احبك ، وانك ستصبحين زوجتى .

ـــ زوجتك يا فرانز ! انك تعرف تماما ما هو ردى فى كل مرة تنطق فيها بهذه الكلمة .

واحتوانى بين يديه فى قوة وقال :

ــ وانت تعرفين افضل مني ردى عليك . لماذا هذا العناد الذى لا افهم سببا له ؟ لماذا تخاطرين بايلامى ؟ لماذا تريدين ...

ــ لماذا ؟

وصمتنا نحن الاثنين معا . كان هذا هو المشـــهد الذى يتكرر دائما . ان اصبح زوجة لفرانز ، كان موضوعا كثيرا ما يتردد الحديث عنه بيننا ، وفى كل مرة كان فرانز يلح فى عاطفة متجددة ، وفى حرارة كانت تجعل موقفى يتحول على الفـــور تقريبا الى ضيق كئيب .

زوجته !

انه فى اليوم الذى نطق امامى بهذه الكلمة ، جعلنى ارتعد بصورة لم يستطع معها الا ان يتوقف على الفور. ومع ذلك فلكم وددت ان يكون حرا ، لكى يطلب منى معرفة سبب اضطرابى . ولكم كنت اود من جانبى ، ان اقتنع بعبثه .

لقد كان ذلك مستحيلا . الم يكن الافضـــل لنـــا فى مثل هذه الظروف ان نخلد الى الصمت ؟ وان نتجنب كل ما كان يمكن ان يثير هذا الخلاف بيننا ؟

كان هذا القرار بالذات ، هو ما عجز فرانز عـــن اتخاذه . ولحاجته الدامية الى ان يعرف ما اذا كنت على علم بسره ، فانه لم يكن يدع بضعة ايام تمر ، الا ويطرح على بساط البحث هذا النقاش .

قال ذات يوم :

— انه لامر مضحك .. لماذا لا نفعل الان ..ماسوف نفعله في احد الايام ؟

ولقد كان فى الحاحه هذا ، بهـذه اللهجـة غير الواثقة ، انما يثير اشفاقى ، الى الحد الذى كان يحملنى على ان اكسب صوتى لهجة مرحة وانا ارد عليه . قلت :

— اتقول لماذا ؟ اننى مرة اخرى لا ارى ما يدعو لهذا الزواج ، او على الاقل لا ارى له ضرورة ملحة . لقد كنت حرا دائما ، اما انا التى لم استمتع بحريتى الا منذ بضعة اعوام ، فلا اريد ان اتنازل عنهـا بين يدى طاغية مثلك .

وكان هو يبتسم ، ويبذل جهده لكى يعيد الثقة الى نفسه ، وان يدخل فى روعه اننى اقول الصدق ، وان من غير الممكن اننى اشك فى اى شىء .

ولتكوين فكرة تقريبية لجسامة العمل الذى وقع على كاهل فرانز فى الشهر الذى لحقت به فيه ، وخـلال الشهور التى اعقبته ، لابد من الاحاطة بالخطوط العريضة فى العمل الذى اصبح شريكا فيه .

واستطيع ان اتحدث فى انصـاف عن مسـيو [اكس] ... فبالرغم من مظاهر العطف التى ابداها نحوى ، وبالرغم من سلوكه معى ،فانه كان بالنسبة لى، وسـوف تثبت الاحـداث ذلك ، اقرب ما يكون الى الخصم منه الى الصديق .

ان اقسى أعداء النساء — الذين لايمكن أن تخطىء بشأنهم — ليسوا من النسـاء ، اللاتى يمكن أن يكن غريمات لهن . انما هؤلاء الاعداء هم أصدقاء أزواجهن

أو عشاقهن .

ومنذ اليوم الأول ، أدركت أنه اذا كان هناك عداء بين مصلحة فرانز الظاهرة وبين سعادتى ، فان مسيو (اكس) لن يقف قط الى جانبى .

كان مسيو [اكس] الذى درس الصناعات الهندسية، وتخلى فى صدر شبابه عن كل الوظائف التى هيأتها له الحكومة ، لكى يدخل عالم الصناعة ، كان لايهتم الا قليلا بالأعمال ، وانما يركز كل جهده فى المضاربة .

ولقد بدأ بغير أن تكون لديه أى ثروة ، يكسب بعض المال ، وهو يعمل كمهندس فى الخطوط الحديدية التى انشئت فى بورتو ريكو ، ثم استخدم هــذا المال فى استغلال مناجم الفوسفات فى [جفصه] .

وجمع بعد ذلك أرباحه من الفوسفات ، وضارب للمرة الثالثة فى بناءأحد الموانىء .فلما نشبت الحرب ، لم يترك لديه فرنكا واحدا لم يضارب به .

ان القليل من الرجال يستطيعون أن يفاخروا بنجاحهم الذى حققوه بالشرف والجد والعمل . لكن الحرب عندما جاءت ، رأت مسيــو [اكس]يمتــلك مليونين مــن الفرنكات ، ولكن لديه أكثر منها من الثقــة بالنفس وبالتجربة .

لقــد أعفاه عمره المتقدم من كل التزام عسكرى ، فاشترى فى بداية الحرب مساحة من الأراضى بالقرب من باريس ، لم تلبث ان امتلأت بالمصــانع التى تنتج الذخائر . وقد وظف كل أمواله السائلة ، وكل الأرباح التى حققها بعد ذلك فى تطوير مصانعه .

ولكنه فى نفس الوقت الذى كان يسهم فيه فى كسب

الحرب ، كان يفكر فى السلام . فما الذى سوف يفعله بمصانع للدبابات والقنابل ؟

لقد فكر فى هذا ، وفكر فيه كثيرا ، وكان لايزال يفكر فيــه عندما عرض على فرانز أن يصبح شريكا له .

كان قد التقى به فى اللجان المختلفة التابعة لوزارتى التسليح والاشغال العامة ، وعرف قيمته ، وروحــه الخلاقة . وقد تعامل معه معاملة الند للند ، وضمن له من المزايا ، ماكان فرانز يبحث عنها عبثــا لدى أى شركة أخرى .

كان مسيو [اكس] هو النظام المجسم ، وكان فرانز هو الحماس والتخيل . وكانت الفكرة التى حملها فرانز مزدوجة ، فمن ناحية كان يرمى الى ادخال تحسينات وتسويق على السيارة ذات السرعة الفائقة التى توصل الى اختراعها ، وهى السيارة الصغيرة المروعة التى صرعت كاميل ، ومن ناحية أخرى كان يسعى الى اخراج نموذج قليل التكاليف من هذه السيارة ، ليصبح سيارة شعبية .

وكانت هذه الفكرة المزدوجة ضمانا للصراع المستميت والنصر ، وقد بدأ مسيو [اكس] يرى دليل ذلك خلال الصعاب التى أحاطت به غداة الهــدنة ، فى الوقت الذى جئت فيه للالتقاء بفرانز فى باريس .

لقــد كان يتعين عليه ان يحول مصانعه الحربيــة الى مصانع تعمل وقت السلام ، ولكنه لما كان قد لجأ الى توظيف كل أمواله فى شراء الارض وبناء المصانع عليها ، فانه اضطر الى الالتجاء الى البنوك ، ولكن هــذه رفضت اقراضه .

فقد كانت ضالعة مع عملائها من أصحاب شركات صناعة السيارات الكبرى ، التى كان مصيرها مرتبطا بالابقاء على الاسعار القديمة ، والتى كانت ترى فى هذه الشركة الوليدة التى تريد صنع سيارة صغيرة فى أعداد كبيرة ، عدوا لها .

ولقد وقفت بنفسى على تفاصيل الكفاح الذى قام به فرانز ، وكذلك شريكه ضد هذا التحالف ، وكنت شاهدة على ماعتراهما من شـــعور مؤقت باليـــأس ، ثم بانتصارهما النهائى .

وكان اهتمامى بهذا الصراع كبيرا ، الى درجـــة جعلتنى أنسى أن كل دقيقة يمضيها فيه فرانز ، انمـــا هى دقيقة يختلسها من الوقت المخصص لغرامنا .

وفى ذلك الوقت كان مسيو [اكس] يبلغ من العمر أكثر من ستين عاما . وكان بقامته المديدة يبدو كأنه أحد الضباط ، وقد ابيض شعره القصير ، وكذلك شاربه الصغير .

وكما يحدث عادة للذين يعملون كثيرا ، فان حياته العاطفية لم تكن سعيدة . ذلك أن زوجتـــه ، وهى أمريكية خيالية تزوجها فى وقت متأخر ، انفصلت عنه وعادت الى بوسطون ، مسقط رأسها .

وقبل ذلك بثمانية أعوام ، كانت قد أنجبت له توأمين، ذكرا يدعى جاك فى السنة الثانية الثانوية ، وفتاة هى سيسيل ، التى صدر حكم قضائى يعهد بحضانتها الى والدتها حتى تبلغ سن الرشد .

وكان غياب هذه الفتاة عن مسيو [اكس] يسبب له الكثير من الحزن والاسى ، وفى الايام التى كان يروق

فيها مزاجه ، كان يفتح لى قلبه ويحدثنى عنها .

أما موقفه منى فقد كان بالغ الغرابة وباعثـا على الحيرة ، وكان خليطا من التحفظ والعطف .وكنت أحس أنه حريص قبل كل شيء على مصلحة فرانز ، مما كان يجعله ناقما على بوصفه برجوازيا متزمتا ، من جراء الحياة غيرالعادية التىأفرضها على شريكه ،وللتعقيدات التى كان يتصور حدوثها له من جراء ذلك فى المستقبل.

ولا بد لى من القـول أن مخاوفه هذه كانت تخفه تدريجيا ، اذ كان يخرج من سعادتى وهدوئى وطمأنينتى شعاع ، كان من العسير عليه ألا يتأثر به .

ولقد كنت أدرك أنه بالرغم من كل شيء ، فأننى أقدر مسيو [اكس] حق قدره .، وأنه يقدرنى ويحترمنى . وقد بذلت المزيدمن جهدى لكى أجعله يضاعف من تقديره واحترامه .

وقد خيل الى أننى قد وصلت الي هذا الهدف ، عندما صحبولده الينا لتناول الغذاء ، بعد أن استأذن فىذلك.

وبعد ذلك أصبح يتردد علينا كل يوم أحد ، ولم أجد صعوبة تذكر فى اجتذاب هذا الصبى ، الذى حرم مبكرا من العطف الانثوى .



كان فرانز باختياره للفيلا التى اقمنا فيها ، قد اثبت أنه يتمتع ببديهة ذكية .

فقد كانت باريس تمتد تحت اقدامى ، ولكن الحديقة بمنظرها الذى يوحى بأنها حقل صغير ، كانت تذكرنى ببيتى فى [ماجلون] . فلم يكن هناك بينحياتى الماضية ،

وتلك الحياة التى تتفتح الآن أمامى أى تناقض كبير ، كان يمكن للوهــلة الاولى أن يخيفنى ويجعلنى ألزم جــذرى .

لقد دخلت على مراحل ، وبغير أن أدرى ، فى عالم جديد كان يوحى الى بأشياء جديدة قاسية ، وهو العالم الذى كان يتعين أن أشعر نحوه سريعا بحب جنونى .

ولم يكشف لى فرانز ، الذى كان يحب هذا العالم فى جموح ، لم يكشف لى عن هذه الناحية من شخصيته الا قليلا قليلا ، وكلما بدأت أحبه بدورى .

وفضلا عن ذلك ، فان العمل فى البداية كان يستولى عليه كله طول النهار . وفيما بعد ، لم يعد هكذا ، غير أنه فى ذلك الوقت عندما كان يعود فى المساء مرهقا ، كان يشعرنى أنه ليس لديه سوى فكرة واحدة ، ورغبة واحدة ، هى أن يكون معى .

وكنت انتظره فى هذا الصالون الصغير ، فى هــذه الغرفة التى رأيت فيها اكثر لحظات حياتى حرارة ، أى اكثرها سعادة وهناء .

فياله من هناء عميق متبادل .

ان كل مايمكن لمخلوق أن يمنحه لمخلوق آخر ، قد أعطيته له ، وأقسم أننى قد نلت جزائى على ذلك . لم يبق فى جسدينا ولا فى قلبينا من سر يخفى على الآخر ، وفيما بعد ، أجل فيما بعد .. ولكن ما أهمية ذلك !

أن اللحظة التى أتحدث فيها عن أمور يرتعد جسدى لمجرد ذكرها ، أريد أن اترك فيها وشأنى ، لأعيش معها فى سلام . وماذا يهم كذلك ، اذا كنت قد رأيت ابتداء من تلك اللحظة ، الفجوة التى ظهرت فى ذلك الحلم

الجميل ، والتى أخذت تتسع يوما بعد يوم !

وفى الليل ، بينما كنت أهجع وقد أثقلتنى السعادة ، أستمع الى قطرات الماء تصطدم بأوراق الشجـر فى الحديقةبنفس الصوت الذىكنت اسمعه فى[ماجلون] فاننى لا أستطيع أن أمنع نفسى من تذكر المقبرة التى تقوم هناك ، وذلك الحجر الذى وضعت فوقيه آخر باقة من الزهور .

ولكن لكى أزيح جانبا هذه الاشباح عنى ، لم يكن على الا أن أستيقظ ، وأوقظ فرانز بمداعبته ، فينهض من مكانه الى جانبى ولا يزال النعاس فى عهنيه ، وأحمله على أن يأخذنى بين ذراعيه ، ويضمنى بقوة الى قلبه ، هذا القلب الذى رقدتفوقه كاميل ، تلك الطفلة البائسة التى تحطم صدرها .

الفصل العشرون

من بين الاعترافات ــ ويالها من اعترافات ــ التى ادليت بها هنا ، فان هناك واحدا على الأقل ، لم يكد يكلفنى أى عناء . فلقد وصلت الى سن الثالثة والأربعين بغير أن يكون لى ثوب سهرة واحد .

أجل ، فان الثوب الآخر ، أول ثوب فى حياتى ، وهو ذلك الذى ارتديته منذ خمسة عشر عاما وضعته بنفسى لحضوز ذلك الحفل الراقص ، لم يكن ثوبا بالمعنى الصحيح .

ومنذ ذلك الوقت ، وفى أقل من ثمانى سنوات ، حصلت على اثواب كثيرة ، لو أننى احصيتها لخانتنى ذاكرتى . ومع ذلك ، فان كل ثوب منها ، سواء كان مصنوعا من قماش فضى أو ذهبى ، من حرير أو ساتان ، من البروكار أو الفراء ، كان يمثل شعورا بالرضاء أو بالألم ، فصلا من الهناء أو من العذاب .

انهم يتحدثون عن خفة النساء وتفاهتهن ، غير أنهم لايدخلون أمرا واحدا فى حسابهم ، هو أنه ليست

النساء هن اللاتي يسعين الى تجميل أنفسهن ، وانما هو الحب الذى فى قلوبهن .

ان مظهرهن الخارجي ليس شيئا فى حد ذاته ، فلا قيمة لهذا المظهر الا اذا جذب اليهن انتباه الرجال ، وجعل أنظار الرجل الذى يحببنه تظل عالقة بهن .

فما الذى جعلنى أرغب فى أن اكون أجمل من الأخريات ؟

اننى أفعل ذلك لكى املأ فرانز فخرا ، ولكى يكون لى الحق لأقول له :

ــ كن مطمئنا ياحبيبى .. .. فانك قد أحسنت باختيارى .

اننى أفعل ذلك لكى اقتسم معه شعوره بالفخر ، عندما ندخل أحد المطاعم أو المراقص أو المسارح ، فتحيط بنا الهمسات أو الصمت البليغ من جانب الحاضرين ، وهم يرون جسدى نصف العاري ، فتبدو هذه الهمسات أو ذلك الصمت كالهالة التى تحبط بالضوء البهى .

وفيما بعد ، عندما أيقنت أن سلطانى عليه قد أصبح أقل بعض الشيء من ذي قبل ، فانني رغبت فى أن أكون أكثر جمالا ، أكثر جمالا دائما ، لكى أحاول اثارة غيرته ، ولكى أرى اذا ما كان لايزال قادرا على أن يتعذب من أجلى .

من كل تلك الأثواب كان هناك اثنان ، احتفظت لكل منهما لأسباب مختلفة ، بذكرى حية . فقد كان أولهما يسمى فى مجموعة بيت الازياء الشهير الذى اشتريته

منه .. « حديقة تحت المطر » .. وكان ثوبا من الدرجة الاولى . كان من المخمل الوردى الخفيف ، الذى يبدو من فرط خفته أبيض ، تكسوه خيوط من الفضة .

ولقد كنت أنا وحدى التى اخترته ، وكنت أتيه فخرا بأن أجعل منه مفاجأة لفرانز ، الذى كان يسر عادة من أن يصحبنى فى أوقات فراغه من العمل الى دور الخياطات المشهورات .

وقد سلموه لى حوالى الساعة السادسة ، وكنا فى نهاية الربيع ، فارتديته فى غرفتى ، ثم أشعلت الاضواء وأخذت أنتظر وقلبى يدق منتظرا مجىء فرانز .

ودخل فرانز ورآنى ، ثم سارع بسؤالى :

ـــ ما هى الحيلة التى سترتدينها مع هذا الثوب ؟

كان ذلك صحيحا ، فلم أكن قد فكرت فى ذلك ، فأحسست بشىء من الاذلال .

غير أنه فى اليوم التالى ، قال عندما عاد مبكرا عن موعد الأمس :

ـــ فليعيدوا ثوب السهرة الخاص بى .. فسوف نخرج هذا المساء . لقد دعوت بعض الاصدقاء الى العشاء فى « كافيه دى بارى » ، وبعد ذلك سنقوم بجولة فى بعض الملاهى الليلية .. فارتدى الثوب الجديد .

واطعت ماقال . ومع ذلك فقد كنت أشعر أن فى كلماته ، وفى الجهد الذى بذله لكى تبدو طبيعية ، شيئا ما غير طبيعى .

وعندما أصبحت متأهبة ، ورحت أنتظره وأنا واقفة

فى وسط الغرفة ، دخل واحدى يديه خلف ظهره . ظللت واقفة بدون حركة ، فطبع على كتفى قبلة طويلة ، قبلة لانهاية لها ، بدأت من عند نهاية شعرى لكى تنحدر فى حرارة رطبة على طول ظهرى حتى نهايته .

كنت لا أزال واقفة أمام المرآة ، بغير أن اتحرك من مكانى ، فرأيت عقدا من اللؤلؤ الوردى يحيط بعنقى ، ويتدلى على صـدرى . وكانت شفاه فرانز لاتزال ملتصقة فوق جسدى ، بينما أمسكت يداه بيدى ، ووضع فى أصبعى خاتما ، لم أستطع حتى تلك اللحظة أن أتبينه .

قال هامسا :

ــ البرتا .. هذا خاتم لا لؤلؤ فيه .. ولا أحجار كريمة .. ولا أحجار من أى نوع .. أريد أن أراه فى إصبعك .

وجذبت يدى ، فاذا بلؤلؤة وردية تبرق ، يبلغ حجمها ضعف حجم أكبر لؤلؤة فى العقد .

اواه .. يالذلك الخاتم الذى كنت أضعه فى أصبعى مساء الحفلة الراقصة أيام كنت متزوجـة ، ذلك الخاتم المتواضع الذى حصلت عليـه يوم خطبتى ، بلؤلؤته الصغيرة .

والحق انها مسافة صغيرة ، تلك التى تفصل بين أكثر النساء احتراما ، وبين أدنى بغى .

اننى لازلت أرى ذلك المساء ، تحت الأضـواء فى غرفتى ، خيوط الفضة التىتتدلى على ثوبى ، ثم نظرات الاعجاب تحوطنى عندما كنت أهم بالجلوس على مقعدى

فى المطعم ، وكنا قد تأخرنا ربع الساعة عن الموعـد الذى ضربه فرانز لأصدقائه .

أما الثوب الثانى فقد حصلت عليه بعد ذلك بكثير ، وكان بدوره جميلا . وليس هذا هـو السبب الذى يجعلنى أتحدث عنه ، انما السبب هى الظـروف التى صاحبت ارتدائى له فى السهرة الاولى .

وكزميله الأول ، كان بدوره من المخمل ، ولكنه كان فى هذه المرة ذا لون أخضر ، يتراوح بين لون الطحلب ولون المياه الراكدة ، أما حزامه فكان سلسلة ثقيـلة من الذهب .

وكان مفتوحا من جانبيه حتى أعلى الساقين ، وعلى كل فتحة شريط من الذهب . وأعتقد أننى لم يسبق لى أن ارتديت مثل هذا الثوب المفتوح من صدره ، وكنت قد اخترت هذين اللونين ، لكى ينسجما مع لون شعرى الأشقر ، الذى جعلته قصيرا ، وقال فرانز انه قـد أرجعنى الى الوراء عشر سنوات .

وبينما كنت أدخل فى ذلك المساء الى شرفة مطعم « بوا » الفخم ، بحثا عن مائدة مسيو (اكس) وعدد من الأصدقاء كانوا فى انتظارنا على العشاء ، طارت أفكارى فى لذة مريرة الى أهل [ماجلون] ، والى جميع اولئك الذين نشأت وسطهم الى أن جئت الى باريس ، شبحا حزينا يرتدى ثياب الحداد ، وامرأة دب الكبر فيها قبـل الاوان ، بضفائرها السوداء التى وخطها الشيب .

ولو أن اولئك القوم قد جاءوا الى هـذه الشرفة ، وبين هذه الثريا المتلألئة وأكداس الزهور ، وبريق الحلى والزينة ، وضجيـج الموسيقى ، لكان من العبث أن

يتعرفوا على فى هذه الحسناء التى تتمايل فى مشيتها ، والتى تحولت اليها .



فى صباح نفس اليوم الذى أتحدث عنه ، كان قد تم افتتاح صالون السيارات ، الذى أسفر عن نصر باهر للسيارة التى صنعها فرانز .

وبمناسبة هذا النجاح ، دعا مسيو [اكس] نحو عشرين من الاصدقاء ، للاحتفال فى ذلك المساء به ، بتناول طعام العشاء معنا .

وكان الليل ساحرا عذبا ، والاضواء تتلألأ بصورة لم تعهد منذ بداية الحرب . وظلت شفتاى منفرجتين لكى أبتسم بدون توقف ، وهو ابتسام من فرط سعادتى أكثر منه للذين يحيطون بى ، هذه السعادة التى لم أكن أتصور حينئذ أنها يمكن أن تزول يوما من الأيام .

وعندما خلعوا عنى معطفى ، اذا بجميع المدعوات يلهجن بالثناء على ثوبى . وتطلعت الى فرانز ، الذى كان جالسا ووجهه الى ، بين سيدتين جميلتين أنيقتين .

لم أشعر بأى غيرة منهما ، بل أحسست لهن بالاشفاق ، من فرط الثقة فى جمالى ، الذى استطاع أن يطمس فى تلك اللحظة هذه وتلك .

وحوالى منتصف الليل ، وكان العشاء قد انتهى منذ وقت ليس بالقصير ، قال البعض مقترحا :

ـــ اننا بدأنا نشعر بالاختناق هنا .. فماذا لو انتقلنا الى الارميتاج ؟ ان الذين يحبون الهدوء سوف يجدون جلسة مريحة ، ونسيما عليلا . أما الآخرون فيستطيعون

أن يرقصوا ..هل توافقون ؟ اذن فليحضروا الملابس.. ولتعد السيارات .

وأصبحنا الآن مجتمعين كلنا للحظات فى الردهة ، وكان الرجال يساعدون السيدات على ارتداء معاطفهن. ثم برزت السيارات واحدة وراء الاخرى من الظلام ، وقد وقف رجل على الرصيف ليفتح باب كل سيارة .

كانت سيارتنا الليموزين على رأس السيارات ، وصعد فرانز وأخذ مكانه أمام عجلة القيادة ، وهممت بأن أتبعه عندما أمسك مسيو [اكس] ذراعى قائلا :

ــ توقفى اذا سمحت .. لابد لنامن شى من الخيال فى هذا المساء . علينا أن نفرق بين كل زوجين ، وسواء رضى فرانز أو لم يرض ، فأننى سأحتفظ بألبرتا معى . وانت يا عزيزتى اصعدى الى هذه السيارة .. وأنت ياسيدتى فى تلك . هل لأحد اعتراض ؟ كلا ؟ اذن كل شىء على مايرام .

قال فرانز ضاحكا :

ــ أننى اخضع لهذا الحكم .

ــ رائع .. وأنت يا ألبرتا .. اعطنى ذراعك .. اننا نحن الذين سوف نوقف حركة المرور . اننى أضحى بسيارتى ، ونستقل عربة روجيه . ألديك ثلاثة أماكن يا روجيه ؟

انحنى روجيه قائلا :

ــ ثلاثة اماكن فقط .. لا اكثر ولا اقل . ولن أقول لك ياسيدى أى سيارة هى ، وانما سأقدم لك مفاجأة. أما أنت ياسيدتى فأحذرك أنها سيارة مكشوفة .. الن

تشعرى بالبرد ؟

ـــ فى مثل هذا الجو ؟ على العكس .. سوف يسرنى أن أتلقى بعض الهواء .

ـــ أتسمع ياصغيرى روجيه ؟ اسرع اذن وابحث عن سيارتك هذه ، فقد سبقتنا السيارات الاخرى ، وسوف نرى اذاكنت قادرا على أن تسبقها .

وظللت وحدى على الرصيف مع مسيو [اكس] ، الذى همس فى أذنى قائلا ،

ـــ لقد كنت جميلة هذا المساء يا ألبرتا .

ابتسمت ، فمضى يقول :

ـــ أجل .. جميـــلة جدا . أتعرفين أنك تزدادين شبابا كل يوم ؟

أجبت ببساطة :

ـــ اننى سعيدة.

ـــ سعيدة .. انك على حق . هـــل تدركين أنه لاحديث فى عالم السيارات الا عن فرانز ؟ ان النتائج التى ستترتب على النجاح الذى أحرزناه اليوم بفضله ، لا حدود لها .

كان يتكلم بتلك اللهجة البرمة التى لم يعرف كيـــف يتخلص منها قط عندما يتوجه بالحـــديث إلى . وفجأة تبدل صوته ولهجته ، ثم تناول يدى وسألنى فى قلق :

ـــ ألبرتا .. ماذا هناك ؟ ماذا بك ؟

ـــ أنا ؟ لا شىء .

ـــ لقد رأيتك الآن ترتعدين .. ربما من برودة الجو.

لقد انزلق معطفك ، وكتفاك عاريتان .. فغطيهما .
اننى أخشى أن أجعلك تصعدين الى سيارة روجيه ،
أتسمحين بأن أنادى احدى سيارات الأجرة ؟

وفي جهد كبير استطعت أن أجيب بصورة تكاد تكون طبيعية ، فقلت :

ـــ على الاطلاق ، بل على العكس أتمسك بركوب هـــذه السيارة . اننى أفهم الآن ماذا كان يقصد مسيو روجيه ، عندما كان يحدثنا عن احدى المفاجآت .

فهتف مسيـــو [اكس] قائلا ، بينما كانت سيارة روجيه تتوقف :

ـــ فعلا .. لقد فهمت . هاهى بطلة اليوم .. كل تهانئى لك . وأنت يا روجيه .. أرجو أن تكون سيارتك كما ينبغى .

قال روجيه :

ـــ لقد اشتريتها بعد ظهر اليوم ، وجئت بها فورا الى حفل العشاء الذىأقمته ، ولا يدرى أحد بعد أنى حصلت عليها . انها معجزة ياسيدى العزيز .. انها معجزة .

وتجمع عدد من السائقين حول السيارة ينظرون اليها فى اعجاب ، وراح اسم فرانز يتردد على السنتهم .

ومد مسيو [اكس] مرفقه لى وهو يقول :

ـــ ها هو المجد !

وأخـــذ يدور حولها وكله شـــعور بالفخر ، وراح يتحسسها فى رفق ، كما لو كانت حيوانا ضخما أليفا . وأخـــذت بدورى أنظر اليها ، لقـــد كانت هى نفس السيارة التى جاء بها فرانز الى [ماجلون] ، فيما

عدا أن لونها هذه المرة يختلف . انها نفس الوحش الصغـــير .

حاولت أن أفر منها ، ووقعت عيناى على يدى اليمنى ، وفيها ياقوتة حمراء كان فرانز قد أهداها لى هـــذا الصباح بالذات ، فخيل الى أنها بقعة من الدماء .

دماء .. دماء .

كانت هـــذه الياقوتة مصنوعة من الدماء ، وكذلك الرفاهية المروعة التى أصبحت سجينة لها .



هكذا كانت حياة البرتا التعسة خلال ثمانية أعوام . تتردد بين الشعور باللذة ثم الشعور بالاشمئزاز ، بين الأمل الكاذب والاحساس بالندم .

ولقد حاولت أن أفعل ككل ما من شأنه أن يجعـــل المخلوق البشرى يتناسى كل شىء وينشغل بنفسه ، ويفر من الأشباح التى تطارده . وقد خيل الى فى بعض الأحيان أننى نجحت فى ذلك .

ولكن .. ياله من نجاح .

ففى صميم البهجة التى كانت تزداد قبحا ، والتى كنا نحمل أنفسنا عليها ، مما جعلنا عبدين مكبلين بأبشع القيود واكثرها مقتا وكراهية .. فى ذلك الهرج والمرج الذى كنا نلقاه داخل الملاهى التى نتردد عليها ، والاضواء والضحكات ، كان الواحد منا يصمت فجأة وقد اعتراه الوجوم ، ووضع يده على قلبه ، بغير أن يجرؤ الآخر على مجرد سؤاله عما به .

عند ذلك يلوح لى كأننى أرى من يدخل علينا القاعة ، ثم يتجه نحونا ، ويشير الينا أن نتبعه .

وفى خلال هذه الأعوام الثمانية ، لم يمض يوم واحد، الا وتصورت أننى أصغى الى وقع خطوات العقـــاب قادمة ، ولكننى لا أعرف متى تصل الينا ، ولا القنـــاع الذى تتخفى وراءه .

غير أنه لم يخامرنى أى شك فى مجيئها المحتوم .

الفصل الحادي والعشرون

ينبغي لي الآن أن أفتح قوسا ، وأوضح بعض النقط في العلاقة التي تربطني بفرانز .

ولقد يمكن تصور أن عاطفة كتلك التي جمعت بيننا طويلا كان أساسها ثقة مطلقة ، ولكن هـذا قد يكون صحيحا ، وقد لايكون .

انه صحيح بالقياس الى ماهى عليه عادة العواطف الانسانية البسيطة ، وهو ليس صحيحا لأن هناك أمرا لم نحاول قط أن نلمسه أو نقترب منه .. كاميل .

كاميل !

وليست هي فقط ، وانما كل ماترتبط بها بأى صورة من الصور ، كان يجعل اسمها يبرز في الأحاديث التي تجرى بيننا ، اذ كانت بيننا أفكار وتأملات مشتركة .

لقد تحدثت في الصفحات الماضية عن سعادتي ، والتباهي بها ، وأعلنت أنه ما من امرأة على ظهـر الارض نالت مثل هذه السعادة .

غير أن لفظ كاميل وحده ، هذا الأسم بمفرده ، هو الذي جعـل سعادتي هشة بائسة قابلة للتحطيم .

فوا أسفاه .. ان كل القضية هنا .

وعندما تبدأ هذه المرحلة ، فلا يعتمد عليها أحد لينبثق منها مايسمونه فى اللغة القضائية بالاعتراف ، فان مخلوقا مثل فرانز لايعترف قط . غير أننى سوف أوجه اليه سؤالا واحدا ، أريده أن يجيب عليه وهو :

ــ لماذا كان هذا الصمت الذى دام ثمانى سنوات حول اسم احدى الفتيات ، خطيبة ماتت ؟

ان مثل هذا الصمت سوف يعرف الجميع ماهــو الثمن الذى دفع للحصول عليه ، وما هو الجهــد الذى بذل للأبقاء عليه ، وهو قطعة دائمة من العذاب عشنا فيها الواحد قرب الآخر .

وعندما لم أستطع الصبر اكثر من ذلك ، كان على أن أحطم هذا الصمت . فهل يلومنى على ذلك أحد ؟

ان البشر ليس من شأنهم أن ينزلوا من العقاب مثل الذى تحملته ، حتى اللحظة التى صحت فيها أعلن عن عارى . ولكن عليهم كذلك ألا يتصوروا أننى أتوقع من هذه الصيحة أن تبرىء ساحتى ، فاننى أعرف تماما مادفعنى الى ذلك .

اننى أعلم تماما ، أنه لولا الغيرة ، فان الندم ماكان ليفتح هذا الغم الذى أغلق على هذا السر الرهيب .

لقد أصبح انفراد أحدنا بالآخر مع مضى الوقت أمر لايحتمل ، ولست أستطيع أن أصف العذاب الذى تحملناه ذلك العذاب الذى ماكنا نقدر على الفرار منــه الا فى العنــاق .

فحتى النوم كان قد أصبح نوعا من الجحيم ، وعندما كان يأتى الليل ، فاننى كنت أستيقظ واثبة ، فأرى فرانز منحنيا فوقى ، محاولا انتهاز فرصة انفراج تقاطيــع

وجهي المؤقت ، لكي يقرأ فيـــه أي شيء من الاسرار التي أكتمها .

وكنت بدوري أفعل نفس الشيء ، اذ كنت أبذل جهدي لكي أخترق سر ذلك الوجه النائم ، وكانت نظراتي من الحدة الى درجة أنها كانت توقظ فرانز من سباته .

ويا لتلك الابتسامة الرهيبة التي كانت ترتسم حينذاك على وجهه ، هــو الرجل القوي المتحكم في أعصابه . وكان يقول :

ــ ماذا بك يا حبيبتي ؟

ــ لاشيء .. أؤكد لك أنه لا شيء .

وفي بعض الأحيان ، كان يحدث شيء آخر . فقــد كنت أسمعه يتمتم في أحلامه بعبارات غير مفهومة ، وعند ذلك أمسك أنفاسي في حذر ، واروح أنصت اليه .

ومتى جاء الصبـــاح ، أسأله وأنا موزعـــة بين الاشفاق له والقسوة عليه :

ــ ماذا كان بك هــذا المساء ؟ انك لم تتوقف عن الكلام .

ويقول هو في نفس الابتسامة المتوسلة :

ــ حقا ؟ حقا ؟

وكان هذا كل شيء . ولم يجرؤ قط على أن يسألني عما يمكن أن يكون قد قاله .

فهل كان هذا الحدس العابر مايرضيني ؟ لقد كانت هناك أسباب خاصة بي ، تجعلني أراه كافيا ، ولــكن هل يرضى الآخرون بذلك متى حان الوقت ؟

من هنـــا رحت أبحث عن أدلة ملموسة ، فلماذا تصرفت هكذا ؟

وهل أدري لماذا ؟ ان الحكم الذي سوف يصـــدر ،

قد يكشف لى أنا نفسى عن الدوافع التى حركتنى . فهل تكون هى الندم ، أم الحاجة الى المعرفة ، أم الانتقام من هجر فرانز لى ؟

انى أكرر هنا بأنى أجل الدافع الحقيقى الذى جعلنى أفعل مافعلت ، وهذه هى الوقائع ، ومنهـا يتضح كل شىء .



ان الأحداث التى أرويها الآن وقعت خلال الفترة الثالثة التى أمضاها فرانز فى أمريكا .

كان مجلس ادارة الشركة قد طلب منه ، بناء على اقتراح من مسيو [اكس] ، للمرة الأولى أن يذهب الى امريكا ، لدراسة وسائل الدعاية فيها لترويج السيارات ولم يقبل فرانز هذا الا مرغما .

ذلك أنه فى ذلك الوقت لم يتصور أن يكون قادرا على البعد عنى ، حتى وان كان لعدة أسابيع . وكنت أنا التى قررت له أن يذهب . وقد أراد أن يصحبنى معه ، فرفضت هذا العرض ، اذ شعرت أنه لايرضى مسيـو [أكس] ، الذى كنت لا أزال أبذل جهـدى لاكتساب عطفه وتقديره .

وكانت لرحـلة فرانز نتائج مثمرة ، ممـا جعلهم يرجونه بأن يذهب مرة أخرى فى العام التالى . وقـد وافق على الذهاب هذه المرة ، بغير أن يأخذ رأيى ، مكتفيا بأن عرض على مرة أخرى أن أصحبه فيها .

وعندما سافر للمرة الثالثة ، اكتفى بأن ابلغنى بالامر وأضاف أنه لن يتغيب الا ثلاثة اسابيع . ولم أستطـع أن ارفض الذهاب معه ، اذ أنه لم يعرض على مصاحبته

وكان فى هذا . ، وينبغى ان أقوله بصفة عابرة ، شىء ذا طبيعة حملتنى على التفكير . ومن أسف أن ذلك لم يكن المرة الاولى .

وفى أثناء هذا الغياب ، كنت أدعى كمـــا حدث فى المرتين الأخريين الى تناول العشاء مع مسيو [اكس] ، وفى خلال ذلك أحسست بوجود خطر يقترب .

كان مسيو [اكس] قد أصبح ، بغير أن يدرى ، شخصا آخر مختلفا . فبينما كان خروجـــه معى فى الماضي نوعا من الراحة له ، اذا به يصبح فيه مايخيل الى المرء أنه يضايقه .

وبدعوى أن يرينى بعض الملاهى الليلية ، التى نجـــد فيها مكانا أفضل لتبادل الحديث ، قادنى الى الضفـــة اليسرى من نهر السين ، حيث مطاعم النباتيين ، وحيث العزلة التى تزيل قلقه من أن يقابل احدا وهـــو فى صحبتى .

واذا كان اختياره هذا نتيجة لتفكيره بهذه الطريقة ، فقد كان يلطف منه أنه يريد أن يتحدث معى . غير أنه لم يفعل ، وفى هذا الجو البارد العارى ، يعكف رفيقى على الصمت العميق الذى يبعث فى فجأة الرغبة فى أن أنهض وأنصرف .

ولقد فهمت على ضوء الأحداث التى تلت ذلك ، الى أى حد كان يذهب مغزى التغيير الذى طرأ على موقفه . اما الآن فاننى لا أحس الا بشعور من الحزن الغامض ، والرغبة فى أن اترك بمفردى ، وبأسرع مايمكن ، وأن أعود الى بيتى ، على أمل فى أن أجد رسالة قادمة من نيويورك ، أى من فرانز .

وذهبت يوما آخر لتناول طعام العشاء مع مسيو

[اكس] فى مطعم مواجه لمحطة أوستر ليتز ، وكان كل منا يبذل مجهودا واضحا فى الحـديث . وتذكرت الايام التى كنا نتناول فيها العشاء معا منذ عامين ، ولم يكن مسيو [أكس] يجد عندئذ أى صعوبة فى أن يدخل اسم فرانز بصفة دائمة فى أحاديثنا ، وكان فى ذلك الوقت يحثنى على الزواج منه .

كان يقول :

ــ لايمكن لكما أن تظلا هكذا ياعزيزتى الصغيرة .. اننى أعلم أن الأعتراض لايأتى من ناحيته .. وانما من ناحيتك . فهل لك أن تقولى لى السبب ؟

وكنت حينئذ أشعر قليلا بالضيق وأبتسم ، وأحس فى قرارة نفسى بالسعادة ، فأشير الى فارق السن الذى بيننا .

وكان مسيو [اكس] يعمد الى الضحك ، ويرد على باحدى المجاملات التى تنطوى على الاحترام والالفة فى نفس الوقت ، ولكن فى بساطة مصطنعـة ، لم يكن يصعب على أن ألمس فيها ذلك الشك الذى سـوف يسيطر على العلاقات بين الرجال والنساء الذين يحتجون بعدم الارتباط فيما بينهم الا برباط الصداقة .

واليوم .. ماالذى تغير اذن ؟

اننى لم أكن قد تقدمت فى السن فى ذلك الوقت ، وكانت هـذه هى الاسئلة التى كنت أهم بطرحها على نفسى ، عندما راح مسيو [اكس] يبذل المستحيل ، لكى يجعل الحديث يظل دائرا حول موضوعات غير شائكة .

وبين الوقت والآخر كان يحدثنى عى الاضرابات ، وعن الضرائب على الارباح التى حققت فى الحرب ، وعن أهمية الاجراءات التى لابد من القيام بها للحصول

على براءات الاختراع .
قال :

ـ أجـل ياعزيزتى .. ان الامر هكذا . انك لاتتصورين الدور الذى تلعبه الصدف فى هذا المجال ، انهم يستشهدون على ذلك بقصة اختراع التليفون فى أمريكا . فقد توصل الى هذا الاختراع اثنان من الباحثين المختلفين فى وقت واحد ، وتقدم كل منهما فى نفس اليوم لكى يسجل اختراعه . لقد كان الفارق بين الموعد الذى تقـدم فيه أحدهما قبل الآخر سـاعـة أو بعض السـاعة ، وهكذا حصل الاول على كل شىء ،ولم يحصل الثانى على شىء على الاطلاق . ولنأخذ مثالا آخر ، يتعلق بنا شخصيا . فلو أن فرانز كان فى الفترة التى توصل فيهـا الى المبدأ الاساسى الذى تقوم عليـه سيارته ...

ـ وهل حصل فرانز على براءة اختراع لسيارته ؟

ـ انه لم يحصل على براءة واحدة ، بل حصـل على أربع منها ، وكان ذلك منه منتهى الحذر ، اذ أن السيارة التى توصل الى صنعها كانت تضم أربعـة اكتشافات جديدة ، هى طريقة تغيير السرعة والمحرك الخلفى والفرامل ذات التحكم الذاتى ...

رفعت رأسى وانا اقاطعه :

ـ هل حصل فرانز على براءة اختراع خاصة لطريقة الفرامل فى سيارته ؟

قال مسيو [اكس] وقد سره أن وجد أخيرا موضوعا يبدو أننى أهتم له :

ـ لقد حصل على احـدى البراءات ، والواقع أن جهاز الفرامل الذى ابتدعه يعتبر فتحا جديدا فى هذا

الميدان . هل تودين ان اشرح لك الامر بصورة أوسع ؟
وفي لهجة يبدو فيها عدم الاهتمام الشديد أجبت :
ــ كلا .. ان الأمر لايستدعى ذلك ، انك تعلم أن هذه الأمور بالغة التعقيد بالنسبة لى . اذن فان براءات الاختراع التى تحدثنى عنها تشبه ، اذا كنت قد فهمت جيدا ، وثائق الرهون على العقارات ، يمكن لأى انسان يشاء ان يتحقق من التاريخ الذى تبرم فيه .. أليس كذلك ؟
قال مسيو [اكس] الذى أزداد سرورا :
ــ بالضبط . ان فرانز يستطيع أن يكرر لك ماقلته عنك ، وهو أنك تفوقين الكثيرين فى الذكاء ..
تمتمت قائلة :
ــ شكرا لك .
وعملت بعد ذلك على تغيير الحديث .



كان فى المصانع عامل ممتاز يدعى [رينو] ، تعرف عليه فرانز أيام الحرب ، ثم أوصى عليه مسيو [اكس] فى وقت لم يكن قد أصبح بعد شريكا له .
وكان رينو بذلك اول وأقدم عامل فى الشركة . ولما كان فتى طيبا ، على شىء من البساطة ، فانه قد برهن لفرانز أنه لا يزال معترفا بجميله . وكان هو الذى كلفه فرانز بتركيب الاجهزة الكهربائية فى الفيلا التى نقيم فيها .
وكنت ألجأ عادة الى الاستعانة به فى كل مرة يحدث فيها عطب فى الاضاءة أو مواسير الغـــاز أو التدفئة المركزية ، كما أنى قد حصلت على ثقته ببعض اللفتات التي يسهل أن يجتذب بها رجل من ابناء الشعب . ولم

يكن من قبيل المبالغة أن أقول ان رينو لم يكن يقسم الا باسمى .

وفى اليوم التالى لليوم الذى تناولت فيـــه طعام العشاء مع مسيو [اكس] ، وفى وقت مبكر ، اتصلت تليفونيا بالمصانع ، ثم طلبت رينو .

قال :

ـــ أى خدمة أستطيع أن أؤديها لك ياسيدتى ؟

ـــ ان أحد الاجراس قد توقف يارينو ، وانا فى انتظارك فى أسرع وقت ممكن .

ـــ سوف أصل فورا .

وبعد ذلك بأقل من نصف ساعة ، كان قد جاء . قال :

ـــ هل لدى سيدتى أنباء من مسيو فرانز ؟

ـــ انها أنباء رائعة . فبالأمس فقط تلقيت رسالة منه ، ولهذا الأمر بالذات طلبت مجيئك .

ـــ انك تعرفين ياسيدتى أنى دائما فى خدمتك .. أين الجرس ؟

ـــ انه يسير على أحسن مايرام يارينو ، ولكن كان لابد لى من ذريعة لاستدعائك . ان فى استطاعتى أن أقص عليك كل شىء .. أليس كذلك ؟

ـــ هل المسألة تحتاج إلى هذا السؤال ؟

ـــ اذن اليك مالدى . قلت لك اننى تلقيت رسالة من فرانز بالامس ، الذى يقيم الآن فى نيويورك . أين هى اذن ؟ ها هى .. انه يطلب منى خدمة ، وأعترف أننى لم أدرك جيدا ماذا يريد ، ولذلك استدعيتك . انك تعرف بطبيعة الحال شئون المصانع .

ـــ أعرف الكثير ياسيدتى .. اننى أعرف أنى لم أتلق الا قسطا ضئيلا من التعليم ، ولكن بفضل مسيو فرانز

فقد كنت من اوائل الذين التحقوا بالمصانع ، وما لم أكن غبيا ..

ـــ اتفقنا اذن يارينو على أن ما سأقوله لك سوف يظل فيما بيننا . ان مسيو فرانز هناك كما تعلم ، من أجل شئون خاصة بالمصانع ، وهو فى حاجة الى معلومات ليست تحت يده . أجل .. أنه يريد معرفة التاريخ المضبوط الذى حصل فيه على احدى براءات اختراع أحد أجزاء سيارته . ولا بد أن لديه من الأسباب مايجعله يكلفنى بهذه المهمة ، أى أنه لايرغب أن يعرف أحد شيئا عن هذا الامر . وقد فكرت فى الذهاب الى محفوظات براءات الاختراع للحصول على هذا التاريخ، ولكنى خشيت ألا أعرف كيف أشرح لهم الامر أو أن أبدو فى نظرهم مضحكة . وفى اختصار فاننى لمعرفتى بكتمانك وولائك ..فضلت أن ألجأ اليك .

ـــ ان سيدتى على حق .. غير أن براءات الاختراع ليست من اختصاصى ، ولو أنى على علاقة طيبة برئيس الحسابات الذى يدخل هذا فى اختصاصه . سوف أحاول الحصول على المعلومات التى تريدينها بغير أن ألفت الانظار ، والا فاننى سوف أذهب بنفسى الى المحفوظات . أى براءة هى ؟

ـــ الخاصة بالفرامل الذاتية .

أضاء وجه رينو وقال :

ـــ الفرامل الذاتية ؟ ان سيدتى قد أحسنت الاختيار ، اذ أننى على معرفة بها ، فقد كنت أنا الذى قمت بالاجراءات الخاصة بالبراءة الثانية ، وكان مسيو فرانز حينئذ غائبا ، فكلفنى بها .

ـــ البراءة الثانية ؟ هل هناك اثنتان ؟

ــ أجل ياسيدتى .. هناك براءة اختراع خاصـــة بالفرامل ذاتها ، وهناك اخرى للجهاز الاتوماتيكى الذى ينبه عند نقص الزيت فى القناة ، وهذا النقص يجعل الفرامل لا تعمل .

كان لايزال فى ابتهاجه ، ولم يفطن الى أصابعى وهى تتشنج على ظهر مقعدي ــ قلت :

ــ هو ذلك يارينو ، هو ذاك بالضبط .

ــ سوف تحصلين ياسيـــدتى على المعلومات التى تريدينها اليوم ، فسوف أبلغك تليفونيا عن التاريخ من المصانع ، وسوف أعرفه بسهولة من المكتب . فقـــد طلبت بالفعل فى ذلك اليوم اجازة لكى أستطيع القيام بالاجراءات . انى أستطيع أن أقول لك منذ الآن ذلك التاريخ بالتقريب ، وهو فى الايام الاولى من شـــهر سبتمبر من أول عام تأسست فيه الشركة ، وأذكر اننى بعثت الى مسيو فرانز الذى كان مقيما فى الريف بعض الأدوات التى كان فى حاجة اليها ، لكى يزود سيارته التى كانت معه بأحد الاجهزة المنبهة .

ــ شكرا لك يارينو .

وهكذا كان هناك رجل ، يمكن أن يدلى بشهادته عند الحاجة ، فمنذ شهر سبتمبر من العام الذى كان فيـــه فرانز يعيش معنا فى [ماجلون] ، كان قـــد اخترع الجهاز الاتوماتيكى الذى يبين نقص الزيت فى قنـــاة الفرامل .

وتسلسل الوقائع شيء عادى وميسور ، ويمكن تعقبه والوقوف على تفاصيله . فانه بعد أن زود سيارته بهذا الجهاز ، عمد الى افراغ الزيت ، حتى يقتل كاميل .

بيد أنه لم يفطن الى خطأين وقع فيهما ، الاول أن

باب الجراج أحيانا مايكون مصنوعا من الزجاج ، والثانى أن الزيت الذى أفرغه سقط على حذائه فلطخه .

قلت لرينو مرة أخرى :

ــ أشكرك .. وتذكر أن كل هذا يجب أن يظل سرا مكتوما ، فلا تتحدث فيه الى أحد ، وحتى عندما يعود مسيو فرانز ، عليك أن تنتظر حتى يحدثك هو فيه أولا .

قال رينو بلهجة من فهم :

ــ يمكن لسيدتى أن تعتمد على .

ووضع كل منا اصبعه على فمه ونحن نبتسم .

وحان وقت انصرافه ، وكان الارهاق قد بلغ منى مبلغه

الفصل الثانى والعشرون

ترى هل بدأت أشعر بالتقزز ؟

لاشك فى أن من العسير على أن أقرر بصورة قاطعة حدود مملكته التعسة ، كل ماهنالك أن بعض الوقائع التى تحدث بين الوقت والآخر ، والتى لاتلتفت اليها عندما تقع ، تتجمع فجأة ، ثم تأخذ قيمتها الحقيقية .

لقد ظللت فترة طويلة بغير أن أفهم ، أو بمعنى آخر وأنا أبذل الجهد لكى أخادع نفسى . وعلى حين فجأة ، اذا بالشك يزول ولا يعود له وجود .

وعند ذلك وددت أن أموت ، أجل .. أن أموت ، ولكن ليس قبل أن أنتقم .

اننى أحاول عبثا أن أعثر ، بين ثنايا السنوات الست التى قضيتها فى باريس مع فرانز ، على الوقت الذى بدأ فيه يتباعد عنى ، فان كل شىء يتداخل ويختلط .

ذلك أنه بعد تلك الاسابيع الفاترة ، أو التى عمرت بالعداء ، جاءت بعدها أسابيع أخرى لم تجعلنى على الاطلاق أشعر بالاسف على الليالى الحارة التى قضيناها فى [ماجلون]

انى أجهل ذلك الوقت على وجه التحديد ، وبعد .. فما جدوى ذلك ؟ على أنه لكى أتخلص من هـذه الحيرة أقول ان ذلك الوقت كان خلال الفترة التى أقام فيهـا فرانز فى أمريكا للمرة الثالثة ، والتى وقع فيها النفور بينى وبين مسيو [اكس] ، والتى بدأ فيها فرانز ينتحل الاعذار لكى يتغيب عن الفيلا ولا يتردد عليها فى انتظام كما كان يفعل من قبل .

وفيما يتعلق بالظروف التى أدت الى القطيعة بينى وبين مسيو [اكس] ، فاننى كنت من السذاجـة الى الحد الذى اعتقدت معه فى بداية الامر ، انها جاءت نتيجة للصدفة ، بينما كانت فى الحقيقة عمـلا مدبرا مقصـودا .

لقد كنت ضحية لخطة وضعت باحكام ، خطة كان الهدف منها تصفية الماضى ، من أجل حساب المستقبل .

ومرة أخرى فاننى لا اريد أن أحمـل على مسيـو [اكس] ... ان ميراثى ، والاعـوام الاربعين التى انقضت من حياتى كواحدة من الطبقة البرجوازية أضعها للدفاع عنه ، ولكى أجبر نفسى على أن أعترف بانه كان من العسير عليه أن يفكر وأن يتصرف بطريقة أخرى .

كان قد مر وقت طويل فى تلك الفترة ، بغير أن يطلب فرانز منى أن اتزوجه . وقد حاولت أن أقنع نفسى أن ذلك جاء نتيجة لوثوقه من عدم جـدوى مساعيه التى توقف عنهـا .

ومهما يكن ، فان الاوهام التى كنت أنسجها فى هذا الشأن كانت من العبث ، وادركت أننى أصبحت الجانب غير الشرعى فى حياته . لقد كان يبذل كل جهـده لكى يضاعف لى أمام الآخرين كل انواع الرعاية والاعتبار ،

ولكننى لم أستطع التخلص من النتائج الكثيرة لوضعى غير الشرعى .

ففى مثل هذه الأوضاع ، فان النساء هن الضحايا دائما . أما الرجل ، فانه دائما برىء ويغفر له . أنه يستطيع الانتقال من وسط الى آخر ، بغير أن يفكر أحد فى توجيه اللوم اليه ، بل انه يصبح عندئذ موضع المزيد من الاهتمام .

ان نذالته وخيانته تتحول لكى تكون دعائم يقف عليها، ولكن ذلك لم يكن يهمنى فى شىء .

واليوم ، فاننى لم أعد أجهل ذلك الدور الذى تقوم به فى عملية استهلاك الحب ، تلك المناوشات اليومية الصغيرة ، التى تؤدى بالضرورة الى أوضاع سيئة .

ولكن ماذا كنت أستفيد من أن تكون لى حياة كريمة ظاهرة ، كتلك التى تتمتع بها زوجات أصدقاء فرانز الشرعيات ؟

لقد تقبلننى فى البداية بينهن ، أما الآن ، فانهن بدأن تدريجيا ، الواحدة بعد الاخرى ، فى تجنبى والابتعاد عني . ولم يكن لي أن أعتمد في هذا الصراع الدنىء ، علي معونة أزواجهن ، ولا علي فرانز نفسه .

على العكس ، فان اولئك الازواج هم الذين كانوا بخفتهم ، ورعونتهم ، قد جعلونى فى النهاية أبدو في صورة امرأة لا تستحق أن تدخل بيوتهم .

ويمكن فى يسر تصور هذه الحالة ، ومن واقعة واحدة فقد سألت فرانز ذات يوم ، اذ لاحظت أنه غير طبيعى ، قائلة :

ــ ماذا بك ؟

ــ لاشىء ... لاشىء خاص . اننا سوف نتناول

العشـاء مسـاء الغد فى أحد الملاهى الليلية فى مونمارتر، مع ايتيان وروجيه . فهل يضايقك هذا ؟

ـ كلا .. ان ذلك يسعدنى .. فقد مضت ثمانية أيام لم نخرج خلالها قط معا .

ـ سوف أقول لك ..ولكن عدينى بأن لاتتضايقى منى

ـ ماذا هنـــاك ؟

ـ الأمر أن روجيه لا يعرف أن ايتيان قد سبـــق ودعانا ، وعلى ذلك فانه وعد صديقته كلارا بأن يأخذها معه . هل تعرفين كلارا الممثلة فى مسرح بوفل ؟

ـ ممثلة ؟ انها لم تلعب الا دورا واحدا .

ـ أجل .. أجل .. لقد كان روجيه متضايقـــا ، ولا فائدة من أن أقول لك اننى لم أقبل حتى الآن ، فقد رأيت أن أخطرك أولا .. ماذا يجب أن نفعل ؟

ـ اقبل الدعوة .. اقبلها . اننى على ثقـــة من أن زوجة ايتيان هى الاخرى ..

ـ زوجة ايتيان ؟ انها لن تحضر ، فانها ليست هنا فى باريس ، بل ذهبت لزيارة امها المريضة فى الجنوب

ـ اوه .. اذن فان زوجة ايتيان لن تكون هنـــاك ؟ ماذا تريد أن أقول يافرانز ؟ لابأس .. عليك أن تقبل .

وأضاء وجهه فرحا ، وعانقنى ثم قال :

ـ شكرا لك ياألبرتا .. شكرا لك . لقد انقذتنى من موقف حرج .. ايتيان سيكون سعيدا .. وروجيه أيضا .. انه يحبك كثرا ، وهو يأسف اذ يبـــدو لك سخيفا . وفضلا عن ذلك فان كلارا فى منتهى الذكاء ، واننى على ثقة من أنها سوف تملأ مكانها .. ان من الأمور المحببة أن يتعامل المرء مع انسان يفهم الحياة مثلك .

واجبت وفى صوتى رنة حزن :

ـــ انك تعرف يافرانز ماذا يقول أصدقاؤك ... اننى فى نظرهم مجرد صديقة لك .

صديقـــة !

فلتحذر المرأة من أن تستخدم ولو مرة واحدة ، هذه الصفة المضحكة .

ولما كانوا جميعا يعتبروننى صديقة لفرانز ، فانه كان على أن أتحمل امثال كلارا ، وأمثال مود ، وأمثال ليليان ، وكافة فتيات الليل اللاتى يعرفن اصدقاء فرانز . ولما كانت زوجات هؤلاء الاصدقاء لايجدن من يدافع عنى أمامهن ، فان الأمر قد انتهى بى الى أن امتنعت عن رؤية أى واحدة منهن .

ومرة أخرى ، فان ذلك لم يكن يهمنى فى شىء . اننى لم أكن أتمسك الا بشىء واحد ، هو حب فرانز .

والآن فاننى أدرك ، أن هذا الحب اذا كان الأمر قد انتهى بى الى أن فقدته ، فان من بين الاسباب التى أدت الى ذلك أننى وافقت على الاوضـــاع التى كان فرانز يقودنى اليها ، ثم تضايق منى بعد ذلك من أجلها .

وجاءنى فرانز فى يوم آخر يقول :

ـــ اسمحى لى أن أتحدث اليك فى صراحة . لقـــد كلفنى مسيو [اكس] أن أعتذر اليك عن عدم دعوته لك الى الحفل الذى أقامه بالأمس ، وطلب منى أن أصحبك الى العشاء لديه هذا المساء ، ولكننى اعتذرت . وفيما يتعلق بى ، فاننى اطلب مشورتك . الا يحسن بى أن أذهب ؟ ان ذلك لن يكون فيه مايدخل البهجـــة على ، ولكننا لم نعد أطفالا .. فان هنـــاك اعتبارات كثيرة . فما رأيك اذن ؟

وتنهدت ، ثم قلت فى هدوء :

ـــ أعتقد انه سبق لى ان قلت لك أن تقبل الدعوة .

وفى المساء عاونته فى ارتداء ثيابه ، بأن وضعت له حاجياته على السرير وعلى المدفأة . وكان هو بادى السعادة ، وبدأ يترنم باحدى الأغنيات .

أما أنا فقد وقفت في الشرفة الصغيرة ، لكى أنظر اليه وهو ينصرف .

وكانت هذه هى المرة الأولى التى يخرج فيها ، بغير أن أكون فى صحبته .



وفى نفس تلك الفترة ، وقع اضراب فى المصانع ، جعـــل كلا من فرانز ومسيو [اكس] يشعران بمزيد من القلق .

وزاد الأمر خطورة أن عمد المضربون الى أعمـــال العنف ، مما اضطرت معه قوات الامن الى التـــدخل مرتين ، ونتج عن ذلك اغلاق المصانع عدة أسابيع .

وبقدر ما أظهر مسيو [اكس] عطفا على العمال ، وتأثرا من هذه الأحداث ، فان فرانز لجأ الى القـــوة الصارمة معهم ، وهى التى حلت بدلا من الدماثة التى عرفت عنه .

وكان رينو يقض على أن نظرات فرانز وحدها كانت تكفى لجعل أعنف العمال يتراجع ، ولكن ماذا كان فى امكانه أن يصنع ازاء ألفين من العمال الصاخبين ؟

وانتهى الأمر بأغلاق المصانع ، وتسريح ثلاثة أرباع العمال ، واستمرار حالة التوقف عن العمل . والتهمت الحرائق عنبرين ، ثم توالت خطابات التهديد تعلن أن

بقية المصانع سوف تلحق بهذين المنبرين .

وأعلن فرانز أنه سيذهب ليقيم فى المصانع ، والا يخرج منها الا اذا عاد الهدوء الى ماكان عليه . وقد نفذ ماعتزم عليه .

كان يمسك بمسدسه في يده ليلا ونهارا ، ويطـوف بجميع انحاء المصانع ، ويقفز الى اى مكان يشتم فيـه رائحة الخطر .

ان فرانز بتلك الصورة ، بازدرائه للخطر ، وبشجاعته الوحشية ، كان هو فرانز الحقيقى . لقد كنت أهتف له فى مجموعه ، واعجب به ، وأخاف عليه .

لقد كنت أحبه للأسف .

فهل كنت اتوقع أن مثل هذه الظروف غير المنتظرة ، سوف تعمل على اضعاف هذا الحب ؟

وقال لى ذات يوم :

ــ لقد انتهى الاضراب ، وتخلصنا من الأشرار ، وعاد العمال الصالحون الى عملهم . غير أن هناك من الدلائل مايجعلنى أخشى من حدوث شىء آخر ، وخاصـة أن خطابات التهديد لاتزال على ماكانت عليه ، ولذلك قررت أن أنام هناك . حقا ان هناك الحراس ، ولكن من يدرى انهم هم انفسهم ليسوا فى حاجة الى حراسة ؟ فعليك أن تطمئنى على ، فالرجـل متى حزم أمره ليس له مايخشـاه .

لم يكن فى استطاعتى أن أعترض ، ولو أننى مقتنعة بما يقول كما كان الأمر فى الماضى . فهززت رأسى ولم أجب .

وبينما كنت وحدى فى احدى هذه الليالى ، وقد أبلغنى فى حوالى الساعة السابعة أنه لن يعـود الى

البيت هذا المساء ، استيقظت على رنين التليفون .

كان المتحدث أحد الحراس فى المصانع ، وقد ظهر فى صوته الهلع وهو يقول لى أن احدى الحرائق قد شبت فى الجناح الايسر فى قسم الهياكل ، وانه يريد تبليغ فرانز .

وفى اليوم التالى ، عندما عاد صباحا الى الفيلا ، رحت أقص عليه ماحدث بالأمس وانا أرتعد ، كما لو كنت انا المذنبة .

عند ذلك هز كتفيه فى استخفاف وقال :

ــ هاهو حارس آخر يصاب بالجنون . لقــد كان نائما ، ثم استيقظ فجأة ، ولم ير ذلك المعتوه أننى كنت هناك ، وكنت أنا نفسى الذى أخطرت المطافىء . هل رأيت الآن أن وجودى هناك لابد منه ؟

اتخذت هذه الأكذوبة على شفتيه الباسمتين شكل الحقيقة ، واننى أكرر أن فرانز عندما يمثل أمام قضاته ، فانه لن يعترف قط .



هذه هى الصورة التى أصبحت عليها حياتى التعسة .

واذا تذكرنا الآن أننى كنت أقترب من الخمسين من عمرى ، أمكن ادراك أنه كان فى استطاعتى أن أفطن الى التغيير الذى طرأ على فرانز ، فى معاملته لى .

الا أن هذا هو آخر الاسباب التى جعلتنى انتبه الى ذلك التغيير . كانت الثقة فى نفسى ، هى التى كنت أطلبها بصفة خاصة من مرآتى .

يا آلهى .. من ذلك القلق الذى كان يتضاعف كل يوم ، عندما كنت أختبر تلك المرآة فى الصباح . فما

أكاد أستيقظ ، حتى أدفع النوافذ على مصاريعها ، ثم اقف أمامها .

وكانت هناك أيام كنت أخرج منها ممتلئة بالبهجـة من هذه المجابهة ، وأيام اخرى أشعر فيهـا بالكآبة مما رأيت .

ومع ذلك فقد كنت جميلة ، بل أكثر جمالا مما كنت ، وأجمل بالتأكيد مما كنت قبل مجيء فرانز . فقد اتخـذ جسدى منذ كنت في بيتي في [ماجلون] شكلا جذابا ، وطراوة جسد فتاة صغيرة . وكانت ممارسة فنون اللذة قد أسبغت عليه فتنة طاغية .

ان القلائل من الرجال هم الذين استطاعوا ، عندما كانوا يرفعون ابصارهم نحـوى صدفة ، أن يحتفظوا بثباتهم عندما يروا عينى السوداوين اللامعتين فى حزن خفى ، تحت شعرى الأحمر الكثيف .

ولكن .. هل كان مقدرا لى أن احتفظ بهذه الفتنة ، مع المرارة التى بدأت تثقل على شفتى ؟

والى جانب ذلك ، كانت تعترينى فى بعض الاوقات اضطرابات لم أكن أدرى اذا كانت جسدية أم نفسيـة وخيل الى أنه قد باتت لى شخصيتان ، احـداهما شخصية سلبية تكان تكون قد ذهبت وانطوت ، والثانية لا أعرفهـا .

الفصل الثالث والعشرون

يتعين على الآن أن أتحدث عن سيسيل .

ولعلكم تذكرون أن مسيو [اكس] عندما انفصل عن زوجته ، فان هذه قد عادت الى امريكا ، وكانت سيسيل فى العاشرة من عمرها ، عندما غادرت باريس.

ومنذ ذلك الوقت ، فان مسيو [اكس] لم يرها قط ، مما لم يجعلنى أعرف عنها شيئا ، الا من خلال حديثه عنها معى . وحتى هذه الاحاديث عنها ، فانها كانت قليلة ، اذ انها كانت تسبب له الكثير من التعاسة والالم

ومع ذلك فان مسيو [اكس] كان يود لو انه أكثر من الحديث عن ابنته معى ، لولا أنه أحس أننى أتألم من اجله . وفى أحد الايام انفجرت باكية ، عندما أرانى صورة لها .

وعندما كان ولده جاك يأتى لزيارتنا ، كان يلمح بدوره كثيرا الى والدته وشقيقته . وكانت سيسيل تراسله ، وقد أرانى مرة أو مرتين رسائلها اليه .

كانت لهجتها فى الكتابة صريحة مرحة ، كما هى عادة اكثر فتيات أمريكا . أما الموضوع الذى كانت تكتب فيه،

فهو أنها تتحرق شوقا للمجىء الى باريس ، بالرغم مما يتوفر لها من رغد الحياة فى أمريكا .

هذا هو كل ماكنت أعرفه على وجه التقريب عن سيسيل .

وفى هذه الفترة وقع الخصام بينى وبين مسيو [اكس] ، ولم أعد ارى ولده جاك ، وتجمدت على ذلك فى نفسى صورة سيسيل كما سمعت عنها آخر مرة .. فتاة أمريكية صغيرة ولو أن والدها فرنسى ، تضع نصب أعينها مشروعا تذوب شوقا لتنفيذه .

ولقد كنت قليلا ما أقرأ الصحف ، وكان من الصدف البحتة اننى فى احدى لحظات فراغى التى كثرت فى الفترة الاخيرة ، ان وقعت عيناى على احدى المجلات ، وفيها نبذة عن حفل عشاء اقامته زوجة احد اصدقاء فرانز .

ومن بين المدعوين الى ذلك الحفل ، وجدت اسمه، مع انه كان قد ابلغنى انه مشغول فى بعض الاعمال. ولم اكن لاعبأ لذلك ، اذ كان فرانز قد اعتاد الذهاب الى مثل هذه الحفلات بدونى ، لولا اننى عندما مضيت فى قراءة النبأ ، اذا بى اجد بين اسماء المدعوين اسم مسيو ومدموازيل [اكس] ...

بهذه الصدمة القاسية علمت بوجود سيسيل فى باريس ، وعند ذلك تفتحت عيناى اللتان ظلتا مغلقتين طويلا . وبدافع غريزى ، رأيت فى لحظة واحدة ان مجيئها هذا ، الذى رتب فى عناية شديدة واخفى عنى ، انما هو السبب فى فتور فرانز التدريجى ، وابتعاده عنى ، هذا الابتعاد الذى اصبح الان امرا واقعا .

ذلك الهجر ، وذلك الفتور ، ربما كنت قد استسلمت

يهما لو اننى لم اقف على الدافع اليهما . اما وقد عثرت على هذا الدافع ، فقد امتلأت بالثورة ، التى انتشرت فى كل كيانى ، ولم اعد اعرف الى اين تؤدى بى .

وبكل دقة ، رحت اعيد تكوين صورة للاحداث كما وقعت خلال الشهور الستة الاخيرة ، وفطنت الى ان الرحلة الرابعة التى قام بها فرانز الى امريكا ، انما كانت توافق تماما التاريخ الذى بلغت فيه سيسيل سن الرشد .

وليس هناك من شك فى ان مسيو [اكس] قد كلفه فى هذه المناسبة ، ان يصحبها فى عودته الى فرنسا ، وربما كانت هذه الرحلة قد دبرت خصيصا لذلك .

بدت لى جميع مراحل المؤامرة التى كنت ضحيـــة لها واضحة جلية ، وادركت جميع ابعادها .

كان فرانز قد ابلغنى انه سيأتى فى هذا اليـــوم لتناول طعام الغداء فى الفيلا ، ومع ذلك فقد اخفقت عدة مرات فى ترك العنان لغضبى ، وظللت مالكة لاعصابى .

وبعد ، فان ما لدى لا يعدو حتى الان ان يكون شكوكا . وعلى هذه الصورة ، فنت اتصرف كثيرا ، كما اننى عندما كنت اتسرع فى توجيه اللوم اليــــه ، انما كنت اسد الطريق الذى يؤدى بى الى حصولى على اى دليل ضده .

واخيرا فان فرانز كان هو الذى اقنعنى بعدم جدية اتهاماتى ، كما انه هو الذى صفح عنى فى شهامة .

وعلى ذلك فقد قررت الا اترك الامور تمضى هـــذه المرة ، على هذه الصورة .

وسألنى فرانز لكى يبدد الصمت الذى ساد بيننا :

ــ ماذا تنوين فعله بعد ظهر اليوم ؟

أجبت فى عدم مبالاة ، وعينى على زجاج النافذة التى كان المطر ينهمر خلفها :

ــ لا شىء .. ومن ذا الذى يستطيع الخروج فى مثل هذا الجو ؟ ثم من يدرى .. لعل الجو فى الجنوب اجمل من هذا ! ان فكرة تراودنى للذهاب لقضاء اسبوع او اسبوعين فى [ماجلون] .

لم يقل شيئا ، غير اننى عندما رايت البريق الذى تبدى في نظرته ، ادركت مدى سعادته لو اننى وضعت هذه الفكرة موضع التنفيذ .



وانصرف حوالى الساعة الثانية .

انه فى كل مرة ، يبكر في الانصراف اكثر من المرة السابقة . وما ان خرج حتى سارعت بارتداء ثيابى ، وخرجت بدورى .

وناديت اول سيارة اجرة مرت بى ، ثم قلت للسائق :

ــ شارع سان جيلوم .

وعندما وصلت الى ناصية هذا الشارع عند تقاطعه مع طريق سان جرمان ، نقدت السائق اجره ، ورحت ابحث عن كلية العلوم السياسية حيث كان جاك يدرس ، الى جانب دراسته فى كلية الحقوق .

كانت خطتى قد اتضحت ، وبدأت تنفيذها .

لم اجد حاجة الى سؤال احد ، فقد كانت هناك لوحة فوق الباب الخارجى ، تحمل جدولا لمواعيد الدراسة وانتهائها . وفى ذلك اليوم ، كان طلبة السنة الاولى يخرجون فى الساعة الثالثة ، وطلبة السنة الثانية فى الرابعة .

ولما كان جاك في السنة الثانية ، فقد كانت امامى ساعة وربع الساعة لانتظاره .

رحت اضرب على غير هدى في طريق سان جرمان، ثم دلفت الى مقهى صغير هادىء ، تقع في جانبه الخلفى قاعة للشاى ، ظللت جالسة فيها ، ثم خرجت في الرابعة الا خمس دقائق .

وفتحت ابواب الكلية ، وخرج الطلبة فى مجموعات صغيرة ، سرعان ما عثرت على جاك في احداها ، وتضم اثنين من زملائه .

اقتربت منه ولمست ذراعه ، ثم همست :

ــ جاك .

انتفض ، وتطلع الى في ذهول ، فقد وضعت على وجهى وشاحا ثقيلا ، فلم يعرفني .

رحت اكرر في صوت اكثر ارتفاعا :

ــ جاك !

ــ إهذه انت ؟

وبغير ان يلقى بالا للاعتذار الى اصدقائه ، تركهم وقال :

ــ اهذه انت ؟

ــ تعال معى يا جاك .

وفى خطوات مسرعة انطلقنا معا ، ثم لم نلبث ان جلسنا وامامنا قدحان من الشاى ، في ركن قصي من المقهى الصغير . ابتسمت له في حزن ثم قلت :

ــ لابد انك فى دهشة من رؤيتى يا جاك .

كانت قد مرت ثلاث سنوات لم اره خلالها ، لقد تغير هو ايضا ، واصبح شيئا مختلفا عما كان عليه .

واخذت اكرر ، وانا فى حرج لم اكن اتصوره ،

لاسباب لم تخطر لى على بال .

— اجل .. انك مندهش تماما .

احسست انه يبذل جهدا كبيرا ، فقد كانت حقيقة كتبه تضايقه ، ولكنه كان لا يريد تركها . تطلع الى بطريقة مؤثرة ، خيل الى معها اننا نوشك ان ننفجر معا فى البكاء .

كنت قد دللت جاك كثيرا ، عندما كان بين الخامسة عشر والثامنة عشر ، وكان يتردد علينا كل يوم احد . وكان يأتى ومعه باقة من البنفسج يشتريها من مصروفه كطالب ، قبل الموعد الذي كنا ننتظره فيه .

وعندما كان يدخل مع فرانز الى غرفتنا ، كنت اتصور فى بعض الاحيان انه يثقل علينا . ولكن فى المساء ، عندما كان يهم بمغادرتنا للعودة الى مدرسته ، كان يحدث ان اشعر بضيق غامض من نظرته الحافلة بالتوسل ، ومن الطريقة التى كان يضغط بها على يدى . قلت :

— انك لا تقول شيئا يا جاك .. الا ترى ان من غير العادى ان ترانى على هذه الصورة ؟

هز رأسه فى رفق ، ثم قال :

— كلا يا سيدتى .

قلت فى ابتسامة خفيفة :

— سيدتى ! ألم تكن تنادينى من ثلاث سنوات باسم ألبرتا ؟ اتراك قد نسيت ذلك ؟

— اننى لم انس .. ولكننى منذ ثلاث سنوات كنت طفلا .

— والان ؟

— الان .. لم إعد ادرى . والدليل على ذلك ...

واختنق صوته .
قلت اسأله :
ــ والدليل ؟
ــ هو انني قد ادركت امورا كثيرة .
ــ وما الذى ادركته يا جاك ؟
ــ لقد ادركت .. لقد ادركت انه لم يكن كريما معك.

تمتمت فى ضعف :
وما الذى تقصده بهذا ؟

ــ انك تعرفينه كما اعرفه ، بل انك قد جئت من اجل ذلك ، أليست هذه هى الحقيقة ؟
ــ ولماذا جئت ؟
ــ اوه .. ليس لكى تريننى بالتأكيد .

بلغ بى التأثر من الاتجاه غير المتوقع الذى سار فيه الحديث ، ولو اننى كنت سعيدة فى الواقع للغرض الذى كنت فى سبيل الوصول اليه ، فتناولت يده ، وقلت :

ــ انك مخطىء يا جاك . . اننى فى غاية السرور لرؤيتك .. هل تسمعنى ؟ اننى فى غاية السرور ...

بدا كأنه لم يعد يصغى الى ، وانما ظل يتفرس فى، ثم قال :
ــ كم انت جميلة !

وفى هذه اللحظة دخل القاعة الصغيرة رجل وامرأة بعد ان كنا جالسين وحدنا ، فقلت فجأة :
ــ دعنا نخرج من هنا .



كنا الان فى احدى سيارات الاجرة تطوف بنا على

غير هدى ، فى غابة بولونيا المظلمة . وكانت البحيرات التى درنا حولها خمس او ست مرات تتلألأ تحت اضواء القمـــر .

كانت رأس جاك قد استندت الى كتفى ، وكنت قد احتفظت بيده فى يدى . وراح هو يتكلم فى عبارات متقطعة ، بينما لا اكاد اصغى الى ما يقول .

لقد روى لى كل شىء ، كل ما توقعته وتنبأت به ، كل ما كنت اتخيله اصبحت اعرفه الان .

قال :

ــ لا ينبغى ان نلوم سيسيل .. فانها ليست شريرة . ان احدا لم يكد يقول لها شيئا ، فقد كانت مثلى ، تعتقد ان الامر انتهى بينكما ، وانك قد وافقت على ما يحدث وتعرفينه . وفضلا عن ذلك ...

ــ وفضلا عن ذلك .. ماذا ؟

ــ فضلا عن ذلك .. فاننى اعتقد انه لا جدوى من عمل اى شىء .. اذ انها تحبه هى الاخرى .

ونطق هذه العبارة الاخيرة فى لهجة غريبة ، تكاد تنطوى على شعور بالكراهية .

قال :

ــ وانت ؟ الا زلت تحبينه ؟

فهمست قائلة :

ــ جاك .. جاك .. انك طفل .. فلا تبكى .

ووضعت قبلة على جبينه ، فراح يحاول ان يعثر بشفتيه على فمى . ولكننى رددته فى رفق .

قلت :

ــ حدثنى يا جاك .. وهى ؟ ما شكل سيسيل ؟ انها فى غاية الجمال . اليس كذلك ؟

ــ شقيقتى ؟ اجل .. يقال انها جميلة . لمـــاذا تسألينني عن ذلك ؟ اوه .. اجل .. من اجل دائما .

ــ لا تبك يا صغيرى .. لا تبك .

ودارت بنا السيارة مرتين اخريين ، ثلاث مرات ، حول البحيرة الكبرى ، وكانت السيارات تلتقى بنـــا بغير ان نرى سوى اضوائها من وراء الزجاج .

وتنهدت فى عمق ، ثم قلت :

ــ سوف اوصلك الى بيتك يا جاك .

ــ كما تريدين .

هبطنا طريق جابرييل ، وفى اللحظة التى وصلنا فيها الى شارع السيرك حيث يقوم بيتمسيو [اكس]، طلب جاك من السائق ان يتوقف ، وقال :

ــ سوف اتركك هنا ، فالساعة توشك الان على السابعة ، انه يتناول العشاء لدينا هذا المساء . انه يصل فى كل مرة مبكرا ، وقد يراك ...

امسكت به وقلت :

ــ جاك .. هل تحدد اى موعد للزواج ؟

ــ لست ادرى ، ان والدى يريد الاسراع فى ذلك ، فهو يشعر بالتعب ، ويريد ان يتخلى نهائيا عن ادارة المصانع .. فهل تفهمين معنى ذلك ؟

ــ اجل .. اننى افهم .. فشكرا لك يا جاك .

عاونته في العثور على حقيبة كتبه التى كانت ملقاة فى احد اركان السيارة ، وفتح الباب ، ثم عاد واغلقه فجأة ، واحاطنى بذراعيه وهو يقول منتحبا :

ــ البرتا . .البرتا .. يخيل الى اننا لن نرىبعضنا بعد ذلك قط !

اما انا ، فقد كنت واثقة تماما من ذلك .

الفصل الرابع والعشرون

اتصل فرانز فى اليوم التالى تليفونيا ، وقال انه لن يأتى الى الفيلا لتناول طعام الغداء .

وعندما كان يحدث ذلك ، كان يمر على الفيلا عادة فى فترة بعد الظهر ، اذا لم يكن يجىء ليتناول معى طعام العشاء .

وعلى ذلك فقد كنت اقضى اليوم كله فى هذا الانتظار . وفى ذلك اليوم ، كان اقل صوت اسمعه يجعلنى اثب من مكانى . واخيرا حوالى الساعة السادسة ، بدأت التقط انفاسى ، فقد كان الوقت متأخرا ، واصبح من المؤكد انه لن يجىء .

وفى هذه اللحظة دق جرس التليفون ، وما كان يمكن الا ان يكون فرانز .

وكان هو بالفعل . انه يتصل لكى يبلغنى بانه لن يحضر للعشاء ، وان الوقت متأخر بحيث لا يستطيع حتى المرور على الفيلا .

قال :

— هل كل شىء على ما يرام ؟

ـــ تقريبا .
ـــ كيف يكون تقريبا ؟ ماذا حدث ؟ يخيل الى ان صوتك قد تغير .
ـــ فرانز .. ان لدى ما اقوله لك .
ـــ ما تقولينه لى ؟ عسى الا يكون الامر خطيرا ؟
ـــ كلا .. كلا .. ومع ذلك ..
ـــ هل يمكن الانتظار الى صباح الغد ؟
ـــ احب ان يكون هذا المساء .
ـــ ان امامى بعض العمل فى المصانع ، وبعد ذلك لدى موعد للعشاء .. هل تدركين هذا ؟
ـــ فرانز .. تعال .
ـــ لا بأس .. لا بأس .. اذا كان الامـــــر كذلك فسأحضر .

وسمعت صوت السماعة وهو يعيدها الى مكانها.

كان قد انقضى عام كامل ، منذ توقعت تفسيرا من هذا النوع . والان ، هاهى هذه اللحظة قد جاءت ، وليس امامى سوى عشر دقائق ، لكى اختار الطريقة التى اعالج بها عدوى .

فهل اتوسل اليه ان اهدده ، وهل اناقشه فى هدوء ام اشكو وانتحب ، وهل الجـــأ الى العنف ام الى السخرية ؟

لم اكن ادرى . ان رأسى تكاد تخلو من اى فكرة ، بينما أرى ان اللحظة الحاسمة قد جاءت .

اطفأت الانوار حتى لا يظهر خيالى من الخارج ، ورحت انتظر فى الشرفة . وكان الليل مطيرا ، ولكنه مضىء ، ووجدت فى الجو البارد ، ما يلطف قليلا من الحمى التى اشعر بها .

كنت احترق ، وفى نفس الوقت اخذت اسـنانى تصطك . ثم بدأت السحب تغطى وجه القمر ، وخيل الى ان منظر نهر السين بلدة عميقة ، تقـوم على جوانبها اشجار سوداء ، ومداخن للمصانع ، بينمـا ترامت من بعيد ظلال هائلة ، هى مدينة باريس .

وتوقفت سيارة امام البوابة ، وسمعت خطوات فرانز قبل ان اراه ، وهو يمشى على الحصى فى الحديقة . وما ان ترامى الى صوت الباب الذى فتحه ، حتى سارعت داخلة الغرفة واغلقت النافذة ، ثم اشعلت الضوء .

قال :

— هل كنت نائمة ؟ اننى لم ار اى ضوء .

— ان لدى صداعا .. فحاولت ان استريح قليلا .

— لماذا اتصرف هكذا ؟ لست ادرى .. اننى ماكدت اراه حتى بدأت ألجأ الى الكذب ، ولو انه لم يكن مجـديا .

كان القلق باديا على وجه فرانز ، وكذلك الاحساس بالضيق . ومع ذلك فانه قد حاول اخفاء هـذا القلق، اذ انه حمل الى باقة من الزهور .

وبدأت اضعها فى احد الانية ، وكانت هذه وسيلة حتى لا اتطلع الى فرانز الا عندما اشعر بقوتى تعود الى ، وان اظل بعيدة عن تأثير سحر عينيه .

اما هو ، فلا بد انه رأى رعشة يدى ، وانا لا اكاد اعرف كيف اقطع بها سيقان الزهور .

قال يسألنى :

— ماذا هناك اذن ؟

— اتسأل عما هناك يا فرانز ؟ الا يخامرك الشك

ولو قليلا ؟

ــ على الاطلاق .

ــ لسوف اعاونك . فاسمح لى اولا بان القى عليك سؤالا ، على ان تعدنى بان تجيب عليه .

ــ ها هى الاسرار قد بدأت ! اتعرفين انك بدأت تدخلين على قلبى الخوف ؟

ــ لا تضحك يا فرانز . ان الامر خطير .. وانت تعرف ذلك جيدا . هل تعدنى ؟

ــ اننى اعدك .

ــ اين تناولت العشاء ليلة الامس ؟

ــ كل ذلك من اجل هذا السؤال ! لقد تعشيت لدى مسيو [اكس] .. واعتقد اننى اخبرتك بذلك .

ــ ومن كان هناك .. لدى مسيو [اكس] ؟

ــ من كان هناك ؟ ثلاثة او اربعة اشخاص .. انا واندريه وزوجته واحد وكلائنا فى بريطانيا .

ــ فقط ؟

ــ اجل .. وكان هناك جاك كذلك بطبيعة الحال.

ــ فقط ؟

ــ الى اين تقصدين ؟

انتصب واقفا امامى ، واحمرت عيناه ، وتدلى فمه فى صورة تبعث على التقزز .

ولكننى قلت بصوت جاد :

ــ فرانز .. استمع الى .. فان الامر جد . ان من الافضل ان تعترف بالحقيقة .. ام تراك تفضــل ان اقول لك انا ؟

وعندما رأيت التعبير الذى ارتسم فجأة على وجهه، ايقنت ان كل شىء قد انتهى ، وانه لم يعد يقف فى هذه

الغرفة سوى عدوين .

يا للاحمق المأفون .. ويا للجنون !

كان قد ظل حتى هذه اللحظة واقفا على قدميه ، ثم اذا به يجلس ، ويضع ساقا فوق الاخرى ، وينفجر فى ضحك جنونى .

قال :

ـــ كلا .. كلا .. انك على مجرى الامور اذن ؟ اننى لا اجد اية صعوبة فى ان اقول لك انه كانت هناك كذلك الانسة سيسيل [اكس] ...

ـــ خطيبتك ؟

ـــ خطيبتى .. اذا شئت .

واتخذت ابتسامته صورة التحدى وهو يقول :

ـــ عدينى ان تتنفسى الصعداء ارتياحا .اننى لاسباب لا شك تعرفينها ، ترددت فى ابلاغك هذا النبأ ، وكنت انتظر اى انسان طيب القلب يتكفل بذلك ، غير ان الامر بدأ يطول .

همست فى صوت مكتوم :

ـــ فرانز !

ـــ ماذا ؟

ـــ عليك ان تحاذر .

ـــ من ماذا ؟

ـــ هل ستتزوج ؟

ـــ بالتأكيد .

ـــ عليك ان تحاذر .

ـــ من ماذا مرة اخرى ؟

قلت :

ـــ يا للتعس .. يا للتعس .. انه لا يفهم .

ـــ ما الذى لا افهمه ؟
ـــ امور كثيرة . .اولها الى اى مدى احبك .
ـــ حقا ؟ اننى لا اصدق .
ـــ وكيف ذلك ؟
ـــ لقد كنت امضى وقتى اقترح عليــــك الزواج ، فاضطررت اخيرا الى الاعتقاد بانك لا تريدين ذلك ، وانك لا تتمسكين بى . فما هو الغريب اذن ، اذا كنت فى هذه الظروف ..

سرت نحوه ، فتوقف عن الكلام ، واستمر يتفرس فى بدهشة ، تجمع بين الخوف والتحدى .

قلت فى صوت عميق :

ـــ فرانز .. هل حقا انك لا تشعر بالخجل ؟

سألنى فى لهجة بدت فيها ثقته وقد قلت عن قبـــل :

ـــ الخجل من ماذا ؟
ـــ انها اجمل منى .. اليس كذلك ؟

لم يجب ، مكتفيا بهز كتفيه .

ـــعلى كل حا لفانها اكثر ثراء .

ضحك فى استهزاء ، ثم قال :

ـــ ان تلميحات من هذا النوع لا تهزنى .
ـــ انها اصغر منى كذلك .
ـــ اجل !
ـــ هل تجرؤ !

ترنحت فى مكانى ، ولكننى سرعان ما تمالكت ،وكان الدور عليه فى الشحوب والاصفرار ، عندما كنت اضغط بغير رحمة على كل كلمة من العبارة التالية :

ـــ انها اصغر منى بلا شك ، ولكنها ليست اصغر

من كاميل .. اليس كذلك ؟

كانت هذه هى المرة الاولى التى يعود فيهــا هذا الاسم لكى يظهر بيننا ، فضرب فرانز بقبضته على المائدة ، فتطايرت بعض اوراق الزهور وسقطت على الارض .

قال :

— كفى .. كفى .. فلنضع حدا لهذا الحديث الاحمق .. واذا كان لديك شىء .. فهاتيه على الفور .

قلت :

— فرانز .. اذا كنت لم تعد تحبنى .. الا تدرك اننى لازالت احبك ؟

— ثم ماذا ؟

— اليس هذا واضحا بما فيه الكفاية ؟

لزم الصمت ، فمضيت اقول :

— هل تحبها اذن ؟

فقال فى جفوة :

— ان هذا من شأنى .

أوه .. يا لجنونه فى هذه اللحظات الحاسمة . يا لجنونه ويا لتعاليه ! لو انه لجأ الى شىء من الرقة، او لو انه استخدم بعض العبارات اللطيفة ، لجردنى من سلاحى . ولكنه لم يلجأ الى هذه الرقة ، ولم يفكر فى مجرد استخدام تلك العبارات .

قلت وقد جف حلقى :

— اصغ الى .. هل تتصور انه من البراعة من جانبك .. او من الحذر ..

وفى هذه المرة كان هو الذى اتجه الى ، وامسك رسغى فى عنف . داخلنى الخوف ، وتراجعت الى

الوراء .

قال :

ـــ اصغ الى بدورك . . ان كل هذا امر جميل ، غير انى نبهتك بالتليفون انى متعجل هذا المســاء . لسوف نستأنف هذا الحديث الشيق غدا ، وليس من عادتى فيما اعرف ا ن اروغ ، ولكن ليس هذا المساء بالذات .

ـــ انك ذاهب للقياها .. اليس كذلك ؟

ـــ واذا حدث ذلك ؟

قلت :

ـــ اوه .. اذا كان لى ان اقدم اليك نصيحة ، فهى الا تذهب اليها هكذا .

كان كل منا منتصبا امام الاخر ، وعيوننا تتفرس فى بعضها . وكانت عيناه ترسل بريقا لم اره قبل ذلك قط ، بل رأيته مرة واحدة ، يوم ان كان يهم بقتـــل الخنزير البرى .

قال :

ـــ نصيحة ؟ ماذا تقصدين ؟

قلت :

ـــ لا شىء . .لا شىء .. ماذا تريدها ان تكون ؟

ترى ما الذى كان يدور فى تلك اللحظة فى رأسه؟ أكان ايمانه بالقضاء والقدر هو الذى تغلب عليه، ام حبه للمغامرة ، ام احتقاره للخطر ؟

كلا .. لابد انه عدم الادراك والغفلة .. انهـــا الغفلة القاتلة . فقد تصور اننى لا اعرف ، او اننى لا اعرف كل شىء ، او حتى اذا كنت اعرف كل شىء ، فاننى اشعر ان جريمتى اكثر هولا من جريمته ، واننى سوف لا اجرؤ ...

يا للتعس .. يا للتعس !

ان الذى اضاعه ، هو انه لم يدرك الى اى مدى كنت احبه .

كان قد ارتدى معطفه ، وتناول قفازه وقبعته ، ثم قال :

ـ ان هذا يكفى اليوم ، فالى الغد .

ـ غدا سـيكون الوقت قـد فات يا فرانز .. فلا تتحدانى .

ـ اقول لك الى الغد .

هتفت :

ـ غدا .. غدا لن اكون هنا .

قال وعلى فمى ابتسامة جعلتنى اتميز غيظا :

ـ حقا ؟ واين ستكونين ؟

ـ فرانز !

وبدا ان صوتى قد صدمه ، ولو انه صدمنى اكثر منه . ترى اين سمعت هذا الرنين فى صوتى من قبـل ؟

وفجأة تذكرت ، وقد ملانى الهلع . لقد سمعته منذ سبع سنوات ، فى ذلك المساء فى قاعة الطعام فى [ماجلون] ، عندما ندت عنى صرخة مماثلة ، وانا احاول ايقاف كاميل عن الذهاب نحو قدرها .

واليوم ، فانه اذا لم يضع الى بدوره ، واذا فعل مثلها ، فاننى اشعر انه كتب عليه الضياع .

انتفضت ثانية ، رأيته اثناءها يتردد . ثم اتخـذ قراره ، ومضى خارجا ، وصفق الباب وراءه فى عنف .

ولم يكن قد اجتاز الحديقة بعد ، واذا بى اقرع الجرس لكى انادى الوصيفة . غير انها كانت خارج

البيت ، ولم تعد الا بعد ذلك بربع الساعة .

وفى خلال الدقائق التى قضيتها وحدى فىهذا البيت يحيط بى الليل، وقعت فريسة لازمة من الرعب كادت تذهب بلبى . ولو اننى سمعت على الدرج خطوات فرانز وقد عاد مرة اخرى ، لصرخت باعلى صوتى :

ــ النجدة ! امسكوا القاتل !

وما أن عادت الوصيفة حتى طلبت منها ان تعد لى ثياب السفر ، ثم اخذت ارتديها على عجل .

وبعد ذلك بساعتين ، ركبت القطار من محطــة اورساى ، ثم غادرت باريس .

الفصل الخامس والعشرون

كان من حسن الحظ ان عثرت على احدى سيارات الاجرة فى محطة السكة الحديدية ، فوصلت حوالى الساعة العاشرة صباحا الى بيتى فى [ماجلون] ٠

ولم التفت الى جميع القرى المعروفة لى والتى مررت بها فى هذه الرحلة ، وحتى عندما برزت امامى اسطح البيت القديم ، لم اشعر باى تأثر . فقد خيل الى انه اكثر تواضعا واشد ضيقا مما كان عليه فى الذكريات التى احتفظت بها عنه ، ولو انه كان على ان انجز امورا اخرى ، غير اضاعة الوقت فى مثل هذه التأملات .

لم يكن قد غمض لى جفن طوال الليل لحظة واحدة، فقد كانت افكارى تدور فى رأسى ، وتتغذى على نفسها خلال الساعات العشر التى قضيتها فى هذه الرحلة. ولم يكن التعب ليخفف من هذه الافكار ، وانما جعلها تصل الى ذروتها .

كان البيت بطبيعة الحال مغلقا ، وكانت مفاتيحه مع ماريا التى تقطن مع زوجها فى احدى القرى ،التى تبعد

حوالي كيلومتر . وسرعان ما انطلقت على الطريق ، سائرة عبر الحقول ، فوق الحشائش الجافة التى كانت تتكسر تحت اقدامى .

رحت اسير وسط الاحواض التى امتلأت بالطين ، فتتطاير منها الغربان . وقابلنى ثلاثة من الفلاحين ، فبادرونى بالتحية فى دهشة ، بغير ان يتعرفوا على ، ولم اكن اعرفهم بدورى .

وارتفع خيط من الدخان فوق سطح البيت الصغير الذى كنت اقصده ، فتنفست الصعداء . ان ماريا فى بيتها .

لم يكن لدى وقت لكى ابرق لها اخطرها بمقدمى ، وعلى عتبة البيت ، رأيت طفلا فى الخامسة او السادسة من عمره يمتص اصبعه ، ففر عندما رآنى .

ودخلت فى اعقابه الى غرفة مطبخ مظلمة ، فاذا بى اشهد امرأة راكعة على ركبتيها امام الموقد ، توشك ان تزيل الرغوة من اناء يغلى .

استدارت عندما سمعت طفلها يصيح ، ونظرت الى فى دهشة ، فناديتها قائلة :

ــ ماريا !

وانطلق منها هتاف يقول :

ــ سيدتى .. يا آلهى !

رحت اتطلع اليها ، فقد كنت اعلم انها هى ، ولولا ذلك لما عرفتها . كان العمل الشاق فى الحقل قد جعلها ضامرة ، وحولها الى امرأة عجوز .

وانا . .كيف سترانى ؟

قالت :

ــ سيدتى هنا ؟ يا لسعادتى !
ــ وانا كذلك يا ماريا .
وبينما كنا نتحدث ، رحنا نتطلع الى بعضنا فى ابتسامة محرجة ، تتعارض مع كلماتنا .
ــ هل وصلت الان يا سيدتى ؟
ــ أجل .
ــ اننى اعتذر لدى سيدتى ، اذا كانت [ماجلون] مغلقة ، فلم اكن على علم بذلك . وسوف اذهب الى هناك على الفور ، لكى اعرض البيت للهواء ،وانظفه بعض الشىء . واذا شاءت سيدتى ان تستريح اثناء انتظارى ، فهذه غرفتنا ، وسوف اجىء ببعض الماء
ــ شكرا يا ماريا .. ان الامر لا يستحق ان تذهبى الان الى [ماجلون] ، فلن ابيت فيه هذا المساء .
ــ هل تسافر سيدتى مرة اخرى ؟
ــ كلا .. لن اسافر ، ولكننى لن ابيت هذه الليلة فى ماجلون .
وشرحت لها اننى جئت بناء على دعوة لبعض المصالح لابد من تسويتها فى نفس اليوم فى المركز ، وسوف اقضى الليلة هناك اذ ان الوقت سيكون متأخرا ، ثم اعود فى اليوم التالى .
وقلت :
ــ لعلنى اعثر على سيارة هنا .. الازال هنرى يعمل فى الجاراج ؟
ــ اجل يا سيدتى .. ان جول سوف يذهب لاخطاره ، وسوف يكون الاثنـــــان فى غاية السرور برؤيتهم لسيدتى . فى اى ساعة ترغب سيدتى فى الرحيل ؟
ــ باسرع ما يمكن .. فاننى اريد ان اكون هناك

قبل الساعة الرابعة ، وهنـــاك اكثر من اربعين كيلومترا .

ـ سوف تتمكن سيدتى من الوصول .

وقادتنى الى غرفتها ، وهى ممسكة فى يدها باناء الماء الساخن ، ولبثنا واقفتين ، وقد ازداد حرجنـــا عن ذى قبل .

قلت :

ـ هل زوجك على ما يرام يا ماريا ؟

ـ اجل يا سيدتى .

ـ وابناؤك ؟

ـ على ما يرام بذورهم . ان الذى رأته سيدتى عند وصولها هو اكبرهما ، ويدعى ريمون ، امـا الاخر فيدعى زيليا ، ويقيم لدى جدته . وبهذه المناسبة اشكر سيدتى على معطف الفراء ..

ـ الامر لا يستحق يا ماريا .. الامر لا يستحق .

ـ وسيدتى .. هل هى على ما يرام ؟

ـ اجل يا ماريا .

كنت اشعر ان هناك سؤالا آخر لا تجسر على توجيهه ، فان الانباء لابد ان تكون قد انتشرت بعد رحيلنا ، عنى وعن فرانز .

وبابتسامة بذلت جهدى لاعطى ماريا للشجاعة التى تعوزها ، فما لبثت ان قالت :

ـ والسيد ؟

ـ هو ايضا على ما يرام .

ـ الا يزال فى باريس ؟

ـ ربما تلوح له الفرصة للمجىء هنا يوما . دعينى

لحظة وحدى يا ماريا .. هل تسمحين ؟

ـــ اوه يا سيدتى .. ارجو المعذرة .

انتظرت حتى خرجت ، لكى اخلع قبعتي ، فلم اكن اريدها ان ترى اننى قصصت شعرى ، واننى صبغته.

واول حركة قمت بها عندما تركتنى ، كانت ان تناولت مرآة صغيرة معلقة على الجدار ، واقتربت من النافذة، ثم نظرت فيها .

كادت المرآة تسقط من يدى من هول ما رأيت .

ان ثلاثة ايام من العذاب النفسى ، ومشهد الليلة الماضية ، والليلة التى قضيتها ساهرة فى القطار اجتر آلامى وعارى .. هل كان ذلك كافيا لكى يحل محـــل المرأة التى كنتها من اسبوع واحد فقط ، هذا الشبح الذى برز امامى ؟

وقربت المرآة من وجهى ، ثم قربتها اكثر فاكثر . كانت بشرتى تبدو فى ضوء الشتاء القاتم فى لون الطين الذى انتشرت فيه التجاعيد . اما شعرى الاحمر ، فقد ظهر كالليف الخشن .

وفى سرعة اعدت القبعة الى رأسى ، ورحت انتظر عودة ماريا فى حزن ، وعينى على الحقول .



قالت :

ـــ لقد انطلق جول ليخطر هنرى ، واذا شاءت سيدتى ان تنتقل الى المطبخ ، فانها ستجد دفئـــــا اكثر من هذه الغرفة .

جلست فى احد الاركان الى جوار النار ، وبينمـــا راحت ماريا تعد الطعام ، اخذت افكر فى وسيلة لفتح

باب للحديث ، فاننى لم اجىء الى هنا عبثا .

قلت بعد ان عثرت على تلك الوسيلة :

— ماريا .

— سيدتى ؟

— هل تتلطفين بمسح حذائى بقطعة من القماش .. انها مغطاة بالطين .

— اطمئنى يا سيدتى .. سأفعل ذلك على الفور.

وبعد برهة من الصمت قلت :

— هل تذكرين ذلك المساء الذى ماتت فيه الانسة المسكينة ؟

نظرت الى نظرة عميقة ، كان معناها انها لن تنسى هذه الذكرى قط ، ولكنها لم تشأ ان تكون اول من يشير اليها .

— هل تذكرين يا ماريا عندما انطلقت السيارة ،وكان السيد جالسا امام المدفأ ة، كما اجلس الان ؟

— اذكره يا سيدتى ، فقد كان حذاؤه بدوره ملطخا، وعرضت عليه ان انظفه . فقط كانت البقع التى فيـه من الزيت وليست من الطين .. كانت مـن زيت السيارة .

— وكيف عرفت انها من زيت السيارة ؟

— لاننى فى ذلك المساء ، عندما جاءوا بجسـد الانسة ، اردت ان اشعل النار فى غرفة سيدتى ، فذهبت الى الجاراج لاحصل على قليل من البترول ، لابلل به الحطب الذى كان مبتلا بالماء . وقد تلطخ حذائى بنفس البقع عندما خضت فى بحيرة من الزيت، وقلت فى نفسى انه يتعين تجفيف هذا الزيت على الفور.

وعندما عدت ، كان الزيت قد اختفى ، وكان السيد

هو الذى جففه ، اذ وصلت بينما كان ينتهى من ذلك .
ـــ وماذا قال لك ؟
ـــ قال الا اهتم بالامر ، ففى مثل هذه الاوقات ، يجب أن يكون كل انسان نافعا . يا للسيد المسكين ، لقد كان يفكر فى كل شىء .
قلت :
ـــ ماريا .. اننى اشعر بالبرد .. فضعى قليلا من الحطب فى النار .



وفى أقل من ساعة ، كانت سيارة هنرى تحملنى الى المركز .
لم يكن صاحب الجراج قد تغير ، كل ما هناك ان شعره قد اصبح لونه ابيض .
كان يكرر بين الحن والآخر :
ـــ سيدتى .. سيدتى .. اننى سعيد برؤينك .
كنت مرهقة الى درجة لا استطيع وصفها . وقد وددت الاحتفاظ ببقية قواى للمهمة المروعة التى لازالت امامى .
غير ان ذلك لم يكن ممكنا ، فان هذا ايضا ، ينبغى له ان يتكلم ، وان يقول ما كان يذكره .
قلت :
ـــ ان هذا يسعدنى ايضا يا هنرى .. خذ حذرك من المنحنى .
ـــ لا تخشى شيئا يا سيدتى .
ـــ اعرف هذا يا هنرى ، ولكن لا تثق فى نفسك

كثيرا ، فان مثل هذا المنحنى هو الذى اودى بحياة الانسة .

أظلمت عيناه وقال :

ــ اذكر ذلك ياسيدتى .

ــ كيف امكن حدوث ذلك يا هنرى ؟

وسعل قليلا ، ثم أبطأ بعض الشىء من سرعته وقال :

ــ أواه ياسيدتى لو كنت اتحـدث الى سائق او الى واحد من المهنة ، لاستطعت ان اشرح له الامر ، فانه لابد من معرفة امور خاصة . ان سيارة مسيو فرانز ليست مثل السيارات الاخرى ، لقد انتشرت الان فى البلدة ، وقد استطعت ان ادرسها . ففى ليلة الحادث، استطعت ان ارى دواسة الفرامل وقد ضغط عليها الى نهايتها ، وهذا دليل على ان الانسةارادتاستخدامها . وفيما بعد فقط ، فهمت لماذا لم تعمل . لقد كان ينقصها الزيت .

ــ هل كانت دواسة الفرامل مضغوطة الىنهايتها ؟

ــ بالتأكيد يا سيدتى ، وقد رآها ايضا اثنان مـن الحاضرين يومها . وفى صباح اليوم التالى اردت ان اجعل آخرين يشاهدونها ، ولكننى لم استطع ، اذ ان مسيو فرانز كان قد رفع الحطام اثناء الليل .

ووصلنا الى المنازل الاولى فى المدينة ، وكانالمساء قد بدا يهبط . وسألنى هنرى :

ــ الى اين اذهب يا سيدتى ؟

ــ الى المحكمة .

توقفت السيارة وهبطت منها .

ــ هل على ان انتظر يا سيدتى ؟

ــ كلا يا هنرى .. اننى سأبيت هنا هذا المساء .. شكرا لك مرة اخرى .. والى اللقاء .

وطرقت على باب حارس المحكمة وانا اقول :

ــ اين وكيلَ النيابة من فضلك ؟

وجاءنى صوت من اعماق الغرفة يقول :

ــ الدهليز الايمن .. الباب الاول الى اليسار .

كان هذا الدهليز مضاء بمصباح صغير ، وعلى المقاعد الخشبية المستطيلة رأيت اشباحا جالسة ، تبينت منها فلاحا ، وامرأة شابة معها طفلتها ، ورجلا له لحية مدببة يبدو عليه التشرد . وكان هذا الاخير مشتبكا فى نقاش مع الفنى الذى يشرف على القاعة، اذ كان يطلب منه الامتناع عن التدخين .

قال الرجل :

ــ ان القاضى نفسه يدخن ، وكذلك رئيس الجندرمة، اليس كذلك ؟

وسألت الفتى فى رفق :

ــ وهل وكيل النيابة هنا ؟

ــ ان دورك الثانى .

فجلست انتظر ، بينما كان حديث من بجوارى يأتى الى كما لو كنت فى حلم .

كانت المرأة الشابة قد هجرها زوجها ، فجاءت تطالبه بالطلاق ، وباعفائها من النفقات القانونية .

وقال لى الفتى :

ــ هذا دورك .

نهضت ، ودلفت الى مكتب بسيط قليل الضوء ، فجاء رجل فى حوالى الاربعين للقائى .

قلت :

ــ السيد وكيل النائب العام ؟ .

ــ انا هو ياسيدتى .. اسمحى لى ان اقول لك اننى متعجل هذا المساء ، فاذا لم يكن الامر عاجلا .. فاننى اطلب منك .. فما هو الامر ؟

ــ قضية قتل ياسيدى .

انتفض وهو يقول :

ــ فى هذه الحالة .. ارجوك ان تتفضلىبالجلوس.



بعد ذلك بساعة كنت قد انتهيت من اعادة روايتى التى ادليت بها امام وكيل النائب العام على قاضى التحقيق ، فقدم لى هذا محضرا باقوالى ، فوقعت عليه بيـــد ثابتة .

ودخل الفتى المشرف على القاعة ، فتحدث اليـــه قاضى التحقيق فى صوت منخفض ، فعاد وخرج مرة اخـــرى .

وأخذ القاضى يقول :

ــ سيدتى .. اعتقد انك فكرت جيدا فى النتائج التى سوف تترتب على الاقوال التى ادليت بها . ومن واجبى منذ الان ان انبهك الى اننى قد وقعت امرا باعتقال السيد فرانز و . بتهمة قتل الانسة ابنتك .

احنيت رأسى ، ومضى القاضى يقول :

ــ والان لا تدهشين .. اذا كنت .. تطبيقا للمادة ٦٠ الفقرة الاولى من قانون العقوبات .. ارى نفسى مضطرا ان اوجه اليك تهمة الاشتراك فى هــذه الجريمة .. واصدر على الفور قرارا بحجزك .

واحنيت رأسى مرة اخرى ، فقال :

ــ حسنا .

ودق جرسا ، ففتح الباب . وبعد دقيقة اخرى كنت اجتاز عتبته بين اثنين من رجال الجندرمة .

كان الدهليز مقفرا ، ولم يبق فيه سوى المرأة الشابة ، ومعها طفلتها . وعندما مررت امامها ، سمعت الطفلة الصغيرة تسأل امها :

ــ ماذا فعلت هذه المرأة العجوز يا اماه ؟

[تمــت]





دار الكتاب الجديد

اسعار بيع الكتاب فى البلاد العربية

العراق	. . . .	١٥٠	فلسا عراقيا
لبنان	. . . .	١٠٠	قرش لبنانى
سوريا	. . . .	١٥٠	قرشا سوريا
الاردن	. . . . .	١٢٥	فلسا اردنيا
الكويت	. . . .	٢٠٠	فلس كويتى
السودان	. . . .	١٥٠	مليما سودانيا
الجزائر	. . . .	٣	دينارات جزائرية
ليبيا	. . . . .	١٥٠	مليما ليبيا
البحرين	. . . .	٢٠٠	فلس بحرينى
عدن	. . . .	٥	شلنات
قطر	. . . .	٢٠٠	نيا بيزا



الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة
** شهر سبتمبر 2018 **
www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

ترى ماذا ينطوى عليه قلب امراة ؟

وما الذى يتردد فيه غير مشاعر الحب ، وتأوه
الغرام ؟

ترى هل تلقى بالا الى مايدور حولها غير الحب . وه
تتأثر بالآلام التى يعانى منها غيرها اذا كانت هى غا
فى أحلامها ، لاتفيق من متعة الجسد ؟

ومتى تستيقظ وتثوب الى رشدها ؟

ألابد لها من هزة عميقة تزلزل كيانها ، حتى تدر
أن عليها واجبا أكبر من الحب ؟

ان البرتا هى التى تحدثنا عن كل ذلك .. وهى ال
تنير لنا أعماق القلب .. قلب المرأة .

١٠ قروش
ف ج ع م .